

١٩١٤ـــ٢٠١٤

مائة عام على الحرب العالمية الأولى

اصدارات معهد غوته



«قوموا أيها الموتى» حفر على الخشب للفنان فرانس مازاريل

Privatsammlung Karl-Heinz Kles. VG Bild-Kunst 2013, Foto: Frans-Masereel-Stiftung, Saarbrücken ·

من معرض: *The Avant-Gardes at War*. Kunst- und Ausstellungshalle der Bundesrepublik Deutschland, 08.11.2013–23.02.2014

الافتتاحية

العدد ١٠٠ ـ أكثر من خمسين عاماً

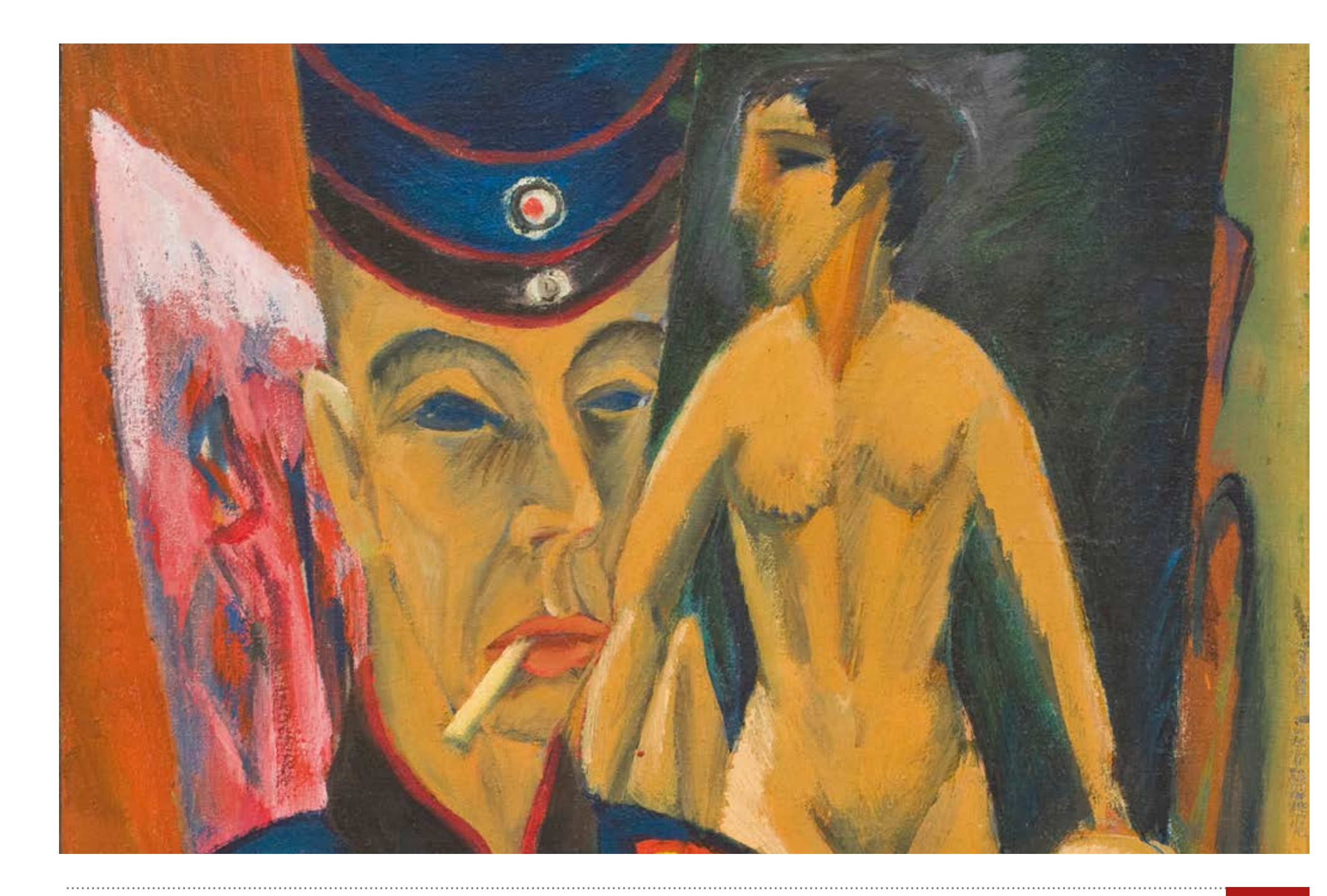
مع هذا العدد تصل مجلة «فكر وفن» في طبعتها العربية للعدد ١٠٠، في مسيرة طويلة تتجاوز خمسين عاما من العمل الدؤوب. تاريخ حافل بلاشك في عمر مجلة صمدت كل هذه العقود بتقلباتها المختلفة. وحين نتحدث عن «فكر وفن» فإن الأمر لا يقتصر على الطبعة العربية فحسب، بل الإنكليزية والفارسية أيضا. إذ تحتفل هاتان الطبعتان ببلوغهما العدد ٢٥ في اثني عشر عاما (تصدر الطبعتان منذ عام ٢٠٠٢). ومما لا شك فيه أن تاريخ هذه المجلة، الذي أفردنا له مقالة خاصة في هذا العدد، مميز بالنظر للتطورات التي شهدتها وسائل الإعلام في السنوات الخمسين الأخيرة، وخصوصا في الأعوام الاثني عشر الماضية. واليوم بمقدور أي شخص في أي مكان في العالم، ومن خلال شبكة الإنترنت، أن يقرأ مقالات المجلة في أربع لغات عالمية هي: العربية والفارسية والإنكليزية والألمانية. وكل عدد من مجلة «فكر وفن» (الطبعات الورقية الثلاث وبالألمانية في الإنترنت) يشكل وحدة فريدة متكاملة من حيث المضمون والشكل الفني الذي تخرج به المجلة (يعود الفضل في ذلك لميشائيل كروب، الذي يشرف منذ سنوات طويلة على الإخراج الفني لفكر وفن ولزميليه أمين المهتدي وفروخ معيني المشرفين على الطبعتين العربية والفارسية).

ويشكو بعض القراء أحيانا، ممن يحصلون على مقالة ما من «فكر وفن» عن طريق محرك البحث في الإنترنت، من أنها (أي المجلة) ليست محايدة أو أنها تتبنى اتجاها معينا. هذا الاتهام الذي يبنيه بعض القراء من خلال قراءة نص ما دون وضعه في سياقه العام، يتجاهل أن هيئة التحرير تتقصد نشر مقالات أخرى في العدد نفسه تعالج ذات الموضوع وبزوايا ووجهات نظر ورؤى متباينة. وحدها النظرة العامة على كامل مواد العدد أو ملفه كفيلة بإعطاء القارئ صورة أولية عن مختلف جوانب الموضوع الذي نود طرحه للنقاش، وهو ما ينطبق على العدد الحالي، العدد ١٠٠، من مجلة «فكر وفن» أيضا.

لقد خصصنا هذا العدد لمرور مائة عام على الحرب العالمية الأولى وما تركته من تداعيات على عالمنا المعاصر. ففي شهر آب/ أغسطس من عام ١٩١٤ اندلعت الحرب العالمية الأولى التي تسببت في إحداث تغييرات جوهرية في العالم وخصوصا في منطقة الشرق الأوسط. وما دفعنا إلى تخصيص ملف هذا العدد لتأثيرات هذه الحرب، ليس الحنين بالتأكيد إلى ماض عنيف قد ولى دون رجعة ودون التأسف عليه، بل ما تشهده المنطقة العربية من أحداث مؤلمة يعود جذور بعضها لنتائج الحرب العالمية الأولى ومخلفاتها. وخير مثال على ذلك الأزمة السورية والحرب التي تشهدها البلاد منذ ما يقارب ثلاثة أعوام، وخصوصا ما يقوم به النظام السوري. فبدون العودة إلى الحرب العالمية الأولى ونتائجها، وتحديدا فترة الانتداب الفرنسي على سوريا، لا يمكن معرفة ما يجري تماما هناك، وهو يفسره **نجاتي ألكان** في مقاله في هذا العدد «فرق تسد، تأسيس الدولة العلوية بعد الحرب العالمية الأولى». كذلك يصعب تصور وجود المملكة العربية السعودية، كما هي عليه اليوم، وإمارات الخليج بدون العودة إلى الحرب العالمية الأولى والسياسة الاستعمارية الإنكليزية، وهو ما تعالجه الباحثة الألمانية المعروفة **أولريكه فرايتاغ** في مقالها في هذا العدد. كما يشرح لنا الكاتب الألماني من أصل تركي **ظافر سينوجاك** العلاقة الصعبة بين تركيا الحديثة والإمبراطورية العثمانية التي انهارت في الحرب العالمية الأولى.

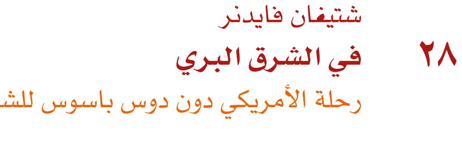
مخلفات الحرب العالمية الأولى وتأثير الحقبة الكولونيالية في عالمنا المعاصر نجدها أيضا في مقالات كل من **ستانيسواف ستراسبورغر** و **ألكسندر فيلّ** و **أوفه شنيده**. كما تتطرق «فكر وفن» في هذا العدد إلى الصراع في البلقان (حيث اندلعت الحرب الكونية الأولى) الذي لا تزال تداعياته مستمرة إلى يومنا هذا والدروس التي يمكن الاستفادة منها في الشرق الأوسط. العدد مائة يضم أيضا موضوعات أخرى خارج الملف الرئيسي كمقالة **نويد كرماني** عن سلسلة الجرائم الغامضة التي نفذتها مجموعة يمينية متطرفة استهدفت عددا من الأجانب في ألمانيا معظمهم مسلمون؛ الأمر نفسه ينطبق على مقالة **هانا روبيلين** عن الجرافيتي في الثورة المصرية.

وإذ تضع هيئة تحرير «فكر وفن» العدد ١٠٠ بين يدي قرائها فإنها تسعى إلى طرح ملف جديد للنقاش وإغنائه من خلال وجهات نظر مختلفة حول واحدة من أهم فترات تاريخنا المعاصر.



١٩١٤ ـ ٢٠١٤ مائة عام على الحرب العالمية الأولى







إضاءات



كتب ـ مسرح



**١٩١٤ ـ ٢٠١٤
مائة عام
على الحرب
العالمية الأولى**

■ شكّلت الحرب العالمية الأولى منعطفاً تاريخيا ومحرّكاً للتغيير في كل المجالات بما فيها الفن التشكيلي. إذ نادرا ما عرف التاريخ ذلك العدد الكبير من المفاهيم والمدارس الفنية الجديدة التي نشأت في تلك السنوات القليلة. وكان موقف الفنانين من الحرب متناقضاً، فبينما رحّب بها الكثيرون في البداية غيّر آخرون رأيهم بعد فترة واعتبروها أمراً بشعاً مخيفاً. لكنّ الجميع تأثّروا بها بشكل مباشر بلا شك.



الطليعيّون والحرب

الفن التشكيلي ما بين الحربين العالميتين

أوفه شنيده UWE SCHNEEDE

كان الفن الطليعي يعيش أوج ازدهاره في الفترة التي سبقت مباشرةً الحرب العالمية الأولى. ونحن نسمّي هذه المرحلة اليوم «الحداثة الكلاسيكية». وقد برز فيها فنّانو مجموعة «الجسر» و «الفارس الأزرق» في ألمانيا، والمستقبليّون في إيطاليا والمجموعة التي أطلقت على نفسها اسم «العاصفة» في انكلترا والتكعيبيّون في فرنسا، أما في روسيا فقد تمثّلت الحركة الطليعية في الفنّانين الذين تجمّعوا حول كاسيمير ماليفيتش وناتاليا غونتشاروفا تحت أسماء مختلفة. ورغم أن هذا الفن الجديد واجه هجوماً مستمراً لدى خروجه إلى النور إلاّ أن أولئك الفنّانين استطاعوا إثبات وجودهم وإنجاح حركتهم من خلال التعاون في إقامة معارض مشتركة والحصول على مساعدة عشاق جمع الأعمال الفنية والعاملين في تجارة الفن.

المرحلة الكبرى قبل ١٩١٤ في تلك الفترة اقتحم الفنّانون أرضاً جديدة وخاصة في مجال استخدام الأدوات التشكيلية الجديدة، والتي تتبدّى فائدتها الحقيقية عندما يكون هدف الفنّان هو الوصول إلى التجريد. وقد لجأ الفنّانون إلى التجريب لكي يكتشفوا طرقاً جديدة في عرض كلّ من موضوع العمل والشكل الذي يظهر به. وكانت النتيجة نوعاً من الجمع بين الواقعية والتجريد وبطريقة لم تحدث من قبل. كتب فاسيلي كاندينسكي، الذي كان يعيش في ميونيخ: „يا له من إنجاز يمزج الطرافة بالدقّة بحيث أن لدينا الآن هذا التنوّع الكبير في الأصوات الفنية. إنّها بمجموعها تصنع سيمفونية القرن العشرين".

لودفيغ مايدنر
«منكوبون»، ١٩١٢، زيت
من معرض:
1914 – The Avant-Gardes at War
Kunst- und Ausstellungshalle
der Bundesrepublik Deutschland
08.11.013–23.02.2014
© Museum Folkwang, Essen

وفي حين أن مجموعة «الجسر» تأسّست ضمن بلد واحد، فإن مجموعة «الفارس الأزرق» انطلقت بشكل عالمي منذ البداية، حيث كان من ضمن أعضائها روس وفرنسيون وإيطاليون ونمساويون. اعتباراً من فاسيلي كاندينسكي وأليكسي، مروراً بيافلينسكي وبابلو بيكاسو وروبرت ديلونيه وانتهاء بإرما بوسّي وأرنولد شونبرغ الذي شارك معهم كرسّام. وقد عرضت جمعية الفنانين «كارو بوبه» في موسكو عام ١٩١٢ أعمالاً لفنانين من مجموعة «الجسر» ومجموعة «الفارس الأزرق» وللفرنسيّين ديلونيه والبرت غليزيه وفرناند ليجيه وهنري ماتيس أيضاً. وقد ثمّن فرناند ليجيه عام ١٩١٤ «صالون المستقلّين» الباريسي واصفاً إياه بأنه „أهم تظاهرة للفن العالمي الحالي". وبينما كانت الدول تحضّر نفسها عسكرياً ومعنوياً للحرب وتشن الحروب الدعائية ضد بعضها بما في ذلك من تصوير الآخر كعدوّ ينبغي سحقه، كان فنّانو تلك البلدان المتعادية يعاملون بعضهم كأصدقاء بنوع من الحسّ الأممي.

منعطف ١٩١٤ انهار كل شيء مع اندلاع الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤. فقد كان على الفنانين أن يلتحقوا بالحرب أو أنهم أرادوا ذلك بأنفسهم وانتهت بذلك تلك العلاقات الأممية. ويكفي المصير الذي آلت إليه مجموعة الفارس الأزرق ـ والتي كان لسان حالها صحيفة «المناخ» ـ مثالاً يشرح كل شيء: فقد فرّق الموقف المختلف تجاه الحرب كلاً من فرانز مارك وكاندينسكي وكلاً من مارك وباول كلي. كما كان على كل من كاندينسكي وياولنسكي وماريانه فون فيريفكين كروس مغادرة الأراضي الألمانية باعتبارهم «أعداء أجانب» عندما بدأت الحرب. وبذلك تم حلّ المجموعة عملياً وألغيت معارضها الجوّالة

الكثيرة. وقد كان الشاعر هوغو بال يخطّط لجعل كاندينسكي يقدّم حلمه الكبير عن العمل الفني المتكامل لجمهور ميونيخ. لكن ذلك المخطط لم يعد وارداً طبعاً بعد ذلك كله. كما أن الحرب جعلت من الصديق الحميم لأهل ميونيخ الفرنسي روبير ديلونيه عدوّاً رسمياً. ولم يطل الأمر كثيراً حتى سقط أوغست ماكه في أيلول/ سبتمبر ١٩١٤ وفرانز مارك في آذار/ مارس ١٩١٦ قتلى في الجبهة.

لم يكن الفنانون الذين يقاتلون في الجبهات فقط هم من عُزلوا عن زملائهم في المجال الفني وعن أصدقائهم وجمهورهم، ولكن ذلك شمل أولئك الذين لم يلتحقوا بالحرب أيضا. ينقل لنا جوان غريس عن تاجر القطع الفنية دانييل ـ هنري كانفايلر، الذي كان عليه أن يهرب من فرنسا باعتباره ألمانيا، قوله في ٣٠ تشرين الأول/ أكتوبر: „يكتب ماتيس من باريس...، أن دوران في الجبهة وسيغونزاك أيضا. كما أن دو لا فريسناي الذي التحق بالحرب طوعا يرقد الآن جريحا في مشفى ميداني احتياطي. فون براك الذي تهمني أعماله أكثر من أي فنان آخر انقطعت أخباره تماما." وهذه شهادة كتبها دوشامب عام ١٩١٥ من نيويورك عن باريس: „باريس تشبه منزلاً مهجوراً. الأنوار مطفأة والأصدقاء غائبون، إما في الجبهة أو أنهم قُتلوا." الطليعيّون يواجهون النهاية.

مابين الحماس للحرب والتشكّك بها لقد جعلتنا تجربة حربين عالميتين بما فيهما من هزّات وأهوال لا نفهم ذلك الحماس للحرب في آب/ أغسطس ١٩١٤ وتبادل العداء والكراهية ما بين المتحاربين وخاصة بين الألمان والفرنسيين وبين الألمان والإنكليز. وعندما يقرأ المرء ما كتبه المثقّفون والفنّانون من رسائل ومذكّرات تعود إلى ذلك الزمان يخرج بانطباع بأنه لم يكن لديهم تقريباً تصوّر عن الحرب الحقيقية. أما الشكل الجديد للحرب التكنولوجية الحديثة فقد جهلوه تماماً. لقد كانت الحرب التي سبقت الحرب العالمية الأولى موغلة في القدم بالنسبة إليهم. وكانوا يأملون بتغيير عميق يخلّصهم مما كان يُدعى «مادّية» في تلك الأيام. ويقرّبهم من «الإنساني» أو «الروحي» وهي نفسها تعابير ليست أقل غموضاً، وهي تعني «الشأن الثقافي» عموماً. كان يُنظر إلى الحرب „مجازياً" كحدث تجديدي ذي سمة طبيعية، أو حسب صياغة مؤرّخ الفن بيتر باريه: „كتحرير للإنسان المفكّر من مجتمع مصاب بوباء الفساد وفقد الحساسية".

هذا الفهم للحرب كان هو الدافع الذي جعل فرانز مارك يرمي نفسه فيها بطريقة لم يسبقه إليها فنان آخر. كان تعبيره الأثير في هذا السياق هو «التطهير». „فمن أجل التطهير تخاض الحروب وتُزهق الدماء"، كما يقول الفنّان، وبرأيه فإن العالم القديم منافق وكاذب ومتظاهر ولا أخلاقي ومتمسّك بالشكليّات وبذلك فهو الذي قد اختار فناءه بنفسه. وقد كتب مارك من الجبهة لكاندينسكي، وكان في ذلك الوقت بقرب منطقة متس، أنّه يرى في الحرب „وسيلة شافية للوصول إلى أهدافنا، رغم وحشيّتها" فهي „ستطهّر أوروبا". لكن كاندينسكي رد عليه بإيجاز: „ستجهّزها لذلك"، وأكمل مُبدياً شكوكه وعدم تفهّمه: „كنت أعتقد أن التحضير لبناء مستقبل جديد يتطلّب تنظيف المكان الذي سيقام عليه ولكن بطريقة أخرى. إن الثمن الذي يُدفع لهذا التنظيف مخيف ومقزّز". كان كاندينسكي في ذلك الوقت يعيش منفيّاً في سويسرا. وكان قد كتب لمارك قبل ذلك بسنتين رسالة توضّح تصوراته الواقعية تقريباً حول الحرب التي كان يدور حولها الحديث حينها. ومما جاء فيها: „يمكن للاحتمالات المُرعبة أن تتطوّر بلا نهاية وقد تؤدي إلى نتائج قذرة ومديدة ستسحب ذيولها النتنة على الكرة الأرضية بكاملها... وإلى جبال من الجثث". إذن فلدينا صديقان حميمان لكل منهما تصور مختلف وموقف مناقض لموقف الآخر من الحرب. كما أن صديقاً آخر هو باول كلي بدأ الآن ينظر إلى مارك بعين النقد والريبة. يلفت انتباهه في هذا السياق تعابير السلوك والمظهر العسكري والبذلة العسكرية التي يرتديها مارك: „ذلك الزي والتقليد الملعون يستحق الكراهية".

لكن ذلك الاحتفاء بالحرب وتعظيم شأنها لم يكونا دائماً مدفوعين بموقف وطني أو قومي بل كانا تعبيراً عن الموقف المعادي للبورجوازية الذي اتخذه الفنانون الطليعيون سواء في روسيا أو ألمانيا أو إيطاليا أو النمسا. فقد كانوا ينتظرون من الحرب أن تدمّر الأنظمة القديمة وتتجاوز العالم الذي دمغته البورجوازية ذات الثقافة التقليدية بطابعها الذي تجاوزه الزمن. لم يكن لديهم أهداف مشتركة ملموسة وواضحة أو نماذج لمجتمع مثالي بديل وإنما رغبة معينة يعبّر عنها ماكس بكمان بالكلمات التالية: „لقد جعلتهم الثقافة المُحبطة السائدة هذه الأيام يبحثون عن اهتمام ما يوجّهون إليه دوافعهم. وهذا يعني بكلمات أخرى تركيز طموحاتهم الغامضة ونزوعهم إلى عالم أفضل على هدف واضح ذي مغزى أخلاقي وعقلاني".

كانت توقّعاتهم من الحرب مختلفة تماماً. وسنكتفي هنا بإيراد ثلاثة مواقف متناقضة كمثال على ذلك: فقد كان رأي الفنان الألماني لوفيس كورينت „أنّه إذا نظرنا إلى فن المدرسة التكعيبية والساذجة التي تقلّد الفنون البدائية الأفريقية ـ وهو يعني بهذا الفنانين الفرنسيين الذين ينحون هذا المنحى ـ"، فإن إعلان الحرب جاء كنوع من الصاعقة التي „ستُظهر للعالم أن الفن الألماني يحتل ذروة الفن العالمي." و „فلتختفِ نزعة التقليد ـ السلافية التي تميّز الحقبة الفنيّة الأخيرة لزماننا".

لكن هذه الأصوات القوميّة المتعصّبة كانت قليلة بين الفنّانين، باستثناء فنّاني إيطاليا. من جهة أخرى كان ثمة من يخشى من أن يُحسب مع الجبناء الذين يتهرّبون من واجبهم ولذلك عليهم أن يتطوّعوا بأنفسهم للمساهمة في الحرب. عبّر عن هذا الموقف وبهذه الطريقة شبه السخيفة إرنست بارلاخ وفلهلم ليمبروك وأوسكار شلمر و وأوسكار كوكوشكا الذي قال „لأنه عارٌ أبدي أن يقعد المرء في بيته". أما الموقف الثالث فقد عبّر عنه ماكس بكمان وأوتو ديكس اللذان أرادا أن يعيشا تجربة الحرب نفسها كنوع متطرّف وغير عادي من الحياة والواقع ليعكساها في الفنّ.



إرنست لودفيغ كيرشنر
«بورتريه شخصي كجندي»، ١٩١٥
من معرض:
1914 – The Avant-Gardes at War
Kunst- und Ausstellungshalle
der Bundesrepublik Deutschland
08.11.013–23.02.2014
© Allen Memorial Art Museum,
Oberlin, Ohio

تناقض لا حلّ له لقد كان التناقض الذاتي، أي في موقف الفنان نفسه، أكثر شيوعاً في ذلك الوقت من المواقف الثابتة كالموقف القومي أو التعصّب للوطن. فرغم أن ماكس بكمان ذهب إلى الجيش متطوّعاً، إلاّ أنّه لم يكن يريد إطلاق النار، لا على الروس لأنه كان يعتبر دوستويفسكي صديقاً روحيّاً، ولا على الفرنسيين لأنّه تعلّم منهم الكثير. وصحيح أن مارك قاتل الجنود الفرنسيين بشراسة لكنّه لم يكن يريد إطلاقاً أن „يبيد الثقافة الفرنسية التي يقدّرها كثيراً". هذا الموقف المتناقض الذي كان شائعاً بين الفنّانين والذي لا يمكن أن ينسجم مع الروح الإنسانية كان يسمح بقتل البشر ولكنّه يريد أن تبقى الثقافة والفن و «الروحي» عموماً سليمة لا تُمسّ. لقد وقع كل من كلي ومارك في حيرة تجاه الحرب ضد أمّة يثمّنان ثقافتها وينتمي إليها أصدقاء حميمون من الفنّانين عبّرا عنها بطريقة متناقضة مع نفسها. فقد كتب كلي بعد سقوط الصديق المشترك أوغست ماكه في المعركة: „من هنا فإن أوغست ماكه، عدوّ الفرنسيين، قد سقط." كما كتب مارك عن الرحيل الفاجع والمفاجئ لماكه: „سقط برصاصة عدوّة، بل إن المرء ليودّ أن يقول رصاصة صديقة، فقد كانت فرنسية".

كان موقف الفنّانين الإيطاليين المنتمين إلى الاتجاه المستقبلي –futurist– بقيادة ف. ت. مارينتّي هو الأقرب إلى الترحيب بالحرب من بين مواقف الطليعيّين الأوروبيّين. فقد كال بيان المستقبليين الذي صدر عام ١٩٠٩ المديح لكل أشكال العدوانية والهجومية والديناميكية والشجاعة والخطر... الخ: „لم يعد ثمة جمالية إلاّ

للقتال”. ولا شك أن أحد أسباب هذا الفيض البلاغي هو محاولة استفزاز البورجوازية. لكنّ هذه البيانات الواضحة بخصوص الحرب كان لها تأثير مديد وسياسي أيضاً. „إننا نريد تمجيد الحرب، ذلك التطهير الوحيد للعالم، والنزعة العسكرية والوطنية والفوضويّة بفعلها التدميري، وتلك الأفكار الجميلة التي يضحّي في سبيلها الإنسان بروحه واحتقار المرأة التقليدية”. انتهت النزعة المستقبليّة إلى الفعل المباشر والحيوي بالحرب. في بيانه „الحرب، التطهير الوحيد للعالم، ١٩١٥” أعلن مارينيتّي: „إلى كل مستقبليّي إيطاليا من شعراء ورسّامين ونحّاتين وموسيقيّين: اتركوا القصيدة والريشة والإزميل والأوركسترا. فلقد بدأت الرحلة الحمراء للعبقرية! وليس يطربنا بعد الآن إلاّ سيمفونية المدافع المرعبة وتلك المنحوتات الرائعة بجنون التي تشكّلها المدفعية الملهمة من الكتل الكبيرة لجنود أعدائنا”. أذن فقد أصبحت المدفعية هي الفنّان الحقيقي الكامل وجبال الجثث أصبحت منحوتات وتماثيل تستحق الإعجاب.

نقد الحرب لكننا لا نستطيع التعميم بأن كل فناني ١٩١٤ كانوا متحمسّين للحرب وأفكارها. ففي فرنسا عبّر أندريه بريتون، الذي سيصبح الرأس المفكّر للسريالية، في نفس اليوم الذي أعلنت فيه ألمانيا الحرب عن احتقاره „للحماس السخيف للحرب” و „للبيانات الشوفينية ذات النفس الطفولي”. أما في هولندا فقد عبّر ثيو فان دوسبورغ عن مخاوفه بأن تؤدي الحرب إلى انتصار العالم المنافق القذر على العالم المثقّف والنبيل. وقد كانت مخاوف أقرب إلى الواقع من آمال مارك التي كانت بالعكس ترى أن الحرب ستنتهي بانتصار الثقافة على النزعة الماديّة المبتذلة.

هناك فنّانون أداروا للحرب ظهورهم وهاجروا إلى الخارج، مثل روبير دولوني وفيلهلم ليمبروك وهانز أرب أو مارسيل دو شامب. وقد لاحظ ماكس إرنست: „لقد تلت آب/أغسطس ١٩١٤ موجة الحرب القذرة. لا أحد من الأصدقاء مستعجل على التضحية بحياته في سبيل اللّه والملك والوطن. آرب هرب إلى باريس (كمواطن إلزاسي) ... ”. ومن ذكريات فيلهلم ليمبروك المؤثّرة بشكل خاص: „كنت في كولونيا لمدة عدة أسابيع في نهاية تموز/ يوليو ١٩١٤ عندما بدأت الأجراس القيصرية الكبرى للكاتدرائية تُقرع منذرة باقتراب الحرب بأسرع ما تستطيع. لا بأس، إنها الأجراس القيصرية للكاتدرائية على الأقل. ولكن الأمر لم يطل إلى أن نزلت سرايا الجنود إلى الشوارع في مارشات عسكرية تغطّي خوذها بأوراق البلّوط الخضراء وتنهمر عليها زهور الصيف من جميلات الصبايا والنساء. وهم يهتفون عالياً أو يغنّون: „علا صوت النداء..” أو „ألمانيا، ألمانيا فوق الجميع”... عند ذلك نظرت من شرفة فندق صغير إلى الشارع مشدوهاً، وكالمشلول كنت أرى كيف تتحوّل آلاف من الرؤوس المتحمّسة للحرب إلى رؤوس قتيلة، نعم رؤوس ميّتة مكشّرة ذات أفواه فاغرة وفي كل منها فتحتان سوداوان بجانب الأنف الممزّق. نعم لقد رأيت ذلك”.

صدمة الواقع في منتصف عام ١٩١٥ لم يعد معظم مؤيّدي الحرب يفكّرون بالطريقة نفسها التي كانوا يفكّرون بها قبل عام من ذلك التاريخ. والسبب هو التغيّر الكبير الذي أحدثته الحرب في وضعهم. فالكثير من الفنانين أصيبوا بجراح خطيرة، كما أن آخرين انهاروا تماماً كحال ماكس بِكمان وإرنست لودفيغ كيرشنر. كما قُتل من الجانب الألماني كل من أوغست ماكه وألبرت فايزغيربر ومن الجانب الفرنسي هنري غودبير ـ برزسكا. لقد عايش الجميع على الجبهة أو خلفها تماماً أعمال الإبادة العسكرية المتواصلة والتي شملت كل مكان. وما كتبه أوسكار شلمر ينطبق على كل الفنانين تقريباً: „لم أعد ذلك الرجل الذي تطوّع بنفسه للحرب في آب/ أغسطس. لا جسدياً وبالتأكيد ليس نفسياً أيضاً.” أكمل هانز رشتر بعد ذلك: „كنّا خلال الحرب ضد الحرب”.

ورغم كل إجراءات المراقبة فقد بدأ الفنانون يعملون لنقل ما عايشوه من تدمير هائل بمجرد أن أدركوا ذلك وفور عودتهم إلى مراسمهم وورشاتهم. وكان هدفهم إيصال هذه التجربة وهذا الموقف المضاد للحرب إلى الجمهور العريض عبر سلسلة من الأعمال الفنّية. كان هذا حال كل من الفنانين الألمان فيلي ياكِل وماكس سليفوغت، والفرنسي فيلكس فالوتون والبلجيكي فرانس ماساريل. كما أن الفنانة الروسية ناتاليا غونتشاروفا أنتجت سلسلة أعمال كهذه. إذن فلم ينتظر الفنانون إلى نهاية الحرب ليعلنوا عن نقدهم الحاد لها بشكل فني، بل فعلوا ذلك مبكّراً بعد تجربتهم الأولى فيها. وهذا ينطبق على كل البلدان.

كان أولئك الفنانون الذين سماهم باول كلي «رسامين بلا ريشة» في مواقعهم المتفرّقة في الجبهة أو خلفها مضطرين لاستخدام تكنيكات بسيطة ولوحات صغيرة قابلة للنقل السريع. رغم ذلك فقد عملوا كثيراً بهذا العتاد البسيط. يقول أوتو ديكس: „تراكمت أعمالي حتى لم أعد أعرف أين أذهب بها”. وسنقتصر هنا على بعض الأمثلة فقط: فقد عالج فرناند ليجيه وديكس حدث الحرب المرعب والفريد والدمار الذي رافقه بشكل أساسي. بينما كرّس بِكمان والروسي أوسيب زادكين أعمالهم لمعاناة الضحايا. في حين عكست أعمال لودفيغ مايدنر والنمساوي إيغون شيله التقابل بين الغرباء بطريقة مكثّفة. وكان موضوع عمل فيليكس فالوتون هو تأثير الحرب على الطبيعة والأرض التي أصبحت يباباً. أما من ناحية التكنيك وطريقة العمل فقد تغيّرت بالمقارنة مع الفن المعتاد تحت تأثير تجربة الحرب وبشكل فردي تماماً. وأصبحت في الكثير من الحالات أكثر توجّهاً إلى الواقع .

وقد اكتسب سؤال الهوية الخاصة موقعاً مركزياً لدى أولئك الفنانين المعزولين والمتروكين بلا أية مساعدة والمحرومين من التواصل وتبادل الخبرات مع زملائهم من الفنانين. وكان وضعهم كجنود يقيّدهم مكانيّاً ويجعلهم يحسّون بأن الموت قريب منهم ويحرمهم من جو المرسم الآمن. ينطبق ذلك بشكل خاص على الفنانين الألمان، وأقل على الفنانين الطليان والفرنسيين بسبب ما ظُنّ أنه وطنيّتهم وإن كان السبب الأهم هو وضوح موقفهم وثباته. كان الأمر يبدو



إيغون شيله
بورتريه لزوجة الفنان، ١٩١٧، زيت
من معرض:
1914 – The Avant-Gardes at War
Kunst- und Ausstellungshalle der
Bundesrepublik Deutschland
08.11.013–23.02.2014
© The Pierpont Morgan Library New York

وكأن الفنان قد فقد دفعة واحدة كل شيء ثابت في حياته بما فيه دوره ومكانته. وكثيراً جداً ما عرض الفنانون أنفسهم كأشخاص حائرين وفاقدين للتوجّه. نرى مثلاً لودفيغ كيرشنر ـ الذي لم يكن في الجبهة ـ في صورة ذاتية له تعود إلى عام ١٩١٥ في حالة رعب وذراعه اليمنى مبتورة.

لقد فرضت هزّات الحرب نفسها على اللغة الفنية وتركت آثارها في أسلوب بعض الفنانين. وأثر ذلك بين الفنانين الألمان أكثر وضوحاً مما هو بين زملائهم الفرنسيين والايطاليين. إذ فقد ماكس بكمان شعوره القديم بالأمان وصار يحاول عبر الرسم بخطوط مرتجفة أن يجسّد ذلك الواقع في لوحته. كما اخترع أوتو ديكس لغة تصويرية متوحّشة مطبوعة بتجربة الخراب التي عايشها. حتى باول كلي الذي لمع بأوراقه الملوّنة خلال رحلته إلى تونس انتقل إلى الرسم بالأبيض والأسود كطريقة للإنذار بالخطر المحدق. لم يعد من الممكن التعبير عن الواقع بالوسائل المعهودة، فهي تتطلّب طرقاً تجريبيّة ووسائل من نوع آخر. والسبب هو، كما قال إرنست بارلاخ في ربيع ١٩١٥، „أن معايشة التجربة لا تتم في العين ولكن في النفس”.

نحو الجذرية المتطرّفة غير أن أمراً مفاجئاً تماماً ما لبث أن حلّ بالفن خلال الحرب العالمية الأولى وهو سيره باتجاه التجذّر، وخاصّة لدى أولئك الفنّانين الذين سُرّحوا من العمل العسكري لأسباب صحيّة وعادوا ليعملوا في مراسمهم.

فتحت تأثير الحرب آثر كثير من الفنانين أن يبدأوا بداية جديدة. طالب غروش مثلا كما مارس أيضاً بريشته الحادّة وبدون أي اعتبارات ملطّفة „الوضوح المؤلم والوحشي”. أما كلي فقد انصرف إلى الفن التجريبي والعمل المفعم بالشاعرية والألوان والتجريدي نوعاً ما. أخيراً فقد تخلّى بكمان عن فنّه التاريخي لصالح بداية جريئة باستخدام أكثر الوسائل التصويرية بساطة.

وهكذا فيبدو أن حالة الحرب المتطرّفة في قساوتها والتي عانى منها الجميع، حتى بعد عودتهم إلى مراسمهم وورشاتهم، قد زادت من حدّة الإدراك والحساسية للموقف والجرأة في التغيير والدقّة في الممارسة الفنّية.

أضف إلى ذلك فقد ظهرت أثناء الحرب وبطريقة مفاجئة تماماً الحركة الدادائية ببرنامجها الذي أراد تثويرا كاملاً للفن. فمنذ شباط/ فبراير عام ١٩١٦ بدأت مدينة زيورخ تثير اهتمام الرأي العام. إذ كان الفنّانون والشعراء قد هربوا من بلدانهم المحاربة إلى سويسرا المحايدة. كتب هانز آرب: „كرّسنا أنفسنا للفنون الجميلة هربا وقرفاً من فظائع الحرب العالمية الأولى ١٩١٤. فبينما كانت المدافع تهدر في الفضاء البعيد كنّا نحن نغنّي ونرسم ونلصق لوحاتنا ونكتب الشعر بكل قوانا. لقد كنا نبحث عن فن واضح وأصلي يحاول أن يشفي الناس من جنون العصر، وعن نظام جديد يوازن بين الجحيم والجنة.” وقف هؤلاء الفنانون ضد كل شيء: الحرب والبورجوازية وأخيراً ضد الفن البورجوازي أيضاً.

كانوا يقدّمون عروضهم في Voltaire Cabaret ـ أي نادي فولتير ـ بما في ذلك الرقصات بالأقنعة والقصائد الخالية من الكلمات والقصائد الارتجالية وموسيقى الألفاظ. لقد وُلد هذا العمل الكبير فنّاً جديداً. وما لبثت الدادائية أن ازدهرت في نيويورك وبرشلونة وفي كولونيا بعد انتهاء الحرب وكذلك في برلين وباريس.

أخيراً ففي زمان الحرب نفسها أيضاً تم وضع التصاميم الأولى الكبرى لاتجاهات فن القرن العشرين التالية. كان ذلك من خلال أعمال كاسيمير ماليفيتش وفلاديمير تاتلين في موسكو وبييت موندريان في هولندا ومارسيل دوشامب في نيويورك وبابلو بيكاسو في باريس وجيورجيو دي كيريكو في فيرارا.

كان مارسيل دوشامب قد هرب من الحرب إلى نيويورك عام ١٩١٥، وكانت الولايات المتحدة مازالت محايدة تجاه الحرب. وهناك بدأ الفنان بتنفيذ عمله الفني «الإناء الزجاجي الكبير» بعنوان: «العروس تتعرّى على يد فتاها، حتّى!». وكان هذا العمل هو بداية وأساس ما سمّي «فن الفكرة الموجّهة».

وفي روسيا حيث كان المرء قد انعزل عن عالم الفن الغربي استطاع ماليفيتش في عام ١٩١٥ الوصول إلى التجريد الخالص. بينما أسّس فلاديمير تاتلين نوعاً فنيا جديدا هو الصورة المادية الخالصة.

واحدة من التحولات غير المتوقّعة إطلاقاً في تاريخ الحركة الطليعية هي ذلك التحوّل المفاجئ لبيكاسو بابتعاده عن التكعيبية التي كانت قد جعلته تجسيداً للفنّان الحديث بالأصل. وكانت „أولغا في الكنبة" (١٩١٧) تلك اللوحة المدهشة بنزعتها الطبيعية هي قمة توجّه جديد فتح الطريق أمام التيارات الواقعية الجديدة في عشرينات القرن الماضي في ايطاليا وألمانيا وفرنسا.

في الوقت نفسه كان هناك من يواجه الصورة المثالية للعالم التي يعاد رسمها وكأن كل شيء فيه مازال سليماً. ومقابل هذه الصورة رسم الفنانون صورة جديدة لعالم ممزّق وغارق في الخرافة. فعندما أقام كل من جورجيو دي كيريكو وكارلو كارّا في نيسان/ أبريل ١٩١٧ في إحدى المصحات العقلية العسكرية في فيرارا والتي طلبا النقل إليها تهرّباً من الخدمة في الجبهة وجدا الوقت والإمكانية للرسم. وقد أنتج دي كيريكو في فيرارا في تلك السنة بعض أعماله الكبرى التي أدخل فيها التباين والاختلاف إلى الوحدة التصويرية للوحة بطريقة ملغزة. وهو ما أصبح مرشداً لسورياليي العشرينات قبل غيرهم.

صحيح أن مجموعة الطليعيّين العالمية تبعثرت تماماً في عام ١٩١٤، لكنّ أفرادها استطاعوا خلق عوالم فنّية جديدة بسبب الصدمات الوجودية وأشكال المعاناة المتعددة التي عانوا منها. وقد نشأت تلك العوالم الفنية التصويرية لأسباب مختلفة ولأهداف متباينة: ضد الحرب أو بالرغم من الحرب أو بسبب الحرب أو تحت ضغط الحرب نفسها.

أوفه م. شنيده مؤرخ فن، عمل مديرا لصالة هامبورغ الفنية بين عامي ١٩٩١ و ٢٠٠٦. منظم معرض «١٩١٤ ـ الطليعيّون في الحرب» في صالة الفن الاتحادية في بون في الفترة ما بين ٢٠١٣/١١/٨ و ٢٠١٤/٢/٢٣.

ترجمة: حسين شاويش



■ حاولت ألمانيا في الحرب العالمية الأولى أن تشعل الأوضاع في الشرق الأدنى. ولم تختلف الآراء حول وجه من وجوه الحرب الكبرى كما اختلفت حول إستراتيجية التثوير هذه. وهو ما يدفعنا للتساؤل ما إذا كان بإمكاننا أن نواصل التمسك بالتأويل الموروث، الذي يرى أن الأمر يتعلق في هذه الإستراتيجية بعملية غير مدروسة، جاءت تعبيرا عن جنون الإمبريالية الألمانية؟

عكاز لمن لا حيلة له

إستراتيجية ألمانيا «الإسلامية» بين ١٩١٤ – ١٩١٨

ألكسندر فيل ALEXANDER WILL

ضربت الحرب الكبرى في البداية كل الثوابت السياسية والعسكرية السابقة عليها بعرض الحائط. ففي الثاني من آب/ أغسطس ١٩١٤، وقّعت ألمانيا والإمبراطورية العثمانية على معاهدة تحالف عسكري، في حين أنه أسابيع قليلة قبل التوقيع، لم يكن ذلك بالأمر الممكن. فهيئة أركان الحرب والخارجية الألمانيتين كانتا تتخوفان من أن يتحول التحالف مع الإمبراطورية العثمانية إلى عبء على ألمانيا، وأن يعمق من الصراع مع بريطانيا بشكل لا يمكن التحكم فيه. لقد سعت برلين ما بين ١٨١٧ و ١٩١٤ إلى إقامة علاقات جيدة مع الباب العالي، لكنها تجنّبت دائما، وفي نجاح، التوقيع على اتفاقيات ملزمة. لكن اندلاع الحرب دفعها إلى تغيير إستراتيجيتها: فألمانيا احتاجت في حربها ضد فرنسا وبريطانيا وروسيا إلى حلفاء، ولم يكن أمامها من خيار آخر سوى الإمبراطورية العثمانية. وكان هذا التحالف الألماني ـ العثماني تعبيرا عن الضعف الألماني وليس عن الامبريالية الألمانية.

موقف ضعف ورغم هذا الحليف الجديد فإن الوضع الجيوإستراتيجي لألمانيا وحليفتها الإمبراطورية النمساوية ـ الهنغارية كان في غاية الهشاشة. ففي جنوب أوروبا لم يكن في البداية ممكنا التأكد من موقف الدول المحايدة رومانيا وبلغاريا. وكان البريطانيون والفرنسيون يسيطرون على البحار ويراقبون سواحل آسيا الصغرى. وكانت ترابط في مصر فيالق قوية للبريطانيين، بل إن بريطانيا تمكنت من أن تقيم في هذا البلد نظاما استعماريا صارما. وبعيد إعلان الإمبراطورية العثمانية الحرب، بدأ تدفق القوات البريطانية ـ الهندية من الخليج الفارسي وعبر نهري دجلة والفرات. ورغم أن الحدود بين الإمبراطورية العثمانية وفارس كانت مفتوحة، إلا أن روسيا وبريطانيا كانتا تراقبان هذا البلد سياسيا وعسكريا. واندلعت في القوقاز حروب ساخنة بين الأتراك والروس ولم تكن الإمبراطورية العثمانية مستعدة لمثل هذا الصراع. فحروب البلقان أنهكتها والجيش كان يوجد في مرحلة إعادة هيكلة. ولم تتوفر الإمبراطورية على صناعة لإنتاج الأسلحة والذخيرة، فقد كانت مرتبطة كليا بالاستيراد. وكانت جيوشها تقاتل على جبهات متعددة وفي ظروف سيئة وضد خصوم أقوى. أمل الباب العالي بصمود قواته حتى تصبح ألمانيا في وضع يسمح لها بتحقيق انتصار على القوى الغربية، مما كان سيمكّن الإمبراطورية العثمانية من الجلوس في محادثات السلام بجهة القوى المنتصرة. لقد كان الوضع الاستراتيجي لألمانيا وحلفاءها في الشرق ضعيفا. لكنه قدم مع ذلك فرصا جديدة: فانطلاقا من الأراضي العثمانية كان يمكن الوصول بسهولة إلى مناطق النفوذ الروسية والبريطانية في بلاد فارس كما أن الهجوم على مصر كان ممكنا نظريا. وكان من شأن تحقق الأمرين أن يقطع الاتصالات بين بريطانيا والهند، لكن ألمانيا وحلفاءها لم تتوفر لهم الوسائل العسكرية للهجوم. أما الجيش العثماني فكان ضعيفا. ولم يكن واردا أن يتم إرسال أعداد كبيرة من الجيوش الألمانية وحلفاءها إلى الشرق، حتى لا يتأثر وضعها سلبا في أوروبا. ولهذا توجب العثور على طرق أخرى من أجل تحسين الوضع العسكري للإمبراطورية العثمانية وفي الآن نفسه إضعاف القوة العسكرية لبريطانيا في الشرق، وهو فعلا ما تم القيام به.

الجهاد على الطريقة الألمانية تبنى الأتراك والألمان إستراتيجية عرفتها الحروب القديمة والتي يمكن التعبير عنها بالجملة القائلة: „عدو عدوي، صديقي". إذ تمحورت إستراتيجية ألمانيا وتركيا في التلاعب بالتناقضات الدينية والإثنية والسياسية في المناطق الخاضعة للقوى المعادية بهدف خلق ثورات فيها، من أجل إضعاف موقف بريطانيا وروسيا أولا. ولم تنحصر هذه الإستراتيجية في الشرق الأدنى. فقد حاول عملاء الإمبراطورية النمساوية ـ الهنغارية تأليب اليهود للقيام بثورة ضد روسيا في القسم البولندي الخاضع لها. وفي ايرلندا دعمت المخابرات الألمانية المتمردين الكاثوليك وفي روسيا الشيوعيين الروس. وفي الشرق

الأدنى ساهم الألمان والنمساويون والأتراك في «الجهاد الإسلامي» ضد بريطانيا وحلفائها. وقد بدا الأمر مبشرا بالنجاح من جهة تعبئة القاعدة الدينية ضد بريطانيا ومن جهة أخرى شرعنة حرب ألمانيا وحلفاءها في المنطقة عبر إعلان السلطان العثماني خليفة للمسلمين قاطبة والدعوة إلى وحدة المسلمين، بغض النظر عن قومياتهم. وقد لخّص البارون الألماني ماكس فون أوبنهايم خطط الوحدة الإسلامية في مذكرة بعنوان: „تثوير المناطق الإسلامية الخاضعة لأعدائنا" بعث بها في أكتوبر ١٩١٤ إلى الحكومة الألمانية. ومن أجل تنسيق العمليات في المنطقة، تم تأسيس هيئة لأركان الحرب، تعاونت تعاونا وثيقا مع الخارجية الألمانية. وشغل أوبنهايم منصب رئيس مكتب الاستعلامات الخاص بالشرق، الذي هدف إلى دعم بروبغندا السلطان العثماني ودعم الحركات المتمردة في الشرق الأدنى. إن هذه المؤسسات إضافة إلى كتابات أوبنهايم دفعت المؤرخين في الماضي إلى الحديث عن „جهاد على الطريقة الألمانية"، أي عن حركات ثورية زرعتها ألمانيا في المنطقة لخدمة أهدافها الامبريالية. لكن الواقع كان مختلفا عن ذلك. ففي البداية نشطت المكاتب الألمانية - ورغم بعض الخلافات - في اتفاق تام مع الحلفاء العثمانيين. وتم تنسيق وتخطيط الأنشطة العثمانية من طرف مخابرات إنفير باشا والمكتب المركزي للحركة الإسلامية، الذي كان تابعا لوزارة الحربية. كما أن خارطة الوحدة الإسلامية كانت مطروحة على جدول الأعمال لمّا اندلعت الحرب العالمية الأولى. فمنذ عام ١٩٠٠، وبعد خسارة مناطق واسعة في أوروبا ذات أغلبية مسيحية، شكلت أفكار الوحدة الإسلامية جزءا أساسيا من الإيديولوجية التي كانت تقوم عليها السياسة العثمانية. فقد كانت التصورات عن الوحدة الإسلامية مناسبة لتقديم دعم إيديولوجي لقوى المقاومة ضد القوى المسيحية كما هو الحال في ليبيا. ويمكن تتبع آثار التأثير القوي لإيديولوجية الوحدة الإسلامية في السياسة العثمانية حتى فترة حكم السلطان عبد الحميد الثاني. فقد أكد السلطان في حيوية دوره كخليفة لثلاثمائة مليون مسلم، حتى وإن كانوا لا يقعون تحت سلطته. ولذلك فلم يكن البتة رجال البروبغندا الألمان من صدروا فكرة الوحدة الإسلامية إلى المنطقة. بل استغلوا تلك الفكرة، التي كانت حاضرة في المنطقة، لأهدافهم.

عمليات كان للبروبغندا الألمانية - النمساوية خارج الحدود العثمانية هدف واحد في إيران ومصر وأفغانستان وهو العمل على إشعال نار الثورة وحمل الحكومات على الدخول في الحرب إلى صفهم أو الإطاحة بها وتعويضها بنظام جديد من شأنه القيام بهذه المهمة. ومباشرة بعد دخول الإمبراطورية العثمانية في الحرب، أرسلت بعثات إلى الدول المجاورة، هدفت إلى نشر البروبغندا العثمانية والتخطيط لإشعال ثورات فيها. وأكبر مثال على ذلك ما حدث في إيران. فقد كان هذا البلد مقسما إلى منطقتي نفوذ روسية وبريطانية، أما سلطة الحكومة المركزية فقد ظلت منحصرة في العاصمة طهران. أما السلطة المحلية الوحيدة فقد كانت تعتمد على قوات درك يقودها ضباط سويديون ويبلغ تعدادها خمسة آلاف رجل. وقد لعبت القبائل التي كانت تتمتع بقسم من الاستقلال الذاتي دورا أساسيا في السياسية الإيرانية. أما العملاء الألمان الذين كانت تقودهم الخارجية الألمانية فقد تسللوا منذ بداية العام ١٩١٥ إلى إيران. وقد تمكنوا من كسب قسم كبير من الوجهاء وزعماء القبائل إلى صفهم. وقد تكللت جهودهم بالنجاح لأنهم جمعوا بين استخدام الرشوة والبروبغندا الإسلامية والقومية. وقد حققت العملية نجاحا جعل البريطانيين يرون في الألمان وحلفائهم منذ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩١٥ «سادة لطهران». لكن فشل الانقلاب الذي أعدّ له بشكل ارتجالي شهورا بعد ذلك أتى على النجاحات التي حققها التدخل الألماني - العثماني. وبدا للوهلة الأولى كما لو أن كل المحاولات التثويرية لألمانيا وحلفائها فشلت، فلم تحدث ثورة في مصر والتزمت أفغانستان الحياد وظل السودان هادئا، لكن الأوضاع كانت معقدة.

تأويل وبعد الحرب انتقد العديد من الألمان مشاريع التثوير بقوة. أوطو ليمان فون ساندرس الذي تزعم المهمة العسكرية الألمانية في تركيا اعتبر تلك الخطط „كبيرة ولكنها غير واضحة" أما السفير الألماني ووزير الدولة لاحقا ريشارد فون كيلمان فقد كتب في مذكراته: "هذه البعثات كانت مصيبة كبرى. ففي أذهان الألمان ظل الشرق محتفظا بالكثير مما جاء في ألف ليلة وليلة". أما كورت بريفر، أحد قيادات الإستراتيجية التثويرية، فقد انتقد تلك البعثات باعتبارها كانت تقوم على أوهام. لكن الأبحاث المعاصرة أظهرت بأن الهزيمة أرغمت الكثير من الألمان على النظر إلى أنشطتهم بين ١٩١٤ و ١٩١٨ بخليط من الحقد على الذات والحطّ من أهمية النجاحات التي تم تحقيقها. ولقد اعتمدت الدراسات العلمية حول هذا الموضوع منذ ١٩٦٠ على هذه التأويلات وعملت على توسيعها إيديولوجيا. ويعتبر العمل الذي قدمه المؤرخ فريتس فيشر في هذا السياق الأكثر تأثيرا. فانطلاقا من عمله وعمل أتباعه ثم استنتاج فكرتين مثيرتين للجدل، أولا: بأن إستراتيجية التثوير كانت فاشلة تماما، وثانيا: أنها كانت جزءا من خطة امبريالية ألمانية للسيطرة على العالم، عرفت بدايتها مع رحلة القيصر فيلهلم الثاني إلى الشرق عام ١٨٩٨. ورغم أنه لا يمكن الدفاع عن هذه الفكرة إلا أنه كان لها تأثير كبير حتى نهاية القرن.

إعادة تأويل يتوجب أولا التذكير بوضع ألمانيا وحلفاءها في الشرق الأدنى. إن ألمانيا نشطت هناك انطلاقا من موقف ضعيف ورجال السياسة الشرقية لألمانيا كانوا يدركون ذلك. فلم تكن البلاد بقادرة على تحقيق مشاريعها الامبريالية. ومثلت عمليات التثوير وسيلة للتعويض عن هذا الضعف. كما أن محاولة خلق ثورة إسلامية - وكما ذكرنا سابقا - لم يكن البتة فكرة ألمانية هدفت لاستغلال العثمانيين كما يزعم فيشر. وقد استغلت ألمانيا رفقة حليفها العثماني إيديولوجية كانت قائمة وسبق استعمالها. وفي النهاية خطط لهذه الثورات لتكون مجرد مساعدات عسكرية في الهجوم على بريطانيا وروسيا. فلم يكن الهدف تعويض السيطرة البريطانية والروسية بسيطرة ألمانية. ويتوجب في هذا السياق أيضا مراجعة الفكرة التي تقول بالفشل التام



باول كليه
نجوم فوق بيوت شريرة، ١٩١٦
من معرض:
1914 – The Avant-Gardes at War
Kunst- und Ausstellungshalle der
Bundesrepublik Deutschland
08.11.013-23.02.2014
© Merzbacher Kunststiftung

لمحاولات التثوير الألمانية ـ العثمانية. فنظرة على النموذج الإيراني تؤكد ذلك بوضوح. ومن المدهش في هذا السياق أن المنافحين عن الأطروحة الامبريالية لم يلتفتوا إلى الرؤية البريطانية والروسية المتعلقة بخطط تثوير الشرق. فالمراجع البريطانية تتحدث مثلا عن نجاح وشيك للعملاء الألمان. ففي أيلول/ سبتمبر ١٩١٥ توقع نائب الملك البريطاني في الهند حدوث ثورة وإعلان الحرب على بريطانيا خلال أسابيع. وهو ما دفع بريطانيا إلى اتخاذ إجراءات كبيرة. وتمكن مائة من العملاء الألمان ما بين ١٩١٥ و ١٩١٨ على إرغام عشرة آلاف من الجنود البريطانيين والروس على البقاء في الهند. فلم تتمكن هذه القوات من المشاركة في الحرب القائمة في أوروبا. كما أن العمليات الألمانية والعثمانية أرغمت بريطانيا على إنفاق أموال طائلة في إيران. ففي الوقت الذي لم تبلغ فيه نفقات الحكومة الألمانية في هذا البلد بين عام ١٩١٤ و ١٩١٨ أكثر من ثمانية وأربعين مليون مارك ذهبي، أنفقت بريطانيا في عام ١٩١٨ وحده أكثر من ثلاثين مليون جنيه ذهبي، وهو ما يعادل ثلاثمائة وستين مليون مارك ذهبي، من أجل وقف محاولات التمرد التي يقف خلفها الألمان. لكن هذه الثورات الإسلامية كان لها تأثير كبير في مناطق أخرى. فقد تخوفت الحكومة البريطانية من أن يكون هناك صدى للبروبغندا الإسلامية لألمانيا وحلفائها في الهند بأقليتها المسلمة القوية. فمنذ كانون الأول/ ديسمبر ١٩١٤ شهدت باريس مؤتمرا فرنسيا ـ بريطانيا لمناقشة سبل مواجهة البروبغندا الإسلامية. وقد خطت بريطانيا خطوة أخرى في العام ١٩١٦، إذ قام الجيش والمؤسسات المدنية في مكتب العرب بالقاهرة بمواجهة الطموحات الإسلامية. وكان مكتب العرب مشهورا لأنه بداخله تمت دراسة ومراقبة ما سمي بالثورة العربية. لكن من غير المعروف أن هذه المؤسسة التي خرجت إلى الوجود عام ١٩١٦ لم يكن الهدف منها تحقيق ثورة عربية وإنما كان في ذلك الوقت مواجهة التهديدات الإسلامية. إن ما سمي بالثورة العربية، والتي لم تمثل في واقع الأمر سوى هجمات لا تأثير عسكري لها، كانت عبارة عن بروبغندا مناهضة للعثمانيين. ولما رفع شريف مكة عام ١٩١٦ السلاح، كان الدور الأساسي مكتب العرب في القاهرة وضع إستراتيجية للتواصل. وتمثلت الفكرة الأساسية في نزع الشرعية عن السلطان العثماني كخليفة للمسلمين ودعوته إلى «الحرب المقدسة». وكانت المنشورات التي وزعت في شمال إفريقيا والهند ومصر والسودان تقول: إذا كان المسلمون العرب قد حملوا السلاح ضد السلطان العثماني، فكيف يمكنه أن يتحدث باسم كل المسلمين ويعلن الحرب على الحلفاء؟

لكن تأثير هذه البروبغندا ظل محدودا. فمن مصر كتب المفوض البريطاني هنري ماكماهون مثلا إلى لندن: „ينظر إلى حسين كمتمرد على الخليفة وكأداة في يد البريطانيين".

نتائج البروبغندا ومع انهزام ألمانيا وحلفاءها في العام ١٩١٨ توقفت محاولات التثوير جميعها. لكن التطورات اللاحقة أظهرت بأن تلك المحاولات كان لها تأثير حتى بعد نهاية الحرب. ففي مصر منعت بريطانيا بقوة السلاح بين العام ١٩١٤ و ١٩١٨ كل معارضة سياسية. ومن أجل الإجهاز التام على بروبغندا الوحدة الإسلامية التي ارتبطت بالعثمانيين مارست السلطات البريطانية إجراءات الرقابة على البريد والأخبار. كما قامت بطرد كل الألمان والنمساويين المتواجدين في البلد أو أقدمت على سجنهم، كما طردت من القطاع العمومي كل الموظفين المنحدرين من هذين البلدين. وأعلن قانون الحرب منذ شهر تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٤. كما تم ترحيل مئات من المعارضين السياسيين المصريين، وقد قادت هذه الإجراءات القمعية إلى ثورة في مصر عام ١٩١٩، لكن الثورة جاءت متأخرة بالنسبة للألمان، لكنها كانت نتيجة لأنشطتهم في المنطقة. ونتيجة لهذه الثورة تمكنت مصر عام ١٩٢٢ من الحصول على سيادة موسعة. أما بريطانيا فاضطرت لكي تودع خططها بسيطرة كاملة على الشرق الأدنى. وكان الوضع شبيها بذلك في أفغانستان. فالبعثة الألمانية إلى أمير أفغانستان بقيادة أوسكار فون نيدرماير، هدفت إلى تشجيعه على مهاجمة الهند في أحد أشهر العمليات الألمانية خلال الحرب. لقد كان للخبر وقع القنبلة في مكتب الخارجية البريطاني عام ١٩١٥، خبر نجاح بعثة ألمانية في الوصول إلى أفغانستان وفشل كل الجهود البريطانية والروسية في اعتراضها. لقد تحدث العملاء البريطانيون عن أجواء حرب داخل قبائل الشعب الأفغاني التي كانت تأمل بإعلان الأمير الجهاد ضد بريطانيا. ولربما لم تستطع ألمانيا استغلال ذلك بنجاح. فلم ينجح نيدرماير ورغم وجود حزب قوي مناصر للحرب داخل بلاط الأمير في إقناع الأمير بالتراجع عن سياسة الحياد التي كان ينهجها. وتظهر النظرة إلى التطورات اللاحقة في المنطقة إلى أي حد كانت السياسة الألمانية قريبة من النجاح. فبعد اغتيال والده حبيب اللّه عام ١٩١٩ واعتلائه العرش تسبب هدفه المتمثل في استرجاع السيادة الكاملة للبلاد في حرب ضد بريطانيا، لكن جاء ذلك متأخرا بسنة بالنسبة للألمان. فلقد سقط والد الأمير الجديد ضحية لعملية اغتيال قام بها أعضاء في الحزب المناصر للحرب، لأنه كان يتملكهم إحساس بأن الأمير العجوز لم يغتنم الفرصة التي قدمها له الألمان. لكن الحرب البريطانية ـ الأفغانية الثالثة، التي أعقبت تلك الأحداث، شكلت تحديا جديا للبريطانيين، الذين واجهوا صعوبات كبيرة في أحد جبهات القتال كما أنها كانت تتهددهم من الخلف انتفاضات القبائل الهندية. وتمكن الأمير الجديد في المفاوضات التي أعقبت الحرب من تحقيق كل أهدافه السياسية، وخصوصا بسط سيطرته على السياسة الخارجية للبلد. وكانت الحجج التي ساقها أمان اللّه من أجل إقناع الأفغان بحمل السلاح أمرا مثيرا للتعجب. لقد كانت شبيهة بتلك الحجج التي قدمها الألمان لوالده سنوات قبل ذلك. وخصوصا تلك المتعلقة بالإشارة إلى الوضع السيئ للمسلمين تحت الاستعمار البريطاني وتهديد البلاد الإسلامية بسبب الحرب البريطانية على تركيا والدعوة إلى الجهاد. وقد أمر الأمير الجديد بطباعة منشورات تزعم أن الهند ومصر أعلنتا الثورة على بريطانيا وأن ألمانيا دخلت من جديد في حرب ضد بريطانيا. وبدا كل ذلك مثل صورة طبق الأصل عن تقنيات البروبغندا الألمانية خلال الحرب العالمية الأولى.



كازيمير مالفيتش
انظر قد وصلنا، ١٩١٤
من معرض:
1914 – The Avant-Gardes at War
Kunst- und Ausstellungshalle
der Bundesrepublik Deutschland
08.11.013-23.02.2014
© Deutsches Historisches
Museum Berlin

خلاصة لا يمكن اختزال محاولات التثوير التي قامت بها ألمانيا وحلفاؤها في الشرق، كظاهرة تاريخية، في تفسير مبسط وخطي. لقد عمدت هذه الدول إلى تبني هذه الوسيلة في البداية لأنها كانت في وضعية ضعيفة ومن أجل تعويض ضعفها السياسي والعسكري. لقد تخلى هذا التحالف عن تصدير القيم الأوروبية، داعما القيم ورؤى العالم المحلية. وهو ما عمل على الأقل على تقوية الشعور القومي للحليف التركي كما تبين ذلك من دوره داخل التحالف. لكن نتائج عمليات التثوير لا تتكشف إلا عند النظرة الثانية: فالهدف الأساسي والذي تمثل في التحريض على الثورة وكسب حلفاء جدد لم يتحقق، لكن ذلك ساهم في استنزاف الخصم ماديا. وفي نهاية المطاف ساهمت أنشطة ألمانيا وحلفائها في تحقيق أهداف لم تكن تسعى لتحقيقها، وهو ظهور حركات مناهضة للامبريالية في المنطقة، ساهمت على الخصوص وبشكل مضطرد في إضعاف الموقف البريطاني.

ألكسندر فيل مؤرخ ألماني، أعد شهادة دكتوراه حول السياسة الشرقية لألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى.

ترجمة: رشيد بوطيب

■ أنهت الحرب العالمية الأولى الطموحات الاستعمارية الألمانية. في الوقت الذي كانت فيه دول أخرى بالكاد بدأت بذلك، كبولونيا مثلاً. لكن ورغم أن زمن الاستعمار قد انتهى رسمياً فإن بُنى التفكير الاستعمارية والنزوع إلى التحكّم بالآخرين والدور السلطوي العالمي مازالت مستمرّة إلى اليوم وكثيراً ما تحدّد ولو بشكل غير واع نظرة الغرب إلى العالم. وما يلي هو محاولة لخلق وعي أكبر بهذه المسألة ومن ثمة لتغيير طرق التفكير المتعلّقة بها.

وهم التفوّق الحضاري

تبدّل النزعة الاستعمارية مع الحرب العالمية الأولى

ستانيسواف ستراسبورغر STANISŁAW STRASBURGER

يخبرنا ترجمان السفارة الألمانية في بكين عام ١٩٠٠ هاينرش كوردس: „لم أكد أنقل نظري من العربة إلى المحمل الذي يقل السيّد المبعوث والذي لم يكن يبعد عنّي أكثر من ثلاث خطوات حتى رأيت مشهداً جمّد الدم في عروقي. فعلى يسار المحمل الذي كان قد تجاوز مخفر الشرطة بقليل ظهر فجأة جندي يبدو عليه أنه من منشوريا بزيّه العسكري الكامل وعلى رأسه قبّعة مزيّنة بريشة زرقاء وزرّ أحمر يدل على رتبته. وكان يقف هناك بوضعية الرامي ولم تكن فوّهة سبطانة البندقية تبعد عن النافذة الجانبية للمحمل بأكثر من متر، أي أنها موجّهة بالضبط إلى رأس السيد فون كيتلر. صحت مرعوباً: „قف”. لكن الرصاصة خرجت في الوقت نفسه وانهار المحمل على الأرض”.

هذا الدبلوماسي الألماني الذي اغتيل عام ١٩٠٠ هو كليمنس فون كيتلر وكان أرستقراطيّاً أصله من مدينة مونستر.

زرت مونستر منذ فترة وجيزة. اسم هذه المدينة مشتق من كلمة لاتينية تعني «الدير». وقد انتقل مقرّ الجامعة المحلية إلى القصر الذي كان يقطنه المطارنة الذين كانوا يحكمون المنطقة. أما اليوم فإن الطلاّب يشكّلون ما نسبته ١٥٪ من سكّان مونستر. وعندما يمر المرء عبر المدينة فعليه أن يكون يقظاً حيال الجيش الكبير من سائقي الدرّاجات أكثر من يقظته حيال السيارات. وقد فازت هذه المدينة الوادعة الواقعة في ولاية شمال الراين ـ ويستفاليا في عام ٢٠٠٤ في المسابقة العالمية لأفضل المدن من حيث جدارتها بالسكن.

لكن لهذه المدينة وجهاً قاتماً أيضاً. فأنا حتى الآن لم أنس مشهداً رأيته فيها في طفولتي. فقد حدث خلال السنتين اللتين قضيتهما في بيليفلد، المدينة المجاورة، عندما كنت لم أزل تلميذاً صغيراً أن المدرسة نظّمت لنا رحلة إلى مونستر فشاهدنا البحيرة الحالمة والقنوات الرومانسية التي تخترق المدينة القديمة. لكن الشيء الوحيد الذي علق في ذاكرتي لا علاقة له بهذا كله. فما ترك في نفسي أعمق الأثر هو تلك الأقفاص المعلّقة في برج كنيسة القديس لامبيرتي والتي حُبس فيها مسيحيون من أتباع مذهب تجديد العماد في القرن السادس عشر والذين كانوا قد ثاروا على المطارنة. كانت ألسنة هؤلاء قد أحرقت وهم أحياء وظلّت عظامهم معروضة على الناس وراء تلك القضبان خمسين سنة.

في ذلك الوقت لم أكن طبعاً قد سمعت بكيتلر. وقد علمت فيما بعد أن حديقة ذلك القصر المُدهش تخبّئ أسرارا ليس من المرغوب عرضها على النقاش العلني. من تلك الأسرار ثلاثة نُصُب تذكارية لجنود سقطوا في حروب ألمانيا الامبريالية في بداية القرن العشرين. وعلى واحد من تلك النصب قرأت ما يلي: „تخليداً لذكرى السيّد مبعوث القيصر الألماني كليمنس فون كيتلر الذي سقط خلال تأدية واجبه في بكين في العشرين من حزيران/ يونيو عام ١٩٠٠”.

ليس سهلاً أن تعثر الآن على تلك النصب التذكارية لأن شجيرات الحديقة الكثيفة وأعشابها قد غطّتها تماماً. وكان أحدهم قد بخّ على إحدى تلك المسلاّت كلمة «دم» باللون الأحمر وإن كان يبدو لي أن إحساساً عابراً بالوطنية قد خامره بعد ذلك فأضاف إلى الكلمة إشارة استفهام...

لكن إشارة الاستفهام تلك لم تكن ضروريةً أبداً إذ أن أيدي كيتلر وجنود القيصر كانت قد غاصت في الدماء. ولعل الصور المنشورة أعلاه توضح لنا طريقة تعامل ألمانيا الحالية مع تركتها الاستعمارية.

من هم الهون؟ لقد كان كيتلر مشاركاً كدبلوماسي بالسياسة التي انتهت بتدمير الصين وخضوعها للقوى الاستعمارية. لقد أعطى الأوامر بإطلاق النار على المتظاهرين الذين احتجّوا على النفوذ الأجنبي. وكان يضرب المساجين الذين يقعون في أيدي الجنود الألمان ويهينهم بنفسه. وكرد فعل على اغتياله أرسلت ألمانيا حملة عسكرية كان هدفها القضاء على «انتفاضة الملاكمين» الذين ثاروا ضد المستعمرين. وقد نشرت إحدى الصحف المحلية في تلك الأيام النكتة التالية: „السؤال: هل من الصحيح أن الأوروبيّين يريدون تحطيم الصين؟ الجواب: نعم، وقد بدأت الخادمة عندنا بالخطوة الأولى في ذلك عندما كسّرت المزهرية الكبيرة في الصالون”.

لهذه النكتة علاقة بالموقف الألماني في ذلك الوقت. فقد كانت فرنسا وبريطانيا وأمريكا وقوى استعمارية أخرى مشغولة ومنذ فترة طويلة بتقسيم العالم إلى مناطق نفوذ. وكان استغلال بلدان ما وراء البحار يجلب أرباحا هائلة. لذلك فقد أرادت ألمانيا التي لم يكن قد مضى على وحدتها أكثر من ثلاثين عاماً أن تنضم إلى هذا النادي الاستعماري بأي ثمن. لكنها لم تنجح في ذلك كما يجب.

كان جوهر السياسة القيصرية يتحدّد بفكرة صاغها عالم الاجتماع الألماني المعروف ماكس فيبر بالشكل التالي: „علينا أن ندرك أن توحيد ألمانيا كان انقلاباً على ماضيها وقد كلّف ثمناً باهظاً كان من الأفضل توفيره لو أن تلك الوحدة لم تكن البداية لأن تصبح ألمانيا قوة عالمية عظمى وتمارس سياستها على هذا الأساس”.

ولم يترك القيصر مجالاً لأي شك في المعنى الحقيقي لذلك. فقد ألقى خطبة في بريمن على جنود الحملة المتجهة إلى الصين ـ وهي الخطبة التي اشتهرت بخطبة الهون ـ شرح فيها ظروف شنّ تلك الحملة وأهدافها.



تمثال لجندي ألماني في ناميبيا
Photo: Stefan Weidner

ورغم وجود أكثر من رواية لهذه الخطبة يمكن للمرء الانطلاق من أن ما يلي جاء فيها فعلا: „لا ترحموا أحداً. ولا تقبلوا أسرى. وافعلوا ما تريدون بمن يسقط في أيديكم. وكما استطاع الهون بقيادة ملكهم أتيلا قبل ألف سنة أن يخلّدوا ذكرهم بحيث مازال اسمهم رمزاً للقوة في الروايات والأساطير يجب أن يظلّ اسم الألماني مهاباً في الصين من خلال أعمالكم حتى بعد ألف سنة بحيث لا يجرؤ أي صيني أن ينظر إلى أي ألماني حتى ولو بطرف عينه”.

وقد أصبح لنكتة المزهرية المذكورة أعلاه معنى مزدوج مع مرور الوقت. فرغم أن القتال كان قد حُسم قبل وصول الحملة الألمانية إلى الصين لم يمنع ذلك الجنود الألمان من المشاركة في الفظائع التي كان المستعمرون هناك يرتكبونها في حق المنهزمين. كتب أحد جنود الحملة إلى أمه أن الصينيين مستثنون من حقوق الإنسان ولذلك فيمكن قتلهم بلا حدود وأنّهم كانوا يُقتلون طعناً توفيراً للذخيرة. لكن ذلك الجندي لم يذكر حوادث الاغتصاب الجماعية وحوادث السلب والنهب التي لا تناسب رسالة إلى الأم، على ما يبدو.

بعد ذلك الوقت بعدة سنين، في الحرب العالمية الأولى استخدمت الصحافة البريطانية تلك المقارنة التي عقدها القيصر الألماني مع الهون للسخرية منه بأن قلبت طرفيها بحيث أصبح الهون هم الألمان „في الواقع”.

الاستعمار في أوروبا نفسها لقد حاولت القيصرية الألمانية أن تعوّض تخلّفها عن ركب المستعمرين العالميين الكبار، كالبريطانيين مثلاً، بأن تستعمر داخل أوروبا. وكانت النتيجة هي وقوع مناطق الدانمارك وبولونيا القديمتين تحت الاحتلال الألماني على أثر حروب القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وتحت شعار «التوغّل في الشرق» نفّذ الألمان عملية «جرمنة» موجّهة للبولونيين بلغت أوجها منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى عام ١٩١٨ عندما حصلت بولونيا على استقلالها.

لا تختلف هذه الجرمنة كثيراً عن الاستعمار. فقد طبّق المحتلّون قوانين عنصرية على الأهالي واستبعدوا لغتهم من المدارس وحدّوا من تطوير حركة البناء „في الأراضي غير الألمانية" كما جلبوا مزيداً من المستعمرين أسكنتهم في أراض اشترتها من البولونيين. حتى في القانون الألماني تم إلغاء الفرق بين الاستعمار والاستيطان.

لم يقصّر ماكس فيبر في دعم السياسة الألمانية بخصوص بولونيا. بل إنه قد تجاوز اللغة التي تحدث بها القيصر في خطبة بريمن الشهيرة، بأن قال عن البولونيين أنهم „تجمّعات من البدو الشرقيين" الذين قد يسبّبوا „تخلّفاً حضارياً يصيب عددا من الأجيال". واعتبر أن اختلاط الألمان بالسلافيين يشكّل تهديداً قاتلاً ولذلك فقد طالب الحكومة بحماية «العرق الجرماني» من «البولونيين البدائيين» حرفيا: القريبين من الأرض "الذين يأكلون العشب تقريباً". بل إن „هناك اختلافا في تركيب المعدة" بين الألمان والبولونيين. من كان يمكن له أن يتوقّع صدور هذا النوع من الأقوال عن عالم الاجتماع الشهير هذا؟

إحدى الشخصيّات التي تعلّمنا عنها في دروس التاريخ في المدرسة والتي أثّرت بي كثيراً تُدعى: ميشال درزيمالا. فقد رُفض السماح له بالبناء على أرضه الخاصة بسبب كونه بولونياً. وكانت النتيجة أنه اشترى عربة من عربات السيرك في عام ١٩٠٤ وسكن فيها. لكن الإدارة الألمانية لم تقبل بذلك بكل هذه البساطة، بل اعتبرت أن أية عربة تمكث أكثر من ٢٤ ساعة في المكان نفسه يمكن اعتبارها بيتاً. وهكذا استمر الجدال واكتسبت القضية شهرة خاصة كانت حصيلتها أن درزيمالا استطاع جمع بعض التبرّعات واشترى بها عربة أفضل قليلاً سكن فيها لكنّه كان ينقلها من مكانها كل يوم مسافة صغيرة لكي لا يترك للسلطة حجّة لطرده من السكن. وقد دام هذا الصراع عدة سنوات واضطرّ المسكين في النهاية إلى أن يهجر المنطقة كلها إلى منطقة أخرى. وما زالت قضيته تُعتبر مثالاً على مقاومة السكان لعملية الجرمنة الاستعمارية.

حتى عائلتي تأثر مصيرها بالعلاقة الاستعمارية التي ربطت ألمانيا ببولونيا. فقد غادر أحد أجدادي ساكسونيا إلى منطقة بولونية بجوار وارسو في القرن الثامن عشر. وقد حدث أن تلك العائلة تحوّلت من عائلة ألمانية إلى عائلة بولونية مع مرور الوقت في تلك المدينة التي بقيت محتلة لمدة ١٢٠ عاماً، من الألمان في البداية ثم من الروس. بدّلت العائلة لغتها وطائفتها الدينية (رغم عدم وجود دولة بولونية في ذلك الوقت طبعا) وشاركت في الحياة السياسية والاقتصادية للقسم المحتل من البلاد. وكان التناقض الدرامي على أشده عندما أعادت ألمانيا النازية احتلال بولونيا في الحرب العالمية الثانية في الموجة الثانية من „التوغّل شرقاً" واعتبر المحتلون أفراد تلك العائلة بولونيين وأبادوا معظمهم. أي أن ما حدث هو أن أحفاد المستعمرين اندمجوا في المجتمع الأهلي وأصبحوا جزءاً منه ومن ثمة تحوّلوا إلى ضحية للاستعمار.

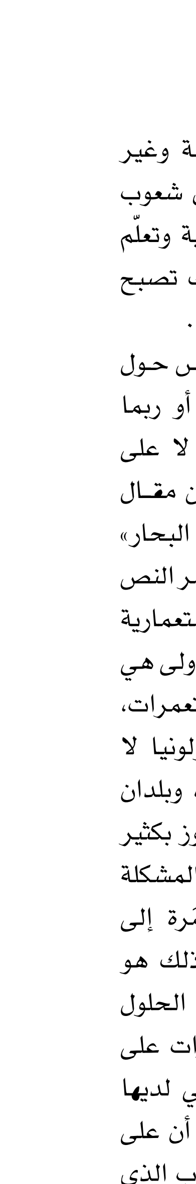
عندما يصبح ضحايا الاستعمار هم أنفسهم مستعمرين

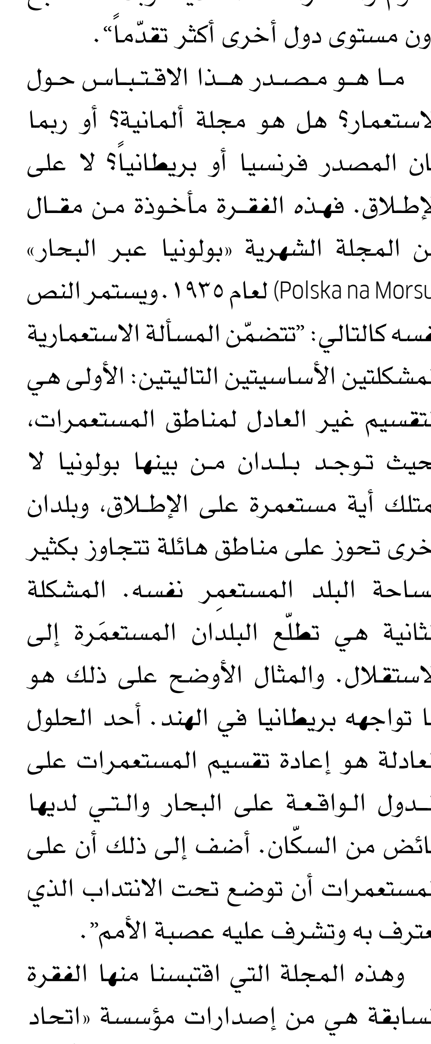
"يطلق اسم المستعمرات على البلدان التي يتم حكمها من قبل بلاد أخرى أقوى منها وأكثر حضارة. وهذه البلدان تكون عادة مسكونة من قبل شعوب بدائية مازالت متوحّشة وغير قادرة على حكم نفسها، أو من قبل شعوب ترفض التلاؤم مع التغيّرات العالمية وتعلّم العلوم والاختراعات الحديثة وبذلك تصبح دون مستوى دول أخرى أكثر تقدّماً".

ما هو مصدر هذا الاقتباس حول الاستعمار؟ هل هو مجلة ألمانية؟ أو ربما كان المصدر فرنسيا أو بريطانيا؟ لا على الإطلاق. فهذه الفقرة مأخوذة من مقال من المجلة الشهيرة «بولونيا عبر البحار» (Polska na Morsu) لعام ١٩٣٥. ويستمر النص نفسه كالتالي: "تتضمّن المسألة الاستعمارية المشكلتين الأساسيتين التاليتين: الأولى هي التقسيم غير العادل لمناطق المستعمرات، بحيث توجد بلدان من بينها بولونيا لا تمتلك أية مستعمرة على الإطلاق، وبلدان أخرى تحوز على مناطق هائلة تتجاوز بكثير مساحة البلد المستعمِر نفسه. المشكلة الثانية هي تطلّع البلدان المستعمَرة إلى الاستقلال. والمثال الأوضح على ذلك هو ما تواجهه بريطانيا في الهند. أحد الحلول العادلة هو إعادة تقسيم المستعمرات على الدول الواقعة على البحار والتي لديها فائض من السكّان. أضف إلى ذلك أن على المستعمرات أن توضع تحت الانتداب الذي تعترف به وتشرف عليه عصبة الأمم".

وهذه المجلة التي اقتبسنا منها الفقرة السابقة هي من إصدارات مؤسسة «اتحاد البحرية والاستعمار» وهي منظمة أهلية تأسست بعد استقلال بولونيا وأعلنت أن هدفها هو „تشجيع وتنمية الاهتمام بالمشاريع البحرية – كالأسطول مثلا – وتأسيس المستعمرات. وقد أنشئت مستوطنات فعلاً في البرازيل وتم التحضير لإنشاء مستعمرة في ليبيريا وذلك من أموال التبرّعات والدعم الحكومي. وقد وصل عدد أعضاء هذا الاتحاد الاستعماري حوالي المليون قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية. وهذا الرقم يساوي ثلاثة بالمائة تقريباً من سكان بولونيا في ذلك الوقت. إذن فقد كانت بولونيا تحلم باستعمار الآخرين رغم أن سكانها عانوا بأنفسهم من نير الاستعمار لأربعة أجيال على الأقل.

تتشابه الحجج التي قدّمتها حركة الاستعمار البولونية مع تلك التي كانت تردّدها الدول الاستعمارية الكبرى: منها الكثافة السكانية المفرطة في بلدانها والرغبة في توسيع الهيمنة غير المشروطة وتوسيع قوة الدولة الداخلية وزيادة رفاه سكّانها. أما سكّان البلدان التي ينبغي استعمارها فلا يحظون إلا بنظرة دونية. فرغم أن المستعمر يفترض به أن يسمح لأهالي البلدان المستعمَرة „بشيء من المكاسب" فإن ذلك ينبغي أن يحكمه معيار أن تلك المكاسب تكفي فقط لشراء منتجات الصناعة الأوروبية. وهذه الصناعات يجب ألا تقتصر على المنتجات الضرورية لهم ولكن أن تشمل المنتجات غير الضرورية أيضاً. وفي هذا الصدد يمثّل ما يُدعى «الرسالة الحضارية» دافعاً أيديولوجياً أساسياً للحركة الاستعمارية. حيث يُنظر إلى أهالي مستعمرات ما وراء البحار كأطفال أزليّين عندهم دائما وقت لكل شيء وتقتصر احتياجاتهم على الحد الأدنى وحبّهم للكحول يفوق أي ولع آخر.







تمثال كليمنس فون كيتلر
مكتوب عليه «دم»
Photo:
Stanisław Strasburger

في الوقت نفسه تم تصوير المستعمر على أنه يمتلك المواصفات المضادّة تماماً: فهو „عبد أزلي للعمل" وللمال أيضاً – يجب الاعتراف بذلك –. وهذا التشديد على النشاط وحب العمل المقترنين بإرادة المنافسة البنّاءة مع قوى الاستعمار القديم (أي بريطانيا وفرنسا) يُفترض أن تؤمّن للبولونيين موقعهم الذي يستحقّونه „كسادة جدد للعالم". وقد ترافق الفخر القومي بالنزعة إلى الحماية من الذوبان في الثقافات الأخرى. وبسبب هذه القاعدة العنصرية فقد مُنع التواصل الحميمي مع السكّان الأهليين.

لقد استمرت الدعاية الحكومية البولونية بخداع شعبها حتى قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية من خلال إيهامه بحلم الدولة العظمى. وقد كانت تلك الدعاية تتضمن التأكيد على أن معدّلات النمو السكاني الطبيعية ستمكّن بولونيا خلال عدة سنوات بتجاوز فرنسا من حيث عدد السكان مما يجعل من التمدد الاستعماري أمراً لا مفر منه.

ما هي علاقتي الشخصية بذلك؟

صحيح أن الإحساس بالفخر بكوني بولونياً يخامرني بعض الأحيان، لكنّني أحس بالخجل أيضاً بخصوص هذا الموضوع. ويبدو كما لو كان الأمر صدفة تاريخية أن تقوم ألمانيا والدول الاستعمارية الأخرى بتنفيذ برنامج معيّن ما يلبث آخرون من بينهم مواطنو بلدي أن يحلموا به هم أيضاً. وهو أمر سيئ بحد ذاته ويزيد من سوئه أنه يشبه وضع قزم يدّعي أنه عملاق استعماري ولا يكتفي بأن يصيب نفسه بالفساد ولكنه يعرض نفسه أيضا للسخرية.

وباعتبار أن النزعة الاستعمارية يبدو أنها لم تعد تلعب أي دور في حياة الفرد الألماني أو البولوني، فلماذا الاهتمام بهذا الموضوع ومناقشته إذن؟

الواقع المؤسف هو أن أشكال التفكير الاستعماري لا تزال منتشرة. فقد دُعيت في أيار/ مايو هذا العام إلى لقاء مع وفد برلماني ألماني كان في لبنان. وكان البرلمانيّون أعضاء في اللجنة الثقافية

للبوندستاغ الألماني. دار الحديث في حلقة صغيرة وكان أحد الموضوعات هو تأسيس شراكة بين مدينتين للمرة الأولى في تاريخ العلاقات الثنائية بين ألمانيا ولبنان. وقد ناقشنا توسيع التعاون الثقافي القائم أصلاً بين مدينتي كولونيا ـ حيث أعيش ـ وبيروت. وهنا استغرب أحد العاملين في السفارة قائلاً: „لماذا كولونيا؟ صحيح أن الثقافة هامة لكن الاقتصاد أكثر أهميّة. من البديهي أن ندعم فكرة الشراكة بين المدن. لكننا يجب أن نختار مدينة مناسبة لذلك. أعني مدينة فيها إنتاج صناعي. كمدينة تسفيكاو مثلاً". وهذا يعني مدينة لا تنتج الثقافة بالدرجة الأولى ولكن بضائع يمكن بيعها.

لكن ذلك الدبلوماسي اقتنع أخيراً بصواب فكرة اختيار كولونيا، بل ولعله من المثير أن أذكر أنّه تحمّس بعد ذلك لتلك الفكرة إلى درجة أن تطبيقها ما كان له أن يكون ممكنا لولا دعمه لها. ومن الممكن جداً ألّا يكون قد شعر بوجود أي تناقض في فكرته الأصلية التي عبّر عنها أولاً. والسبب هو شيوع الرأي القائل بأن أية سياسة تجاه الدول غير الأوروبية يجب أن تكون خاضعة للمصلحة الاقتصادية التي تعني إمكانية إيجاد وتوسيع السوق لمنتجات البلد الأوروبي. وهو رأي يلقى قبولاً في مجتمعات ما بعد الحقبة الاستعمارية.

أفكار وأيديولوجيّات وفق الأفكار التي يطرحها عالم الاجتماع والسياسة المصري سمير أمين فإن القواعد الأساسية للسياسة لم تتغيّر جذريّاً منذ زمن القيصر الألماني ومبعوثه كيتلر. وكان أمين قد أنجز تحليلاً ضافياً ومعقّدا للاستعمار واستنتج أننا نعيش الآن مرحلته الثالثة أي مرحلة „الإخضاع الإمبريالي للكرة الأرضية".

يشرح لنا أمين أنّ „المرحلة الأولى كانت في القرنين السابع والثامن عشر وتضمّنت إخضاع الأمريكتين والتجارة بالعبيد السود. أما الثانية فقد بدأت في القرن التاسع عشر وأدّت إلى إخضاع آسيا وأفريقيا. لكنّها لم تلبث أن ووجهت بهجوم مضاد من قبل الشعوب: فبعد أن استعادت المستعمرات البريطانية السابقة استقلالها في أمريكا الشمالية واندلاع الثورة بين عبيد هاييتي انتشرت حركات التحرّر الكبرى في آسيا وأفريقيا. ونحن نخطو الآن في المرحلة الثالثة التي أسمّيها مرحلة الإمبريالية المشتركة بين الثلاثي، أي الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا واليابان".

كانت المرحلة الزمنية الممتدّة ما بين نهاية الحرب العالمية الثانية وبداية الثمانينات تمتاز بهيمنة اليسار السياسي. وقد نشأت من هزيمة الفاشية وانهيار الإمبراطوريات الاستعمارية. وهنا على المرء أن يفهم مفهوم اليسار السياسي بشكل موسّع جداً بحيث يضم لا الكتلة السوفييتية وحلفاءها فحسب، ولكن بعض الدول القومية الغربية و «القوميات الشعبية» في جنوب الكرة الأرضية أيضاً. هذا اليسار السياسي يلفظ أنفاسه. ونحن نعيش الآن في زمن يستعيد اليمين فيه الهيمنة. إن اليمين يعبّئ قواه السياسية والعسكرية بهدف إجبار العالم على تبني نظامه الاقتصادي والاجتماعي.

لقد حدث تحوّل من نوع خاص على «العنصرية» التي كانت تشكّل نواة مرحلة التوسّع الاستعماري الأولى. فهي مازالت تعيش وبنشاط وإن كانت قد اتخذت شكلاً آخر يمكن التعبير عنه بفكرة أن الدول والأمم التي تعتبر نفسها أكثر تحضّراً تمتلك حق إجبار الدول الأخرى التي تعتبرها „أقل تحضّراً" على اتباع نظامها. ومازال أساس رفاه ذلك الثلاثي الامبريالي، بمفهوم سمير أمين، هو حرمان باقي العالم منه.

بالإضافة إلى ذلك يشرح لنا أمين أن نشوء وانتشار التيارات الإسلامية مرتبط أيضاً بهذا المنطق. فقد كان سبب ما حظوا به من تشجيع وتمويل لفترة طويلة من قبل الأمريكان هو قبولهم الليبرالية الجديدة. فالإسلاميّون لا ينتقدون عولمة الاقتصاد مثلاً ولكن فقط عولمة الثقافة. إذن فهم في الحقيقة لا يصارعون الأسباب الحقيقية للتوتّرات الاجتماعية والاقتصادية المحلية والعالمية وإنما يشجّعون الناس على تأسيس تجمّعات صغيرة محافظة وحتى معادية للأجانب وكارهة للغرباء تسود فيها السلبية والخضوع.

جينيالوجيا السلطة ثمة الكثير من الصحة في تحليلات سمير أمين، وهو ما لمسته من خلال عملي ككاتب ومنتج ثقافي يقف على نقاط الفصل ما بين الشمال الثري والجنوب الذي مازال مهمَلاً من قبلنا. لكنّني كنت قد تعلّمت أيضاً شيئاً من ميشيل فوكو عندما درست الفلسفة. فأنا أحس عندما أقرأ وجهات نظر أمين بالحاجة إلى الشك الإبستمولوجي ـ الخاص بنظرية المعرفة ـ الموجود عند ذلك المفكر الفرنسي.

وهو الانطباع نفسه الذي أحسست به بعد قراءة «الاستشراق» لإدوار سعيد. فهو يقوم بنقد أشكال التفكير الاستعماري. لكن التركيز على مناطق معينة سواء أكانت البلدان العربية أو بلدان الجنوب الفقيرة يمنع هذين الكاتبين من إدراك ظواهر تقع خارج إطار السياق الجغرافي أو التاريخي الذي درساه. إذن فقد كان مصدر استنتاجاتهما النقدية المحِقّة قطاعات معيّنة من ضمن سياق عام أكبر بكثير. كما أن العمليات التي يصفانها تكاد تعطي الانطباع بأنها فريدة ولا يمكن تكرارها، وهو ما يمكن أن يمهّد لخطوة تالية تقسم العالم وبشكل غير عادل إلى «الأشرار» و «الأخيار»، أو «السادة» و «العبيد». بدلاً من ذلك ينبغي على الفيلسوف أن يفحص الأدوات التي نتعرّف من خلالها على الواقع ونصفه.



تمثال فيل
كرمز للطموحات
الكولونيالية الألمانية
ونصب تذكاري
مناهض للتفرقة العنصرية
في بريمن
Photo: Simone Falk

في كتابه «أركيولوجيا ـ المعرفة» يلفت ميشيل فوكو نظرنا إلى أنه يكمن في أصل كل معرفة بعض القواعد التي تتبدّل بتبدّل المراحل والحقب (وهو يسمّيها ابستيمات). إنها تعطي المعرفة تبريرها وتحدّد لها شروط إمكانها وإمكانيّاتها. وهي بهذا المعنى تشكّل أساساً لما يزامنها من عمليات تاريخية وسياسية وأخلاقية ـ اجتماعية. وبنفس الطريقة يوضّح لنا تحليل مفهوم «جينيالوجيا السلطة» أن السلطة تعرّض دائماً مجموعات معيّنة للنبذ والقمع.

ليس هذا المكان مناسباً لتحليل وجهات نظر فوكو طبعاً. ولكن للوصول إلى فكرة أن وجود التفكير الكولونيالي ـ أو الاستعماري ـ في ألمانيا وبولونيا في القرن العشرين لم يكن صدفة. فهذان البلدان إما لم يشاركا (بولونيا) أو شاركا لوقت قصير (ألمانيا) في عملية الاستعمار لأسباب مختلفة جدا. ولكن حالتهما تدلّ على أن الخطاب الكولونيالي كان يشكّل جزءاً من التفكير السياسي والحياة السياسية تشترك فيه كل أوروبا. هذا الخطاب كان هو القاعدة ولم يقتصر على بلدان غرب أوروبا، أو الشمال الغني، كما يقال. ولذلك ـ وبالانسجام مع فوكو ـ فقد كان يمكن للفقرة التي نشرتها المجلة البولونية «بولونيا عبر البحار» أن تظهر وبتعديلات قليلة جداً في أية مجلة في أية دولة في هذا العالم. هذا النوع من الوعي للأشياء غاب عن كتابات أمين التي اقتبستها هنا. إذ أن تحليل الظاهرة الاستعمارية يتطلّب البحث عن الطريقة التي فهم فيها الاستعمار بالمعنى العام وكجزء من أية بنية سلطوية أو بنية هيمنة، وليس الاقتصار على القوى العالمية الكبرى. فليس هناك حكومة بريئة.

الألعاب اللغوية والصمت لست سياسياً. ولا أمتلك تأثيراً كبيراً على ما تفعله أوروبا في الجنوب الفقير، رغم أنني مواطن أوروبي. لكنني أكون سعيداً كلّما أمكن وضع تلك السياسة موضع نقاش. قد يحدث هذا خلال حديث بسيط مع مجموعة من البرلمانيين والدبلوماسيين، كما حدث معي في الحديث الذي جرى في السفارة الألمانية والذي ذكرته هنا. ولم يكن انطباعي حينذاك أنني أجلس مع مجموعة من «الوحوش الإمبرياليين». بالعكس تماماً، فهم كغالبية مواطنيهم درسوا البرنامج التعليمي نفسه الذي يطبّق في المدارس وكانت لديهم طموحاتهم البشرية المعتادة ومخاوفهم وقرأوا الصحف نفسها بما فيها من محاولات التلاعب بوعي الناس. وأنا أثمّن الوقت الذي أمضوه في الاستماع إلي. وأعتقد أنهم فعلوا ذلك بكل جدية.

إلى جانب ذلك فأنا سعيد أيضاً بأن مدينة بريمن التي ألقى فيها القيصر قبل أكثر من مائة سنة «خطبة الهون» الشهيرة قد حوّلت نصب الاستعمار التذكاري إلى نصب مضاد للاستعمار. حتى ولو كان ذلك مجرد „لعبة لغوية". فذلك الفيل الحجري الذي نُحت هناك في عام ١٩٣١ لم يتغيّر إطلاقاً، كما هي عادة الفيلة على كل حال. لكن الصمت هو الأمر الأسوأ. مثلاً ذلك الصمت الذي يلفّ مشاركة الكنيسة في السياسة الاستعمارية بالطريقة التي يلف بها أقفاص البرج في مونستر. وآمل أن تسير الكنيسة على منوال الدول وتشكيلات المجتمع المدني التي تعرض سياساتها الاستعمارية للنقاش العام (بغض النظر عن مدى انخراطها في هذه السياسات حتى الآن). لكن دور العقائد والمؤسسات الدينية في الحركة الاستعمارية يحتاج إلى معالجة خاصة في مرة قادمة.

ستانيسواف ستراسبورغر كاتب وإعلامي بولوني. يقوم إلى جانب أمور أخرى بتنظيم مشاريع في المجال الثقافي تشمل بولونيا وألمانيا ولبنان. نشرت له عام ٢٠٠٩ رواية بعنوان: بائع الحكايات، العنوان الأصلي: Handlarz wspomien، وستنشرها دار الآداب بالعربية عام ٢٠١٤.

ترجمة: حسين شاويش

■ كان مسرح الأحداث العثماني والشرق الأوسطي خلال الحرب العالمية الأولى بالنسبة للمؤرخين الغربيين أشبه بعرض هامشي. لكنه مع ذلك شديد التنوع. وحتى الكتب التي تناقش الإستراتيجية الألمانية يظهر فيها الشرق الأوسط العثماني طوال الحرب العالمية الأولى أشبه بأرض خيالية. ما ينقص في الأدبيات التاريخية هو ذاك الحس بالجبهات العثمانية بوصفها مسرحا نشطا وحيويا على نحو خاص لأحداث الحرب العالمية الأولى.

حرب الخلافة العثمانية

المحاولات المنسية للاستيلاء على اسطنبول في الحرب العالمية الأولى

شون ماكميكين SEAN MCMEEKIN

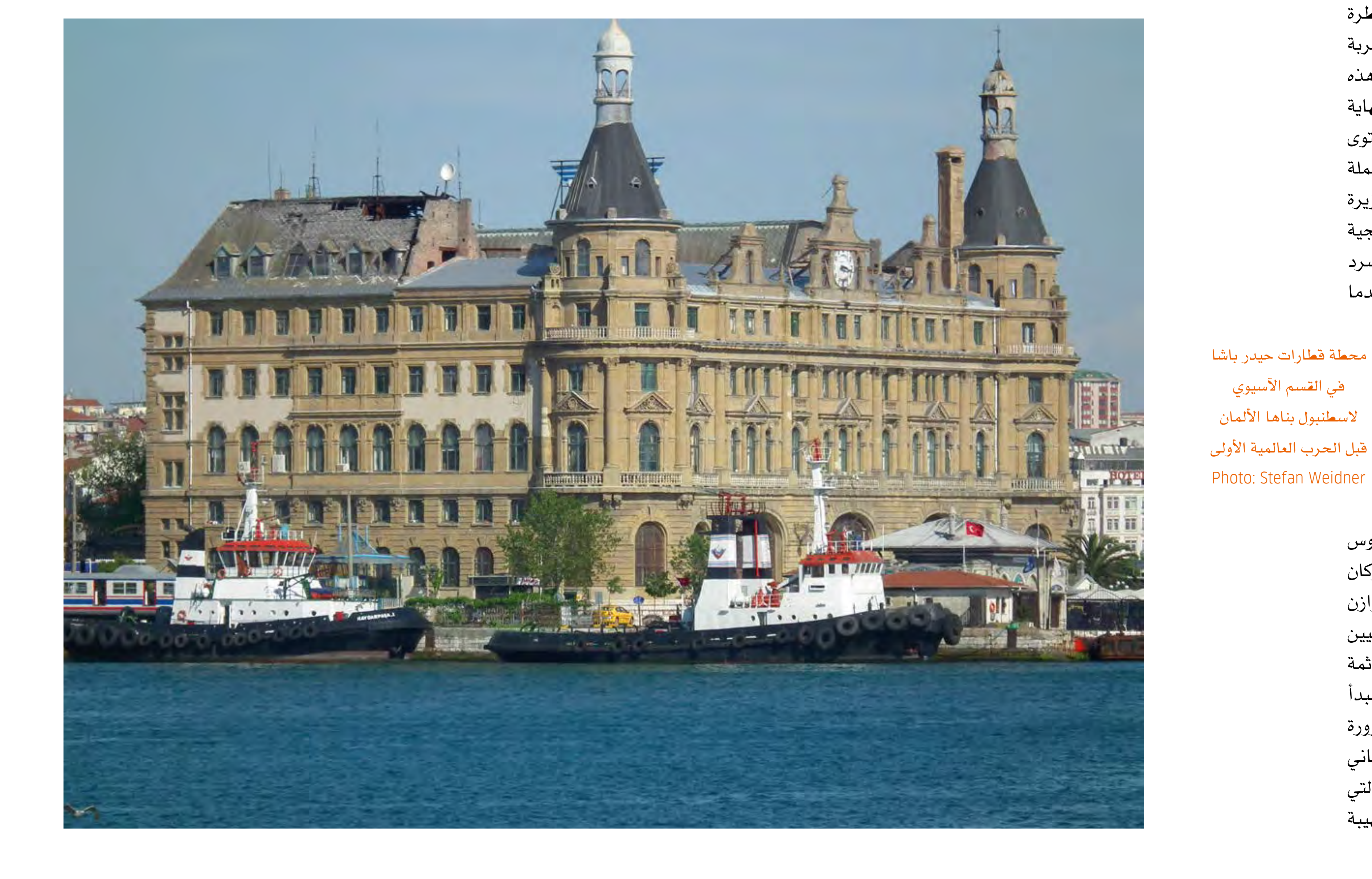
لم يكل كتاب اللغة الإنجليزية (وخصوصا الأستراليين) عن ترديد قصة معركة غاليبولي. وأصبح فيلم لورنس العرب من كلاسيكيات السينما في هوليوود، ولا زالت المذبحة ضد الأرمن عام ١٩١٥ تستثير جدلا محموما بين الباحثين. تغطي الأدبيات الألمانية قطاعا أوسع قليلا. يترك كتاب فريتز فيشر «الطموح إلى القوة العظمى» (١٩٦١) ظلاله الواسعة على معظم الباحثين الألمان في مجال التاريخ العثماني سواء اتفقوا معه أم لا، وذلك في نقاشه حول «الجهاد» الذي أعلنته الدولة العثمانية ضد قوى الوفاق الثلاثي، وفي مقدمتها بريطانيا العظمى، والذي كان يهدف إلى تحريض المسلمين في مصر والهند البريطانية على التمرد على الاحتلال البريطاني. وحتى الكتب التي تناقش الإستراتيجية الألمانية يظهر فيها الشرق الأوسط العثماني طوال الحرب العالمية الأولى غالبا في صورة أشبه بأرض خيالية، حيث كانت الخطط الطموحة التي تعد في برلين تشهد فشلها هناك بسبب الإمكانات المحدودة لأهل المنطقة.

الدور الروسي والأمر الذي لا يزال ينقص الأدبيات التاريخية هو ذاك الحس بالجبهات الحربية العثمانية باعتبارها مسرحا نشطا وحيويا لأحداث الحرب العالمية الأولى. ويعود جزء من هذه المشكلة حسب رأيي إلى الجهل الغربي بدور روسيا الكامل في الحرب على جبهات تمتد من اسكندنافيا وساحل بحر البلطيق إلى إيران وأرض الرافدين، يدين هذا الجهل بدوره للجمود الشديد الذي وضعت فيه الثورة الروسية الباحثين فيما يخص الجانب العسكري للصراع. لكنني أظن أن المسألة مرتبطة أيضا بما يمكن أن نسميه انحرافات النتائج. يميل المؤرخون إلى التقليل من أهمية الجبهات العثمانية في نطاق الحرب الكبيرة، نظرا لعلمهم بأن جهود ألمانيا لإطلاق العنان للجهاد العثماني من أجل إسقاط الإمبراطورية البريطانية، مثلها مثل الجهود البريطانية لتخفيف الأعباء عن روسيا وإخراج العثمانيين من الحرب عبر السيطرة على مضيق الدردنيل وكذا تجهيزات روسيا لضربة عسكرية من الجو والبر والبحر لاسطنبول، أي كل هذه المناورات الإستراتيجية قد باءت جميعها في النهاية بالفشل. فالكتب عن معركة غاليبولي مثلا تحتوى دائما على روايات ذات طابع محدود عن الحملة تُختتم بانسحاب آخر قوات الحلفاء من شبه الجزيرة في يناير عام ١٩١٦. أما النقاشات عن إستراتيجية «الجهاد» الألماني فهي تميل بصورة مشابهة إلى سرد الوقائع كما هي، فيما يصبح الحديث فضفاضا عندما يجري التطرق إلى الحملة العسكرية الفعلية.

وحتى يومنا هذا ظلت خطط روسيا لإنزال قواتها بكثافة على البوسفور، والتي كان من المفترض تنفيذها في صيف عام ١٩١٧، مجهولة فعليا وذلك لسبب واضح وهو أن اندلاع الثورة الروسية قد قلل كثيرا من أهمية هذه الخطط. ومع ذلك فإن هذه المناورات كانت بالنسبة للمخططين الألمان والبريطانيين والروس في ذاك الوقت ذات أهمية إستراتيجية هائلة، وكان يبدو أن نتيجة الحرب كلها كانت تعتمد على التوازن (أما أهمية مسرح الأحداث العثماني بالنسبة للعثمانيين أنفسهم، فلا يوجد بالطبع أي ذكر له). أيضا لم يكن ثمة شيء قدري محتوم فيما يخص الفشل النهائي. لنبدأ بمبادرة «الجهاد» الألمانية، لم تكمن المشكلة بالضرورة في مفهومها ولكن في تنفيذها. كان الحكم البريطاني لمصر ذات الغالبية المسلمة وشبه القارة الهندية التي تعج بملايين المسلمين مؤسساً على الخداع والهيبة

أكثر من اعتماده على التواجد العسكري على الأرض. ولو كانت ثمة تهديدات عسكرية حقيقية للراج البريطاني أو لمقر القيادة البريطانية في القاهرة عامي ١٩١٤ أو ١٩١٥، فما من شك في أن البريطانيين كانوا سينشغلون بنزاع حقيقي كان سيستوجب قمع هذا التحريض الجهادي. على النقيض من رؤى المُخطِط الرئيسي للجهاد الألماني البارون ماكس فون أوبنهايم، فإن فشَل تحقق هذا التحريض لا يعكس عدم الإخلاص بقدر كاف للبروبغندا الجهادية، بل يعكس بالأحرى عدم قدرة ألمانيا على حشد قوات كافية في الممرات الحيوية الرئيسية للإمبراطورية البريطانية مثل قناة السويس (الهند كانت بعيدة جدا بحيث أن الجهود غير العملية لإذكاء نار الجهاد هناك كانت، حسب رأيي، مجرد لهو غير ضروري). كما عرضت في كتابي The Berlin-Baghdad Express، لم يتمكن الألمان بسبب الانقطاعات الجبلية في خط السكك الحديدية العثماني الرئيسي بين الأناضول وسوريا، من إرسال مدفعية بعيدة المدى تصل لخط السكة الحديد المستخدم لحركة التعزيزات العسكرية البريطانية على طول قناة السويس ولا على جمع طائرات حربية لمنافسة سيطرة العدو على المجال الجوي (ومن بين ذلك أن البريطانيين بمراقبتهم للجو بلا منازع قد عرفوا بالضبط من أين ومتى ستأتي الضربات التركية الألمانية). ولم يسعف القضية تحول الموارد الألمانية إلى عشرات من مبادرات «الجهاد» الصغيرة التي استهدفت الجميع بدءا من الحسين شريف مكة إلى أئمة الشيعة في كربلاء إلى شاه إيران ووصولا إلى الأمير حبيب الله في أفغانستان، ولم يكن باستطاعة أحد منهم توجيه ضربة لمصالح بريطانية لها ولو جزء بسيط من أهمية السويس. لو جلب الأتراك والألمان قوات كافية تتيح عبورا ناجحا للقناة وهددوا القاهرة، لكانت بروبغندا «الجهاد» المصرية عملت من تلقاء نفسها.

موقف تشرشل إن معرفتنا بمآل حملات الحلفاء تحت القيادة البريطانية في الدردنيل وغاليبولي، والتي تعد الآن مثلا للعبث الاستراتيجي الدموي، يجعل رؤيتنا مشوهة مرة أخرى. حتى نهاية حياته ظل وزير البحرية البريطاني وينستون تشرشل يعتقد أن قرار مجلس الحرب (حكومة الحرب) الشهير بوقف حملة كسح الألغام البحرية بعد معركة ١٨ آذار/ مارس ١٩١٥ كان الخطأ الأكبر في هذه الحرب ـ لقد ظن حينها أن نقصان الذخيرة في سرايا المدفعية



محطة قطارات حيدر باشا في القسم الآسيوي لاسطنبول بناها الألمان قبل الحرب العالمية الأولى
Photo: Stefan Weidner

على الشاطئ سيجعل معنويات القوات العثمانية الألمانية على وشك الانهيار. لم تبق إلا قلة قليلة تدافع عن موقف تشرشل، لسبب وجيه، وهو أنه كان على خطأ بشأن مستوى الذخيرة والمدفعية لدى العدو (في الواقع أطلقت المدفعية الألمانية التركية حوالي ٢٢٥٠ قذيفة فقط خلال معركة ١٨ آذار/ مارس ١٩١٥ التي تأرجحت فيها كفة الطرفين بين الهزيمة والنصر، لكن كان معهم أكثر من عشرين ألف قذيفة احتياطية، ومن الصعب القول إن المعنويات كانت منخفضة بعد أن شاهد رجال المدفعية غرق ما لا يقل عن ثلاث سفن حربية للعدو خلال هذا اليوم). ومع ذلك فقد كانت لتشرشل وجهة نظر، وإن لم تكن بالضرورة متعلقة بنظام المعركة في هذا اليوم بالذات. تكمن وجهة نظره في الهدف من الحملة ـ طرد العثمانيين من الحرب، وفتح منفذ مشترك إلى موانئ روسيا الدافئة في البحر الأسود لإرسال إمدادات الحرب وبشكل أوسع وضع حد للمطامع الألمانية في الشرق الأوسط العثماني، وقد كانت وجهة نظر سليمة استراتيجيا. لو سقطت اسطنبول في عام ١٩١٥، كان ذلك سيتيح لقوى الوفاق الثلاثي فتح جبهة واسعة في البلقان من اليونان وتراقيا في مواجهة القوى المركزية عن طريق بلغاريا (أي قوى متذبذبة، في هذا السيناريو، كانت ستلتحق على الأرجح بقوى الوفاق الثلاثي المنتصرة، وليس بالقوى المركزية)، من الصعب تصور أن إمبراطورية النمسا وهنغاريا، على الأقل، كانت ستستطيع مواصلة القتال لثلاث سنوات أخرى. من المؤكد أنه كان سيكون باستطاعة ألمانيا مواصلة القتال، ولكن بساقين مبتورتين بسبب سعيها لغزو شرق أوروبا Drang nach Osten، إلا أنه من الصعب تصور السبب وراء مواصلتها للقتال.

كان فشل الحلفاء الحقيقي في الدردنيل وبعد ذلك في غاليبولي، حسب قناعتي، دبلوماسيا ـ استراتيجيا. لقد كان تشرشل نفسه، ورغم ندمه لاحقا على وقف الحملة البحرية في آذار/ مارس ١٩١٥، قد نصح في الأصل بالاستعانة بالقوات البرية لدحر سرايا المدفعية على الساحل ـ وكان هذا النصح موجها لكتشنر وحده لإبلاغه بأنه لم يعد ثمة خيار متاح. ولكن حتى إذا تركنا جانبا أن قوات الحلفاء قد نزلت إلى الشاطئ في الخامس والعشرين من نيسان/ أبريل عام ١٩١٥، فقد كانت قادرة بالفعل على القيام بهجوم بري وجوي وبحري وكان بإمكان البريطانيين أن يضعوا في حسبانهم دعم ١٥٠ ألفا من القوات اليونانية التي عرضتها أثينا ـ إلا أن الروس قد غاروا من وجود قوة أرثوذكسية أخرى قد ترث بطريركية القسطنطينية واعترضوا على مشاركة اليونانيين.

في غضون ذلك، ورغم أن قلة قليلة تعرف هذا اليوم، فإن روسيا نفسها قد وعدت بإرسال أربعين ألف جندي إلى البوسفور لدعم قوات الحلفاء للتقدم في الدردنيل ـ لكن ورغم موافقة البريطانيين في آذار/ مارس ١٩١٥ لإعطاء روسيا السيادة على اسطنبول بعد غزوها، لكنهم لم يلتزموا بذلك. وبالنظر إلى الأهمية الإستراتيجية للحملة، فمن المثير للدهشة إلا يكون البريطانيون قادرين على إرغام أي من اليونان وروسيا على إحداث هذا التشتت في الموارد العثمانية، الذي كان من شأنه وحده أن يجعل نجاح الحملة ممكنا.

معارك الدردنيل وعواقبها لم تقدم الدراسات عن حملة الدردنيل شيئا جديدا ـ لقد عكف المؤرخون البريطانيون لسنوات على دراسة ما يعرف بتقارير «لجنة الدردنيل» التي جمعتها لجنة تحقيق رسمية في عام ١٩١٦–١٩١٧. مع ذلك تبقى ثمة نقائش مخفية في هذه الوثائق وتفتح المجال لأسئلة افتراضية مبهرة عن الكيفية المحتملة لنجاح الحملة (وتشرح أيضا أسباب فشلها). عندما سأل المحققون السير إيان هاميلتون قائد القوات البرية التي احتشدت آنذاك، عما خططت القيادة البريطانية العليا عمله في حال كان باستطاعة كاسحات الألغام تطهير الممر عبر المضيق في آذار/ مارس، أجاب بأنه كان ينوي إنزال قواته على الضفة الأوروبية لبحر مرمرة وأن يهاجم الجبهة العثمانية في كاتالكه، قبل أن تتمكن القيادة التركية الألمانية من الهرع إلى إرسال تعزيزات إليها من تراقيا. لكن هاميلتون كان تحت إمرة وزير الحرب هوارتسيو كيتشنر الذي أمره بشيء من التعجل ـ جرت هذه المحادثة في آذار/ مارس عام ١٩١٥، وقبل أيام فقط من المعركة الحاسمة في المضايق ـ بأن عليه أن يخطط لإنزال قواته على الضفة الآسيوية من اسطنبول في إسكودار. لماذا إذن؟ سأل هاملتون كيتشنر. والإجابة كانت كاشفة: بعد الرسو في إسكودار أمرت قوات هاميلتون أن „تنضم إلى قوات روسية ستتعاون معي وتحت إمرتي".

يوجد هنا احتمال تاريخي مذهل. إذ كان من الواضح أن هاميلتون وكيتشنر كانا يفكران في أن إنزال روسي ـ بريطاني مشترك على الضفة الآسيوية الأقل تحصينا (أيضا مع مشاركة فرنسية) لإقناع الحكومة العثمانية بعدم جدوى المقاومة، كان أفضل من الخوض في الوحل لتسعة أشهر في مواجهة دفاعات غاليبولي الشديدة التحصين. لو أعطينا مصداقية لهذه المحادثة التاريخية، فسنجد أنها جرت في يوم ١٢ آذار/ مارس ١٩١٥ وهو اليوم ذاته الذي وافقت الحكومة البريطانية على أحقية حصول روسيا على اسطنبول والمضيقين العثمانيين بعد الحرب. والآن يمكن للمرء أن يفكر في أنه كان من المعقول أن يربط البريطانيون بين شيئين وهو أن حصول روسيا على الجائزة الكبرى ما بعد الحرب يجب أن يكون مشروطا بمشاركتها فعليا بإنزال قوات برية وجوية وبحرية لاحتلال اسطنبول. ومع ذلك لم يقم وزير الخارجية البريطاني بأي شيء من هذا القبيل، فقد انخدع بحركة بها شيء من الابتزاز الدبلوماسي الذكي ـ إذ أشار وزير الخارجية الروسي س. د. سازنوف قبل ذلك بأسبوع وعلى نحو مبهم بأنه لو لم يتمكن من المضيقين، فإن حكومة صديقة لألمانيا قد تتولى الحكم في بطرسبورغ وتعقد سلاما منفصلا مع ألمانيا ـ بعدها أعلن غراي موافقة بريطانيا غير المشروطة بمنطق غريب مفاده أنه بوعده الروس بالحصول على اسطنبول قد حال دون إدعاء الحكومة الروسية بأن بريطانيا لن تسلمها اسطنبول.

التردد الروسي وهكذا فإن روسيا حصلت على ضمان دبلوماسي بسيادتها المستقبلية على اسطنبول والمضيقين، وتُركت لها حرية عدم الظهور خلال معركة غاليبولي الطويلة الدامية التي تلت فيما بعد. في حركة ذات طابع تهكمي ملغز، ظهر الأسطول الروسي في البحر الأسود لفترة وجيزة في يوم إنزال قوات الحلفاء في ٢٥ آذار/ أبريل ١٩١٥، وأطلق نحو نصف دزينة قذائف على مساحات غير مأهولة من شواطئ البحر الأسود. (بعد ذلك بأسبوع عاد الأسطول وأطلق ١٦١ قذيفة، لكن ذلك لم يكن مقنعا للبريطانيين). بالطبع يعود فشل حملة غاليبولي بدرجة كبيرة إلى الشجاعة التركية (أشهر بطولات مصطفى كمال وعلى رأسها معركتا شُنق باير في يوم ٢٥ نيسان/ أبريل والمرة الأخرى عندما استعاد العثمانيون الموقع في ٩ آب/ أغسطس) والقدرة الألمانية على التنظيم والنظام. لكن علينا ألا نقلل من شأن دور الطمع الروسي والانعدام التام للكفاءة الدبلوماسية البريطانية في إتاحة هذا الفشل.



مصطفى كمال أتاتورك، كانون الثاني/ يناير ١٩١٦

السؤال الواضح بالنسبة للروس هو لماذا لم يظهروا من أجل المطالبة بجائزتهم الموعودة في ربيع عام ١٩١٥؟ فحتى لو أقررنا بأن الحكومة البريطانية لم تفعل شيئا لإجبار روسيا على المشاركة بقوات في حملة غاليبولي، فقد كان سيبدو منطقيا أن تقوم روسيا بالمشاركة من أجل ضمان أحقيتها في اسطنبول. وفي الحقيقة قامت القيادة العليا الروسية في نهاية أيار/ مايو ١٩١٥ بحشد قوات قوامها أربعين ألف جندي في أوديسا من أجل إنزال محتمل لها في البوسفور. وإن لم تتمكن روسيا من تنفيذ عمليتها في الوقت المناسب لمساعدة البريطانيين في آذار/ مارس أو نيسان/ أبريل، فقد كان لديها محفزات كافية لعمل ذلك في وقت لاحق خلال ذلك الربيع أو الصيف.

لكن اتضح أن عام ١٩١٥ كان عاما مريعا لروسيا، ففي الثاني من أيار/ مايو ١٩١٥، وأثناء قيام أسطول البحر الأسود الروسي بهجمات مضللة وغير جادة على شواطئ البوسفور لدعم البريطانيين إلى جانب القوات النيوزيلندية والأسترالية التي ثبتت في مواجهة قصف عنيف على ضفتي الدردنيل الأوروبية والآسيوية، اخترق الألمان الجبهة الروسية في غورليس ـ تارنو، ما أحدث ثغرة في السهل الأوروبي الشمالي. سيشهد هذا الصيف الانسحاب الروسي الكبير، بعد سقوط معظم المناطق الخاضعة لروسيا في بولندا، بما في ذلك مقار قيادة الجيش القيصري في بارانوفيتشي ووارسو نفسها في أيدي القوت الألمانية ـ النمساوية. سبّب هذا الانسحاب معاناة كبيرة، ونتج عنه نزوح مليوني لاجئ من بينهم نصف مليون يهودي طردوا من مناطق الجبهات خوفا من أنهم قد يساعدون الألمان. في لحظة تصفية حساباتها مع الألمان ـ التي كادت تعصف بالحكم القيصري (تولى القيصر نيقولا الثاني بنفسه قيادة الجيش في أيلول/ سبتمبر عام ١٩١٥ لاستعادة المعنويات) ـ كانت روسيا في موقف يصعب فيه عليها حشد قوات برية وبحرية وجوية لتوجيه ضربة لاسطنبول. وفي وضع مريع من ناحية التوقيت، تكبد الأرمن التابعون للحكم العثماني آلام لحظتهم الخاصة في تصفية الحسابات في مايو ١٩١٥، عندما بدأت حملة التهجير في شرق تركيا (الحملة التي انتشرت في الصيف على نطاق كبير خلف خطوط القتال). لم يعد باستطاعة جيش القوقاز الروسي في تبليسي، والذي أُستدعي لتخفيف العبء عن القوات الروسية في أوروبا، من المجيء لمساعدة الأرمن، ولا قيادة البحر الأسود كانت قادرة حقا على التفكير في إرسال قوات برية وبحرية وجوية قوامها أربعين ألفا إلى البوسفور.

لكن يجب ألا تجعلنا الظروف الإستراتيجية الدراماتيكية التي واجهت القادة الروس في ١٩١٥ نغفل عن الأهمية الطاغية التي أولوها للجبهة العثمانية وخصوصا، لاسطنبول والمضيقين. وفعلا بمجرد استقرار خطوط القتال للجيش القيصري في أوروبا في خريف ١٩١٥ بالقدر الذي سمح بإرسال تعزيزات إلى تبليسي، اندفع جيش القوقاز الروسي ليحاصر أرضروم العثمانية „المنيعة" في شباط/ فبراير ١٩١٦، وليستولي على مينائي ريزه وترابزون في نيسان/ أبريل، وإرزينغان المعقل الحساس في الشرق التركي في تموز/ يوليو (وذلك بالتزامن مع فان وموس وبيتليس جنوبا). لقد

دُمر الجيش الثالث العثماني، الذي كان مقر قيادته في السابق في أرضروم، عن بكرة أبيه تقريبا في عام ١٩١٦، إذ خسر ١٠٠ ألف من رجاله ومعظم أسلحته. ونظرا لتلهفهم المسبق بدأ الروس في إنشاء خط سكة حديد بطول سواحل البحر الأسود من باتوم وحتى ترابزون، محولا الأخيرة إلى قاعدة أمامية حيوية. وبمجرد ما ذاب جليد الشتاء كان جاهزا للزحف إلى سيفا وأنقرة واسطنبول نفسها، ومتصلا بمحطة سكة حديد لتوزيع المؤن العسكرية في أنقرة.

اسطنبول وتسارغراد بعيدا تماما عن فكرة نسيان اسطنبول بعد الإخفاق البريطاني في غاليبولي، شهدت الخطط الروسية لحصار «تسارغراد» أي مدينة القيصر كما كانوا يطلقون على اسطنبول حراكا قويا (وفي الحقيقة قادت الأمور لبعضها البعض تلقائيا ـ بدأت روسيا هجوم القوقاز في ١٠ تشرين الثاني/ يناير ١٩١٦ في اليوم التالي لإخلاء آخر جندي بريطاني لكيب هيليس، ويمكن أن تكون الفكرة الانتهازية نوعا ما لضرب الجيش العثماني الثالث قبل وصول الإمدادات قد استُلهمت من أحداث معركة غاليبولي). وكما تبين، لم يكن العام الحرج في إقرار مستقبل اسطنبول والمضيقين، هو ١٩١٥ عندما كانت روسيا ما زالت غير مستعدة وتواجه خطر تغلب الألمان عليها، ولا عام ١٩١٦، عندما بدأت في وضع الأساس لمشروعها، ولكن في عام ١٩١٧ عندما أصبحت كل القطع الضرورية للعملية البرية والبحرية والجوية أخيرا جاهزة. وآخرها ظهرت في الثلاثين من نوفمبر عام ١٩١٧، عندما دُشنت أول مدرعة بحرية روسية في البحر الأسود إثر خطأ وقع في اللحظة الأخيرة بسبب انفجار على سطحها. تلك كانت المدرعة «الإمبراطورة كاترين العظمى»، تيمنا بالإمبراطورة الأسطورية التي كانت أول من وضع فكرة غزو «تسارغراد»، روما الثانية، وسعيا لاستعادة أيام المجد الروسي في القرن الثامن عشر (وعلى خطى فرضها لمعاهدة كيتشوك كاينارجي الإملائية على العثمانيين في عام ١٧٧٤). في غضون ذلك زال تهديد الطرادة الألمانية غوبن التي كانت وبالا على الأسطول الروسي واشتهرت بإفلاتها من المراقبة البريطانية ووصولها إلى اسطنبول في تموز/ أغسطس ١٩١٤، وأعانت العثمانيين في دخول الحرب عن طريق قصف أوديسا في أكتوبر من ذاك العام، وأسهمت في إبعاد الأسطول الروسي عن إعانة البريطانيين في نيسان/ أبريل ١٩١٥ من خلال تهديدها لأوديسا، والتي أفلتت من عشرات من التوربيدو والقذائف في هجمات استهدفتها في البحر الأسود. (لقد نُزعت مدافعها الأساسية وأُعيد تركيبها على الشاطئ).

وإذا كان عام ١٩١٥ عاما مريعا لروسيا فإن عام ١٩١٧ كان عام معجزاتها، إذ كانت أخيرا بصدد غزو اسطنبول، بعد „ألف عام من الإحباط" حسبما كتب دبلوماسي روسي. وقد استمرت الخطط الروسية للضربة البرية والبحرية والجوية على البوسفور حتى بعد اندلاع ثورة فبراير دون انقطاع، بل في الواقع تم تسريع العمل من أجل تنفيذها، من جانب لأن مثل هذا الغزو الدراماتيكي كان يعد بحشد الرأي العام لتأييد الحكومة المؤقتة. بل ونظم الأدميرال ألكسندر. ف. كولتشاك الفرقة «تسارغرادسكي» التي كان من المقرر أن تقود عملية الإنزال بحيث تُحدث أكبر قدر من التأثير السياسي الدراماتيكي. وكما وصف بافل ميليوكوف مؤسس حزب «كاديت» الليبرالي ووزير خارجية الحكومة المؤقتة بصورة بليغة، فإنه „سيكون من العبث والإجرام التخلي عن

صورة من أرشيف وزارة الخارجية الألمانية
تسخر من السياسة البريطانية في الهند
© Archiv des Auswärtigen Amtes, Berlin

أكبر جائزة للحرب ... باسم فكرة إنسانية وكوزموبوليتية هي الاشتراكية العالمية". ولضمان ظروف مناخية ملائمة في البحر الأسود، كان من المفترض أن يبدأ الهجوم البري والبحري والجوي في الفترة ما بين ١٤ حزيران/ يونيو و ١٤ تموز/ أغسطس ١٩١٧.

في نيسان/ أبريل ١٩١٧، وحتى عندما واجه ميليوكوف مشكلات مع المعارضين اليساريين للحرب لرفضه التخلي عن أطماع روسيا «الإمبريالية» في المضيقين (هذه الأزمة قادت إلى أول محاولة انقلاب بلشفية فاشلة في مطلع مايو، بالتزامن مع استقالة ميليوكوف والمعتدلين الآخرين في الحكومة المؤقتة)، أطلق كولتشاك أول مناورة استطلاعية إلى مضيق البوسفور، وكانت عبارة عن مجموعتين من المدمرات والطرادات وأيضا ثلاث ناقلات طائرات بدائيات (كانت نماذج أولية مصممة لتتيح للطائرات البحرية أن تنطلق في طلعات قصيرة المدى). قصفت العديد من الطائرات البحرية الروسية المنطلقة من ناقلات الطائرات التي حملتها من أوديسا، العديد من الحصون العثمانية بطول البحر الأسود.

الثورة الروسية وفي السادس والعشرين من حزيران/ يونيو ١٩١٧، وأيضا عندما كانت التحضيرات الأخيرة لهجوم كيرنسكي الشهير الفاشل على المواقع النمساوية في غاليسيا تجري على قدم وساق، وصلت قوات كولتشاك المهاجمة إلى البوسفور. في هذه المرة ظهرت المدرعة البحرية «الإمبراطورة كاترين العظمى» للمرة الأولى، مصحوبة بناقلات طائرات وأسطول صغير من المدمرات ـ لكن كان على هذا الأسطول المهيب أن يعود أدراجه وهو على بعد أربعين ميلا من الساحل، لأسباب ربما ذات صلة بتدني المعنويات (كان ثمة تمرد في أسطول البحر الأسود، رغم أن كولتشاك قد بدا وكأنه استعاد السيطرة بعد إعدامه لقادة التمرد).

وفي الأنفاس الأخيرة لروح «تسارغراد» نفذت عدة طائرات حربية روسية شُحنت على ناقلات الطائرات هجمات على اسطنبول نفسها في يومي ٩ و ١٠ تموز/ يوليو ١٩١٧، وأسقطت عدة قنابل على منشآت في ناحية المرفأ في القرن الذهبي ووصلت إلى سان ستيفانو (يشيلكوي، وهو الموقع الحالي لمطار اسطنبول الدولي) قبل أن تعود. والفصل الأخير في هذه الدراما كان في محله: في السادس والعشرين من تموز/ يوليو ١٩١٧، عندما اكتسحت حركات التمرد صفوف الجيوش الروسية وأنزلت الدمار بأسطول البحر الأسود، أخطأ زورق روسي وحيد مزود بمحرك طريقه في حقل الألغام الذي يحمي مضيق البوسفور، وعندئذ ألقى قائده برسالة سلام في زجاجة تجاه الشاطئ (ومفادها أن الأتراك والروس إخوة: الألمان هم الأعداء الحقيقيين لكليهما). بهذه الطريقة الغريبة والمؤثرة نوعا ما تقوضت طموحات روسيا القديمة لغزو اسطنبول والمضايق على رمال الثورة الروسية.

لم يكن كل ذلك فعل الثورة الروسية وحدها، فبعد أن خبت شعلة الجيوش الروسية المنتصرة المنتشرة على نطاق واسع في أماكن مثل غاليسيا النمساوية والأناضول وأرض الرافدين وإيران ـ وتحديدا عندما قامت قوات الاحتلال القيصرية في كل هذه المناطق بشد الرحال إلى الوطن كي لا تفوتهم فرصة الانتزاع الثوري الكبير للأراضي، انمحت الاضطرابات السياسية في عام ١٩١٧ بالنسبة للكثيرين من الجمهور الغربي وظل فصل كامل من الحرب العالمية الأولى، بأبواب قليلة ذات أهمية بارزة من مسرح الشرق الأوسط (غاليبولي، المذبحة الأرمينية، ت. إي. لورنس واستيلاء بريطانيا على فلسطين وسوريا) يُذكر على نطاق واسع حتى اليوم. لكن تشوهات المعرفة التاريخية الناجمة عن ذلك خطيرة، ويتبدى ذلك بصورة لافتة في المساومات اللانهائية حول مشروعية معاهدة سايكس ـ بيكو عام ١٩١٦ بشأن تقسيم تركيا العثمانية. إن سرد قصة انهيار الإمبراطورية العثمانية دون ذكر الدور الرائد لروسيا، كما يفعل العديد من المؤرخين والكُتّاب ذوي الشعبية الواسعة، يشبه بعض الشيء الحديث عن انهيار الاتحاد السوفيتي في عام ١٩٩١ دون الإشارة إلى دور الولايات المتحدة. في الواقع لعبت روسيا دورا رائدا في تحطيم الإمبراطورية العثمانية ـ بل وحتى المفاوضات المسماة بسايكس بيكو كان قد تم الإعداد لها في سان بطرسبورغ في ربيع عام ١٩١٦ تحت رعاية وزير الخارجية الروسي سازونوف. وكون روسيا بسبب ثورتها الرهيبة عام ١٩١٧ ومعاهدة بريست ليتوفسك لعام ١٩١٨ التي وافقت من خلالها على اتفاق سلام إملائي منفصل مع ألمانيا، يجعلها تخسر أي أحقية لها في الأراضي العثمانية في تسويات ما بعد الحرب، لا يغير من حقيقة مفادها أنها قد دعمت مطالبها بقوة السلاح (بل وكادت أن تحصل عليها في عام ١٩١٧).

عندما نسترجع المناورات الإمبريالية الروسية خلال الحرب العالمية الأولى والتي طواها النسيان، يمكننا أن نفهم مغزى أحداث كانت تبدو بخلاف ذلك غامضة، بدءا من التضحية الدموية التي قدمتها قوات الحلفاء في غاليبولي (من أجل أن تفوز روسيا باسطنبول والمضيقين ـ هذا لا يعني أن هذا الهدف كان قد أُوضح للجنود البريطانيين أو لجنود القوات النيوزيلندية والأسترالية)، إلى الكارثة الأرمينية في عام ١٩١٥ (كان الأرمن العثمانيون بيدقا مهما لمطامع روسيا في شرق تركيا)، ثم إلى النزاع الذي واجهه البريطانيون على ضفاف دجلة في شمال أرض الرافدين، حيث استسلم الجنرال تاونسهند مع كامل فرقته في كوت العمارة (طلب البريطانيون من البعثة الروسية في إيران أن تخفف العبء عن تاونسهند بقصف بغداد ـ واختار الروس بانتهازية كما في غاليبولي ألا يمدوا يد العون). وبإمكاننا باسترجاع هذه الأحداث بخاصة، أن نحسن فهم الحرب العالمية الأولى التي يمكن بسبب أصولها العائدة إلى الحرب الإيطالية التركية وحرب البلقان في الأعوام من ١٩١١ إلى ١٩١٣، وأيضا بسبب نتيجتها المتنازع عليها بمرارة في الشرق الأوسط، أن نطلق عليها ببساطة اسما جديدا هو حرب الخلافة العثمانية.

شون ماكميكين يدرس التاريخ في جامعة كوتش في اسطنبول بتركيا، وله مؤلفات تاريخية عديدة.

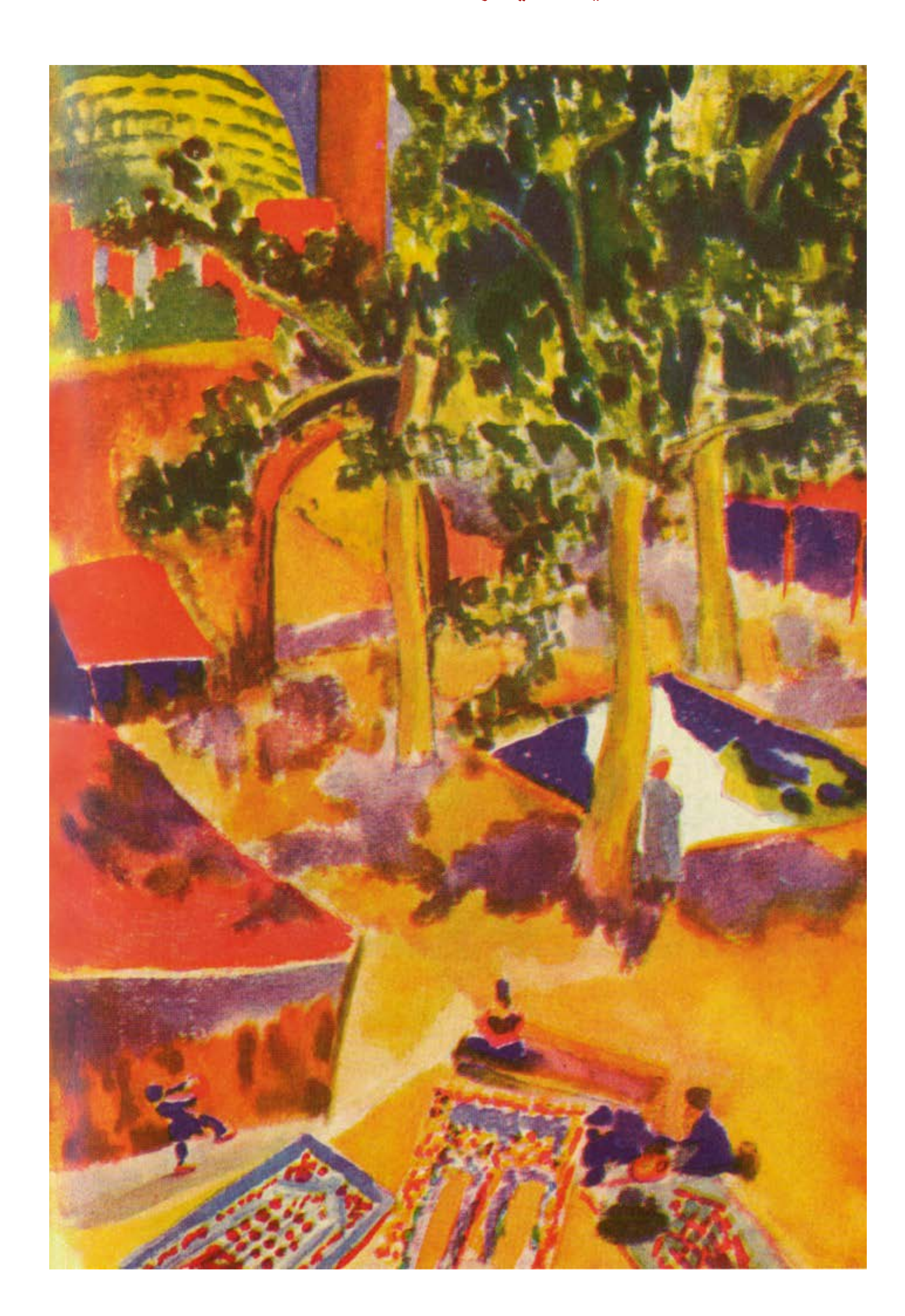
ترجمة: أحمد فاروق

■ بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى بفترة قصيرة، انطلق الكاتب الأمريكي جون دوس باسوس، إلى المشرق واطلع بشكل مباشر على التغيرات الجذرية التي خلفتها الحرب في تلك المنطقة. إذ بدأت رحلته من اسطنبول المحتلة وانتهت في سوريا، مارًا بجورجيا وأذربيجان وإيران والعراق، وأعطى من خلالها لمحة فريدة من نوعها حول أجواء تلك الفترة.

في الشرق البري

رحلة الأمريكي جون دوس باسوس للشرق

شتيفان فايدنر STEFAN WEIDNER



مقهى في طهران
أكواريل
جون دوس باسوس

جاء قرار جون دوس باسوس بالتوجه إلى الشرق الأوسط في عام مليء باضطرابات تاريخية تخطف الأنفاس، وأذعن لذلك الشوق الذي طالما جذبه إلى المشرق، والذي كان معهودا بين الأدباء الغربيين. وكان باسوس قد رافق والدته عام ١٩١٢ في رحلة نيلية إلى الحدود السودانية وقضى أربعة أيام في اسطنبول في طريق عودتهم إلى أوروبا. إلا أنه حين توجه بمفرده مرة أخرى إلى اسطنبول في عام ١٩٢١ كانت قد نُشرت له روايتان بالفعل. إن روايات هذا الكاتب، الذي كان قد أتم عامه الخامس والعشرين في تلك الفترة، مستوحاة من تجاربه الحربية وهما: «مبادرة رجل واحد» و «ثلاثة جنود». ويجدر بالذكر أن جون دوس باسوس ولد في شيكاغو في ١٤ كانون الثاني/ يناير عام ١٨٩٦ كابن غير شرعي لمحام ذي شأن من نيويورك. وبوفاة والده عام ١٩١٧ حصل باسوس على إرث صغير ساعده على تمويل أسفاره ونمط حياته غير المستقر.

تجارب ذات بصمة علم باسوس بخبر وفاة والده خلال فترة إقامته الطويلة في إسبانيا. وبعد وفاته تطوع باسوس، ذلك الشاب المثقف في الجيش. ولكنه لم يتطوع كجندي، بل كسائق سيارة إسعاف بإحدى الوحدات الصحية التي تُمول من قبل مؤسسة خيرية. وكان ذلك كفيلا ليعايش باسوس تجارب الحرب بشكل مباشر. ومما كتبه في هذا الصدد بتاريخ ٢٣ آب/ أغسطس ١٩١٧ ضمن رسالة إلى صديقه رمزي مارفن: „إنه لمثير للتعجب، كيف يمكن لكم هائل من القنابل أن ينفجر من حولك دون أن يصيبك منه شيء." إن أولى روايات باسوس، «مبادرة رجل واحد»، تعد رواية قصيرة، حيث أنها لا تتعدى المائة صفحة وتكاد تكون مجزأة. إلا أنها على الرغم من ذلك تجسد لنا الانتهاكات والصراعات المضنية والوحشية البالغة، بأقصى واقعية ممكنة. إنها ليست رواية تقليدية بل نوع من التقارير الأدبية الحية من ساحة الحرب، تتمحور أحداثها حول لقطات ومسارات صوتية لم تخلو، بل تجلت فيها بوضوح تأثير تقنية المونتاج. ولقد استعان دوس باسوس في تقارير رحلاته السابق ذكرها بتقنيات مماثلة استمدها من أعمال أدبية رائدة، وأجادها إلى حد البراعة في رواياته الكبيرة. تلك الروايات التي أرست قواعد شهرته: «تحول مانهاتن» (١٩٢٥) وثلاثية «الولايات المتحدة الأمريكية» (١٩٣٠-١٩٣٦).

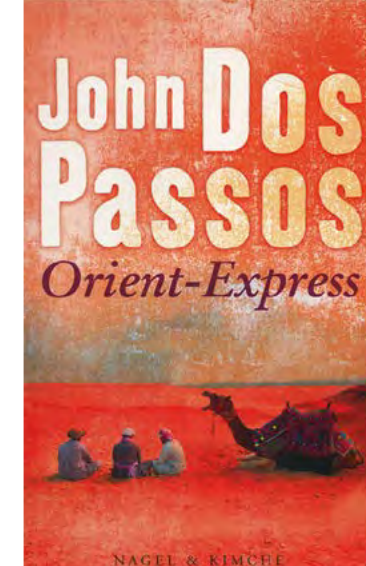
لقد كره دوس باسوس الحرب، وكان في النصف الأول من حياته من أشد المناهضين للنظام الاجتماعي الذي بدا له أنه المتسبب فيها، ألا وهو الرأسمالية. وعلى الرغم من ذلك كتب من جبهة القتال إلى صديقه رمزي مارفن في ٢٩ آب/ أغسطس ١٩١٧ قائلا: „أنا أكثر سعادة هنا، إنها تغمرني حقا، سعادةٌ، لم أشعر بها منذ زمن طويل." ولعلنا نظن من الوهلة الأولى أن ثمة تناقض صارخ بين رأي باسوس وقوله في الخطاب. إنه يجسد الحرب كمناورة تقليدية (يصفها في إحدى خطاباته بتاريخ ٢٣ آب/ أغسطس ١٩١٧: „حماقة لعينة إلى أبعد الحدود، خلايا سرطانية ضخمة تتغذى على الأكاذيب")، وعلى الرغم من ذلك يزعم، وهو الذي عايش الحرب بشكل مباشر، أنه لم يشعر أبدا بمثل هذه السعادة؟ يتعين على المرء التفكير قليلا للوصول إلى العامل المشترك الذي يجمع بين هذين الموقفين. إنه شعور بالضيق إزاء الحداثة والحضارة، ويتجسد لنا بوضوح من خلال تقارير الرحلات المعنية، والتي يمر عليها مائة عام عما قريب. وبأسلوب مشابه لخطاب ١٩١٧ الذي سبق الإشارة إليه، يصف باسوس شعوره أثناء رحلة القافلة من بغداد إلى دمشق «اليوم السابع عشر»، قائلا: „لم أكن أبدا بمثل هذه السعادة". إننا لنتعجب إذا ما سمعنا هذا الوصف عن الحرب، ولكننا نصدقه على الفور إذا ما وُصفت به الصحراء.

أسفار عديدة لقد بدأت خبرة جون دوس باسوس مع السفر منذ طفولته، تلك التي وصفها فيما بعد بأنها „طفولة غرف الفنادق". حيث قضى دوس باسوس طفولته ما بين غرف الفنادق في بروكسل ولندن وفيسبادن وباريس، وكانت اللغة الأولى التي نشأ بها هي الفرنسية. وكان والده، جون راندولف دوس باسوس هو من يتكفل بأسفاره. ويُذكر أنه كان يعامل والدة دوس باسوس بمثابة الزوجة الثانية، فلم يكن يراها بشكل منتظم، بل خلال رحلات عمله إلى أوروبا في المقام الأول. وبعد حصوله على مجموع متوسط في دراسة اللغات الأوروبية وآدابها بجامعة هارفارد، (حيث عقد عدة صداقات من بينها مع إدوارد إ. كيومينجز) سافر في عام ١٩١٦ على مدى أربعة أشهر عبر إسبانيا. وإن المقالات وقصص الرحلات التي نشأت إبان تلك الفترة والتي كُتبت في الأصل من أجل الصحف الأمريكية، تحولت مجتمعة إلى أولى أعماله من أدب الرحلات: „Rosinante to the Road Again" (عودة روسينانت إلى الطريق مرة أخرى، ١٩٢٢).

إلا أن تقريره حول رحلته إلى المشرق يفوق في جودته كتاب إسبانيا بمراحل: فإضافة إلى قيمته الأدبية، يعد هذا العمل دليلا فريدا من نوعه على ما أحدثته الحرب العالمية الأولى والثورة البلشفية من اضطرابات في جميع جوانب الحياة في منطقتي القوقاز وشرق البحر المتوسط. إذ أن «المشرق» كما يُطل علينا اليوم في نشرات الأخبار، كان قد بدأ يتشكل في تلك الفترة. ولو كان قد قام بتلك الرحلة (هما في الواقع رحلتين، الأولى عام ١٩٢١ إلى الشرق الأوسط، والثانية ١٩٢٦ إلى المغرب) قبل ذلك بأعوام قليلة، لكانت اختلفت كثيرا عن تلك التي نتناولها هنا؛ ولأصبحت الأحاديث والمشاهد والأجواء مختلفة تماما.

وذلك لأن الحرب العالمية الأولى لم تكن قد انتهت تماما في الشرق الأوسط بحلول عام ١٩٢١. فقد اعتزمت القوى الأوروبية المنتصرة، لاسيما فرنسا وإنجلترا، إعادة تقسيم منطقة الشرق الأوسط بأكملها. فبعد أن شاركت الإمبراطورية العثمانية بعد تردد في الحرب كحليف لألمانيا، في نهاية تشرين الثاني/ أكتوبر ١٩١٤، انهارت في عام ١٩١٨. فساندت إنجلترا حركات الاستقلال العربية ضد الحكم العثماني من مصر، التي كانت قد أحكمت السيطرة عليها. ويجدر بالذكر أن الإمبراطورية العثمانية شملت آنذاك ما يُعرف حاليا بالمملكة العربية السعودية وإمارات الخليج وإسرائيل وفلسطين والعراق والأردن وسوريا ولبنان. وفي غمرة تلك الأحداث كان الكولونيل توماس إدوارد لورنس، صاحب الشخصية الأسطورية لورنس العرب،

قد وعد الملك حسين (١٨٥٤–١٩٣١)، حاكم الحجاز بما فيها المدن المقدسة، مكة المكرمة والمدينة المنورة، بحكم دولة عربية عظمى ومستقلة، تخضع حدودها التفصيلية للتفاوض فيما بعد. وكان ذلك في مقابل مشاركته في المعركة ضد العثمانيين. إلا أن إنجلترا وفرنسا اتفقتا سرا، وذلك عبر اتفاق سايكس بيكو (١٩١٦) في البداية، على تقسيم الشرق الأوسط إلى منطقتي مصالح دون إيلاء أي اعتبار لرغبات العرب. ثم جاء تدخُل الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون من خلال «نقاط باريز الأربعة عشر»، حيث وعد شعوب الشرق الأوسط بحق تقرير المصير عقب انتهاء الحرب ـ أو على الأقل بـ „فرصة خالية من العوائق للتنمية المستقلة“. أيا كان معنى ذلك.



غلاف كتاب:
قطار الشرق السريع
جون دوس باسوس
الصادر عن دار:
Nagel & Kimche Verlag,
Zürich 2012.

النفوذ السياسي للغرب إضافة إلى تلك الجوانب الغامضة، لم تكتفي بريطانيا بدعم الملك حسين فحسب، بل ساندت كذلك أقرب منافسيه في شبه الجزيرة العربية، الملك عبد العزيز بن سعود (١٨٨٠–١٩٥٣). وشغل الكابتن وليم شكسبير منصب ضابط اتصال لدى الملك عبد العزيز بن سعود، فيما كان توماس إدوارد لورانس ضابط اتصال لدى الملك حسين. وقد وصلت أنباء انتصار بن سعود في المملكة العربية السعودية، كما عُرفت فيما بعد تيمنا به، إلى دوس باسوس في اليوم السادس عشر من رحلة قافلته إلى دمشق („يبدو أن القتال قد توقف في نجد“). وفي هذه الأثناء تم تنصيب أبناء الأمير حسين، الذي يسانده لورانس، حكاما على سوريا (الأمير فيصل، مواليد ١٨٨٥ ويُذكر كثيرا في رحلة القافلة) وعلى إمارة شرق الأردن (عبد الله، ١٨٨٢–١٩٥١) وذلك بمباركة قوى الانتداب. إلا أن فيصل، على الرغم من كونه هو الآخر غريبا على البلاد، قد تمرد ضد الهيمنة الفرنسية وطُرد من سوريا (قارن ما كُتب في اليوم السابع والثلاثين من رحلة القافلة: „أناس من أنصار فيصل يتآمرون في باحات سرية ضد الفرنسيين“). وعلى سبيل „التعويض“ اتجه البريطانيون إلى تنصيبه ملكا على العراق (من ١٩٢١ وحتى وفاته في ١٩٣٣) حيث تعّين على البريطانيين مواجهة الثورات.

وفي هذا الصدد ينبغي علينا أن ندرك أن تلك البلدان لم تكن أبدا دولا تفصلها حدود صريحة أو حتى مقاطعات إدارية قائمة بذاتها. وإن تلك الحدود التي رسمتها كل من إنجلترا وفرنسا، والقائمة في معظمها حتى الآن، كانت اصطناعية ولازالت تعتبر كذلك من قبل معظم سكان المنطقة. إذ فصلت بشكل تعسفي بين مناطق طبيعية تنتمي معا وتجمع بينها روابط تاريخية منذ أزمان طويلة، وقطّعت الروابط العائلية والعلاقات التجارية، وتعارضت بشكل صارخ مع نمط الحياة البدوي لكثير من سكان المنطقة. وربما قد لاحظ القارئ بالفعل أن دوس باسوس قد سافر من دمشق إلى طهران دون جواز سفر أو وجود نقاط لمراقبة الحدود. وإنه كان بإمكانه في ظل هذه الظروف أن يصل حتى غزة، إذا ما رغب في ذلك ـ وهو أمر لا يسعنا إلا أن نحلم به في يومنا هذا، أي أن يجوب المرء الشرق الأوسط بهذه السهولة!

ولم يختلف وضع إيران عن البلدان العربية كثيرا وإن اختلفت الأسباب التاريخية. ففي القرن التاسع عشر شهدت إيران صراعات بين بريطانيا وروسيا والإمبراطورية العثمانية سعيا لكسب النفوذ. وعلى الرغم من موقف إيران المحايد إبان الحرب العالمية الأولى، إلا أن معارك القوى العظمى امتدت حتى الأراضي الإيرانية. وباندلاع ثورة أكتوبر انسحب الروس من إيران، وانهزم فيها العثمانيون بعد ذلك بعام. وتولى قائد لواء القوزاق الموالي لبريطانيا، رضا خان، زمام السلطة. ويجدر بالذكر أن رضا شاه قد أدخل على إيران إصلاحات جذرية على غرار إصلاحات أتاتورك في تركيا. وفي عام ١٩٢٥ تُوج رضا خان شاهاً على البلاد. أما ابنه، محمد رضا، فقد أسقطته الثورة الإسلامية في عام ١٩٧٩ بقيادة آية الله الخميني. إزاء هذه الخلفية التاريخية تعد تحفظات الحكام ضد الإنجليز غير مفاجئة بالمرة. إلا أن المثير للدهشة، وإن لم يكن منذرا بالخطر، هو مدى تشابه المواقف السياسية في الشرق والغرب بين الماضي والحاضر.

في تركيا إن معالم التاريخ تتجلى خلال النصف الأول من الرحلة بصورة تتفوق في وضوحها على وصف تلك الفترة التي سافر فيها دوس باسوس من طهران إلى دمشق. فقد وصل باسوس إلى المدينة في صيف ١٩٢١ وكان يبلغ من العمر خمسة وعشرين عاما. وكانت طبيعة سكان اسطنبول في تلك الفترة من شأنها أن تُثير التعجب! جنود الحلفاء وأسرى الحرب من الروس وقوات الدرك الإيطالية وسكان من اليونانيين، ما بين ضباط وسيدات مسنات يتسمن بالعجرفة، ودبلوماسيون من أذربيجان وجواسيس من أرمينيا ـ بدا أن الأتراك هم الأقلية، ولذا لم يكن لهم أي صوت مؤثر. فقد أخضع الإنجليز اسطنبول في عام ١٩٢٠ إلى قانون الحرب، ولم يكن واضحا في جميع الأحوال أيٍّ من الجهات الفاعلة في الشرق الأوسط سوف تستحوذ عليها في النهاية. مع العلم بأن الدولة التركية آنذاك كانت أبعد المرشحين في الأفق. تلك الدولة التي جاهد مصطفى كمال (أتاتورك)، سويا مع ضباط عثمانيين آخرين في

الأناضول، للحفاظ على استقلالية الجزء المتبقي منها، واتخذ أنقرة مركزا جديدا للبرلمان التركي أو ما أُطلق عليه «الجمعية الوطنية الكبرى». إلا أن ما نجح الأوروبيون في تحقيقه فيما يخص الشرق الأوسط العربي، فشل فشلا ذريعا في تركيا التي تحددت حدودها الحالية بمقتضى معاهدة لوزان عام ١٩٢٣ ـ وأصبحت مستقلة.

إن تلك الأوضاع المضطربة لم تسُد منطقة البوسفور فحسب، بل كانت سمة مشتركة بين باقي العواصم التي زارها دوس باسوس في تلك الرحلة. فلقد أبحر باسوس بعد ذلك بالسفينة إلى باطومي على الساحل الشرقي للبحر الأسود. إذ كان السفر عن طريق البر عبر الأناضول بالكاد ممكنا، بسبب الحرب التي اندلعت بين القوات التركية وقوات الحلفاء. فكان السفر برا شديد الخطورة في جميع الأحوال. وعلى الرغم من انتهاء الحرب في أرمينيا وجورجيا وأذربيجان إلا أن نتائجها المدمرة لم تلبث أن تجلّت بوضوح.

ففي أعقاب الحرب العالمية الأولى كانت الأوضاع الغذائية في جميع أنحاء الشرق الأوسط غير مستقرة، وتفاقمت حدتها بشكل كارثي في جمهوريات القوقاز نظرا للمجاعة التي اجتاحت باقي أجزاء الاتحاد السوفيتي. وقد أسفرت تلك المجاعة عن وفاة أكثر من خمسة ملايين نسمة ما بين عامي ١٩١٨ و ١٩٢٢ في المناطق الخاضعة لحكم البلاشفة. وعكف دوس باسوس على تسجيل الخراب والدمار الذي لحق بجوانب الحياة التقليدية القديمة وكذا حالات البؤس والمجاعات. ولكنه امتنع عن التقييم. كما أن المعارف والنتائج التي استخلصها مما رآه لم تكن ذات طابع أخلاقي أو سياسي بل بالأحرى فلسفي وأنثروبولوجي (مع العلم أن دوس باسوس قد سجل لفترة وجيزة في عام ١٩٢٢ لدراسة الأنثروبولوجيا بجامعة السوربون في باريس). ففي باطومي تمحورت تأملات دوس باسوس حول «شفق الأشياء» (The Twilight of Things). أشياءٌ قد فقدت قيمتها ومغزاها، ولكنها تشكل وجود الإنسان بأكمله (هنا يفكر المرء تلقائيا في مصطلح «العدة» لهايديغر). وجد دوس باسوس تلك الأشياء في مخزن رجل مسن، أو «الراعي الأخير للأشياء» على حد وصفه، بالقرب من الميناء. وبدت وكأنها لوحة «فانيتاس» (الفناء) التي تعكس ضياع أولئك البشر في مواجهة عهد جديد. ربما يرى المرء أن دوس باسوس قد استخدم هذه التأملات الفلسفية ليقي نفسه من هول ما يرى؛ وذلك بأن تجعل منه مراقبا شديد الهدوء وتمكنه في الوقت نفسه من مواصلة المشاهدة بجرأة.

دور المسافر كوسيط تنطوي تلك النظرة الحيادية على البذور الأولى لاثنتين من الإيديولوجيات المختلفة اختلافا جذريا: طالما تساءل دوس باسوس والمعاصرون له ما إن كان المرء شاهدا وضحية لنقلة نوعية حضارية، أي للتقدم بمختلف أنواعه؟ أم أننا نُسحق بلا جدوى من قبل تاريخ يدور في دائرة مفرغة؟ وإن أحد نقاط القوة في تقرير الرحلة، هو عدم البت في تلك المسألة وإبقاؤها مفتوحة، حتى نطرح على أنفسنا كقراء هذا التساؤل في يومنا هذا.



جون دوس باسوس
في جامعة هارفارد ١٩١٦
من كتاب:
Harvard Year Book.
By permission of the
Houghton Library,
Harvard University.

ومن الناحية الأدبية يعد هذا التقرير عملا رائدا ولازال من شأنه أن يكون قدوة لكتُّاب أدب الرحلات في عصرنا الحالي. فحين يروي دوس باسوس عن اغتيال المبعوث الأذربيجاني في إسطنبول، يطلعنا في الوقت نفسه وبشكل غير مباشر على ملاحقة الوطنيين من أبناء بلدان منطقة القوقاز إلى الخارج، بعد الغزو السوفيتي لها. كما نتعرف على خلفيات عملية الاغتيال من خلال تلك الرسالة التي نشرتها أرملة المبعوث الأذربيجاني في باب «بريد القراء»، والتي يبدو أن دوس باسوس قد اقتبسها حرفيا. أي أن ما ينعكس هنا هو صوت الشخص المعني. فلم يعد دور المسافر يتعدى الوسيط.

وعلى الرغم من ذلك، فإن ذات الراوي لا تختفي من تقرير الرحلة كليا. إذ أنه في سياق القصة يتمحور الحديث تدريجيا وبشكل متزايد حول مشاعر المسافر وحالاته النفسية. ولكن لا يوجد جزء في التقرير يقترب فيه القارئ من الراوي ـ والراوي من نفسه! – كما في الجزء الذي يجسد فيه رحلة القافلة من بغداد إلى دمشق على مدى سبعة وعشرين يوما: „أروع شيء في العالم ألا يمتلك المرء ساعة أو مالا وألا يشعر بالمسؤولية تجاه أي شيء" (اليوم السادس). „لم أشعر أبدا بمثل هذه السعادة" (اليوم السابع عشر). إلا أن مثالية السفر التي يشهدها دوس باسوس على مدى تلك الأيام، قد اصطبغت بالفعل بصبغة حزينة. فهو يعلم أنه يجول في عالم في طور التدهور والسقوط.

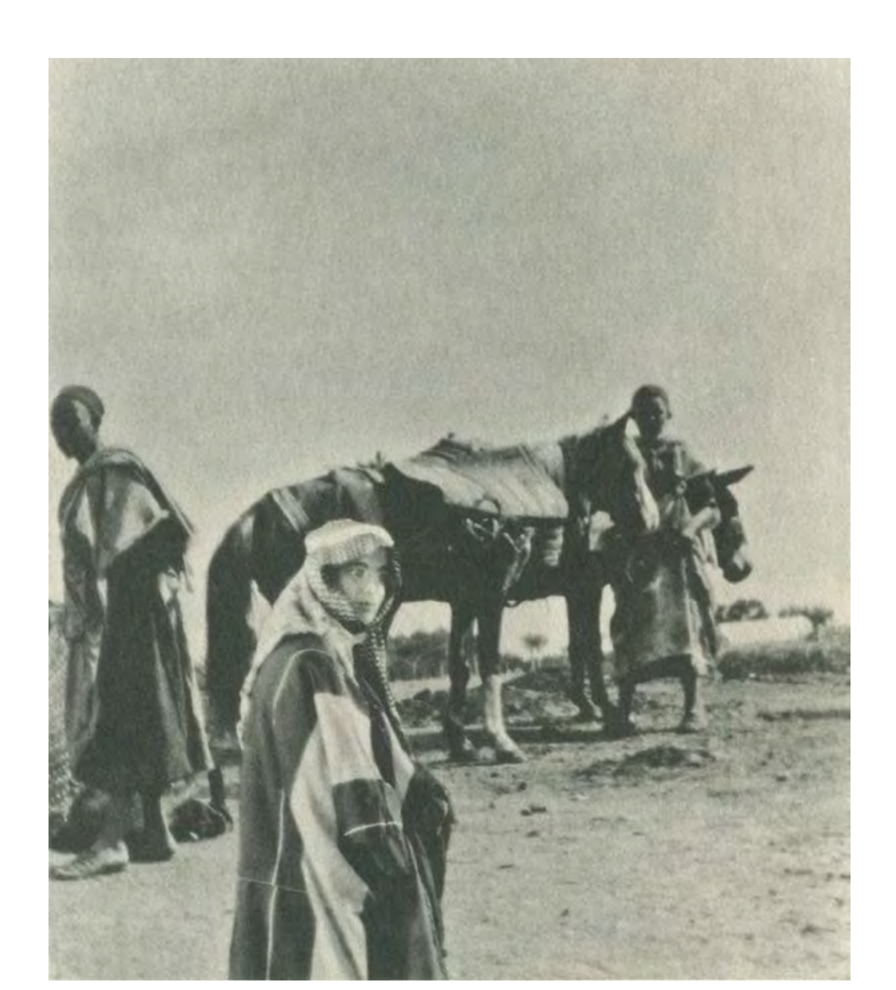
وإنه لم يتبق من ذلك المشرق سوى جزر. ذلك المشرق الذي توقع دوس باسوس نهايته، بل وسنحت له الفرصة ليشهد بداية النهاية بنفسه. فمدخني الحشيش الذين ذكرهم في تقريره، مازال لهم وجود، ولكنهم ليسوا بمثل هذا الاسترخاء كما كانوا من قبل؛ وقوافل الجمال لا تزال ترتحل، ولكن من أجل السياح فقط. أما تلك الكراهية المفهومة تجاه السياسة الغربية والتي يُستشعر بنبرتها في أحاديث السادة، فإن حدتها لم تخف، كما هو معروف. مثلها في ذلك مثل التوغل الغربي الذي يشكو منه الشرق منذ ذلك الحين. كما توقفت سكة بغداد الحديدية، التي لم تصل أبعد خطوطها إلى بغداد قط، وتحولت إلى نوع من المتاحف المفتوحة للمسافرين عبر الصحراء.

أما عن كوننا لا نتوق بشوق لذلك الزمن وكأنه „أيام خوالي"، فهذا ما علّمنا إياه تقرير الرحلة بأسلوبه الذي يتسم بوضوح الرؤية والبعد عن المثالية، والمقدم إلينا من أحد أبرز الأدباء الأمريكيين في القرن العشرين.

شتيفان فايدنر هو رئيس تحرير مجلة «فكر وفن».

رحلة «أورينت إكسبرس» لجون دوس باسوس، متوفر فقط في طبعة تضم أعمالا مختارة للمؤلف في المكتبة الأمريكية (Library of America (LoA) كتب رحلات وكتابات أخرى (Trave Books and Other Writings) ١٩١٦–١٩٤١، نيويورك ٢٠٠٣، صدرت الترجمة الألمانية في عام ٢٠١٢ عن دار نشر Nagel & Kimche.

ترجمة: هبة شلبي



جون دوس باسوس في ثوب عربي من كتاب: John Dos Passos: Orient Express Nagel & Kimche Verlag, Zürich 2012.

■ لم تكن الحرب العالمية الأولى في حد ذاتها حدثا حاسما في شبه الجزيرة العربية كما كانت في القسم الأعظم من أوروبا. ومع ذلك فقد أججت حالة الحرب الخصومات بين القوتين الرئيسيتين آنذاك: الدولة العثمانية والإمبراطورية البريطانية، ما عزز فرص المشايخ المحليين في محاولات تحقيق أطماعهم التوسعية أثناء الحرب عبر التحالف مع هذه القوة أو تلك. إلا أن التطورات المبينة أدناه تحتاج وقتا أطول للإحاطة بمجمل تفاصيلها. ففي الشرق الأوسط، وضمنه شبه الجزيرة العربية، شهد النظام الاقليمي الجديد إزاحات كثيرة لم تنته إلا بأواخر عشرينات القرن الماضي.

شبه الجزيرة العربية أثناء الحرب العالمية الأولى

أضواء على مرحلة التوحيد

أولريكه فرايتاغ ULRIKE FREITAG

قدم الصراع العالمي للمشايخ المحليين فرصة الحصول على مزيد من الاهتمام والدعم ربما ما كان لهم الحصول عليهما في ظروف أخرى. من المرجح هنا أيضا أن الأمر يتعلق بتطورات متعاقبة لتحولات استمرت في منطقة الخليج تحديدا منذ ذروة عهد الإمبريالية. ومرة أخرى أزيحت مراكز ثقل التوازنات الداخلية بزوال الإمبراطورية العثمانية إثر الحرب العالمية الأولى وترسيخ الإمبراطورية البريطانية بوصفها القوة الأجنبية المهيمنة.

النظام السياسي في شبه الجزيرة العربية في عام ١٩١٤ في بداية الحرب العالمية الأولى كان الوضع في شبه الجزيرة العربية على النحو التالي: أطراف واقعة بقليل أو كثير تحت سيطرة خصمين متنافسين، هما الدولة العثمانية والإمبراطورية البريطانية. الأولى تفرض سيادتها على منطقة الحجاز على ساحل البحر الأحمر، بما فيها الحرمين الشريفين، وتعتبر المنطقة المتاخمة جنوبا، اليمن ضمنا، من أراضيها. أما المنطقة الممتدة من عدن إلى عُمان وعلى ساحل الخليج العربي/ الفارسي وحتى الكويت فتتبع لبريطانيا التي تفرض سيطرتها المباشرة أحيانا وأحيانا تعقد اتفاقات مع المشايخ المحليين تقر لهم بحقوق واسعة خاصة في مجالي الدفاع والسياسة الخارجية. وفي كلتا الحالتين ما كان مثل هذا التوسع الإقليمي ممكنا دون معاهدات متعددة الوجوه مع المشايخ المحليين. وهؤلاء كانوا يأخذون مصالحهم الذاتية في عين الاعتبار ويحاولون الحفاظ على أكبر قدر ممكن من مساحة مناورة من خلال علاقات بديلة.

فمحمد الإدريسي، حاكم عسير، المنطقة الجبلية الساحلية الممتدة بين اليمن والحجاز، اتصل بداية بالإيطاليين، ثم اتفق مع البريطانيين عام ١٩١٥ لإنهاء الهيمنة العثمانية على المنطقة والتحوط ضد إمام اليمن الذي كانت له بدوره أطماع في الأراضي ذاتها. وعلاوة على الوالي العثماني في مكة المكرمة كان الشريف، الأمير المحلي، لا يكتفي بالصلاحيات الممنوحة له ويرى نفسه منافسا للعثمانيين رغم كل محاولات الإصلاح الإداري. خلال الحرب العالمية الأولى كان الحسين بن علي شريف مكة الذي عينه العثمانيون عام ١٩٠٨.

في داخل شبه الجزيرة العربية اعتمد العثمانيون قليلا أو كثيرا على أمراء حائل، آل رشيد، شيوخ قبائل شمر الذين اعتبرهم العثمانيون أتباعا لهم بصورة رسمية، في حين لم ير الأمراء في العثمانيين أكثر من حليف قوي. وفي مطلع القرن العشرين ظهر لهم خصم قوي في شخص عبد العزيز بن سعود، الذي كان لاجئا في الكويت، إلا أنه في عام ١٩٠٢ استعاد دوحة الرياض من آل رشيد وبدأ انطلاقا منها وبالتحالف مع القبائل المحلية بالاستيلاء على مناطق أوسع في الداخل. وبهذا بدأ ما يعرف اليوم بتوسع «الدولة السعودية الثالثة»، أي تأسيس إمارة (ومن ثم سلطنة، ومنذ ١٩٣٢ المملكة العربية السعودية) بإمارة آل سعود وتحالف وثيق مع علماء الوهابية بإشراف آل الشيخ.

الحرب العالمية الأولى في شبه الجزيرة العربية اليوم تختلف روايات تاريخ الحرب العالمية الأولى في المنطقة اختلافا بيّنا، حسب زاوية النظر. من ناحية يمكن طبعا اعتماد وجهة نظر المشاركين في الحرب رسميا، وخاصة البريطانيين، والعثمانيين، الذين كانوا يستشيرون الألمان ويعتمدون عليهم عسكريا. وفي هاتين الروايتين نقرأ أقاصيص شعبية عن المآثر العظيمة. أكثر هذه البطولات شهرة هي قصة لورنس العرب، الضابط البريطاني الذي رافق منذ حزيران/ يونيو ١٩١٦ انتفاضة الشريف حسين على العثمانيين، أو ما يسمى في الأدبيات القومية بالثورة العربية الكبرى. إلا أن حكايات الأبطال انتشرت على الجبهة المعادية أيضا، فأحد أعداء الشريف حسين كان القائد العثماني عمر فخر الدين باشا، قائد الحماية العثمانية للدفاع عن المدينة المنورة وسكة حديد الحجاز في وجه قوات الشريف حسين. «أسد» أو «نمر» الصحراء صمد في المدينة ودافع عنها ٧٢ يوما حتى بعد استسلام العثمانيين ولم يتوقف قبل أن يعتقله جنوده ويسلموه إلى البريطانيين المنتصرين. إلا أن حكايات

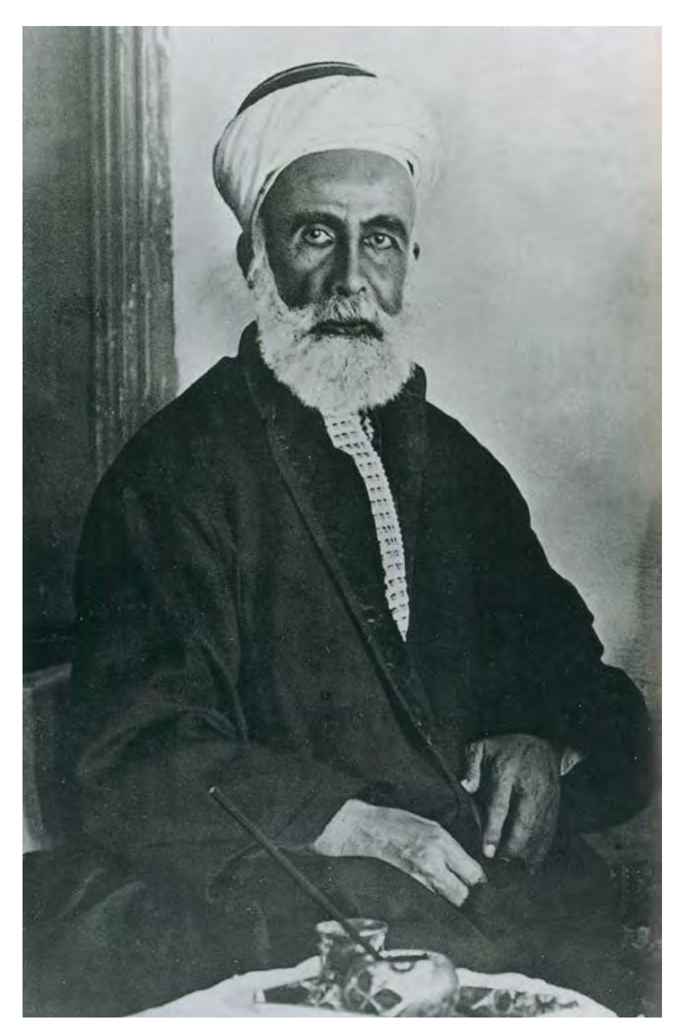
الإمبراطوريات والأبطال تخفي أشياء كثيرة من بينها تناقضات السياسة الإمبريالية فضلا عن معاناة شعوب مناطق الحرب والجنود المرغمين على خوضها. وكذلك تخفي أن الصراعات الإمبريالية الإقليمية، التي يشتد أوارها في حالة الحرب، تفتح أمام المشايخ المحليين خيارات جديدة. وبما أن هدف دراستنا ليس تتبع مصائر الدول الخمس المستقلة، قصيرة العمر، والناشئة في أعقاب الحرب كالحجاز، ونجد، وإمارة آل رشيد، وعسير واليمن، سنحاول أدناه إضاءة هذه المناحي من خلال تسليط الضوء على الصراع المركزي في ذلك الأوان، أي الصراع بين الحكام المحليين في الحجاز ونجد.

«وزارة الخارجية» البريطانية (مكتب القاهرة) ضد «وزارة الهند» (دلهي)؟ من الواضح أن البريطانيين، الذين كانوا يحاربون حلفاء الألمان العثمانيين في شمال إفريقيا والشرق الأوسط، كانوا يبحثون عن حلفاء محليين وخاصة إذا انضوت أهداف هؤلاء تحت أهداف الحرب العليا. فعلى أعتاب الحرب تنادى في بلاد الشام ومركزها دمشق القوميون العرب راجين أن تحل الدولة العربية الكبرى محل الحكم العثماني بمساعدة شريف مكة. هؤلاء كانوا في البداية قلة قليلة، إلا أن تجربة الحرب سرعان ما ساهمت بالفعل في تقويض الشرعية العثمانية. تميزت تلك الفترة بحشود ضخمة للشباب الذين أرسلوا إلى الجبهات الأمامية وسقطوا صرعى الحرب أو الأوبئة، وظهور اقتصاد الحرب، حصار البحرية البريطانية لسواحل العدو ونقص المواد الغذائية تبعا له، وكذلك الاستبداد المريع لكل علامات التصدي للنفوذ العثماني.

في مكة المكرمة لم يتأثر فقط موسم الحج في شتاء ١٩١٤ ـ ١٩١٥ بالحرب، بل إن الحصار البحري البريطاني لقطع طرق إمداد القوات العثمانية أيضا، أرغم أشراف مكة على التفاهم مع الحاكم العثماني لتأمين الإمدادات الغذائية.

كان لشريف مكة غاياته الخاصة، ألا وهي تأسيس دولة عربية كبرى في المشرق العربي يكون ملكا عليها. وهذا ما أشار إليه في مراسلاته السرية إلى الممثل الأعلى لبريطانيا في مصر المحتلة، هنري مكماهون، طوال ١٩١٥ ـ ١٩١٦. لكن مكماهون كان حذرا بما فيه الكفاية للتحفظ على عدة أمور تتعلق بمصالح الحكام المحليين، المتحالفين بدورهم مع بريطانيا، وكذلك بالأطماع الفرنسية المحتملة في سوريا. إلا أنه من المرجح أن الشريف حسين لم يكن مطلعا بالإطلاق على تفاصيل المباحثات الفرنسية البريطانية كما صيغت في اتفاقية سايكس بيكو، السرية بدورها، عام ١٩١٦. ونظرا إلى الهزائم البريطانية حاول الشريف العودة إلى العثمانيين وعرض عليهم الدعم العسكري مقابل منحه حكما ذاتيا موسعا على المناطق العربية التي يطمح إليها. إلا أن الوالي العثماني في سوريا اعتبر هذا محاولة ابتزاز ودليلا على خيانة الشريف حسين. وعليه دعا الشريف في حزيران/ يونيو ١٩١٦ إلى الثورة تلافيا للهجوم العثماني الوشيك.

قبل هذه المجريات بوقت طويل كان عبد العزيز بن سعود خصما صريحا للشريف حسين. يعزى ذلك إلى أطماع ابن سعود التوسعية في شبه الجزيرة العربية. ولهذا لم يكن لمكة المكرمة والمدينة المنورة قيمة ورمزية عليا باعتبارهما الحرمان الشريفان فقط، بل إن ابن سعود كان يطمع أيضا في مداخيل مواسم الحج الهائلة (التي انخفضت بحدة



الشريف حسين بن علي قائد الثورة العربية الكبرى Photo: Imperial War Museum, London.

خلال الحرب بسبب الحصار وقيود أخرى على الطرق البحرية)، فهي على الأقل كانت دخلا سنويا يتحدى كل عوامل الطقس في الإمارة العربية الداخلية التي تعاني الجدب والجفاف مرارا وتكرارا. كما كان لعلماء الوهابية ومجاهديها الداعمين له دوافعهم لغزو الحرمين الشريفين، فهم يأنفون من عبادة القبور ويودون القضاء عليها، وقد هدموا خلال التوسع السعودي الأول في الحجاز (١٨٠٣) الأضرحة والمساجد درءا لما يعتبرونه وثنية.

المثير في الأمر أن البريطانيين نظروا بداية إلى ابن سعود بعين العطف معتبرين إياه حليفا للكويت وقدموا له النصح عدة

مرات حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى. يعود هذا جزئيا إلى اختلاف المصالح بين وزارة الهند المعنية بمنطقة الخليج وبين المكتب العربي في القاهرة التابع لوزارة الخارجية والمختص بمصر والمشرق. وهذان كانا الأهم بين عشرين مؤسسة بريطانية مكلفة بحماية المصالح البريطانية في المنطقة.

توسع مجال نفوذ ابن سعود مع اندلاع الحرب العالمية الأولى اقترح ابن سعود على حكام الكويت وحائل ومكة عقد تحالف مشترك مع القوات الأوروبية بغية عدم التورط في أحداث الحرب والحفاظ على استقلاليتهم. وعندما لم يتحقق ذلك بسبب اختلاف المصالح بدأ التفاوض المباشر مع البريطانيين، الذين أسعدتهم خصومته لأمير حائل، حليف العثمانيين كما ذكر أعلاه.

الاتفاق الذي وقع عام ١٩١٥ وصادقت عليه حكومة الهند البريطانية في تموز/ يوليو ١٩١٦ في سيملا يضمن لابن سعود مناطق نجد، الإحساء، القطيف، جبيل وملحقاتها مقابل تعهده بعدم الاتصال مع قوى ثالثة أو منحها امتيازات دون موافقة البريطانيين. وبالمقابل تعهد ابن سعود بعدم الاعتداء على الكويت، البحرين، قطر وعمان. هذه المعاهدة، التي تعتبر بحكم الوصاية عمليا، زُينت لابن سعود بالمعونات المالية الدورية والأسلحة، لكنها لم تتطرق بكلمة واحدة إلى حدود أراضيه الغربية.

بعد إعلان الشريف حسين نفسه ملكا للعرب، بات صعبا على البريطانيين الحيلولة دون نزاع مكشوف بينه وبين ابن سعود، الذي كانوا يحرضونه، خاصة على مهاجمة أمير حائل، لكي يكبحوا جماحه في اللحظة الأخيرة قبل النصر المحتم. إلا أن تردد ابن سعود انتهى عشية الحرب العالمية الأولى، فقد غزا حائل عام ١٩٢١، الأمر الذي أدى إلى مشاكل عظيمة على الحدود مع البريطانيين، الذين كانوا في هذه الأثناء منتدبين على العراق والأردن.



آثار في منطقة الدرعية قرب الرياض Photo: Stefan Weidner

بين ١٩٢٠ و ١٩٢٦ غزت قوات ابن سعود عسير، التي كانت قد فقدت قيمتها بالنسبة للبريطانيين وأرغمها ابن سعود على توقيع اتفاق حماية، يشبه اتفاقات الحماية البريطانية. بسبب عداوته لـ «النظام الجديد» الذي فرضه البريطانيون والفرنسيون وبسبب التوسع الاستعماري في الشرق الأوسط، خسر الشريف حسين حظوته لدى البريطانيين، الذين كانوا قد اعترفوا به ملكا على الحجاز فقط. وبدوره تضاعف سخط أهل الحجاز على نظام الأشراف الذين باتوا يرونه رمزا للاستغلال. وبعد أن تولد لدى ابن سعود الانطباع بأن بريطانيا العظمى لن تتدخل، قرر عام ١٩٢٤ الهجوم على الحجاز، هذا الهجوم الذي بدأ بالاحتلال الدموي لمدينة الطائف عام ١٩٢٤ وانتهى عام ١٩٢٥ مع استسلام المدينة المنورة وجدة.

الحرب العالمية الأولى، وهزيمة الدولة العثمانية، والنظام الجديد في الشرق الأوسط برعاية فرنسية وبريطانية، كل هذا يمثل في الواقع إطارا هاما للتغيرات في شبه الجزيرة العربية. لكن هل يمكن اعتبار التوسع السعودي نتيجة للسياسة الإمبريالية البريطانية في المقام الأول، كما يزعم أحد الكتاب؟ علينا بالأحرى أن نضع هذا في إطار شبكة معقدة من التفاعلات بين مختلف المصالح العربية والبريطانية. طبعا كان من المحتمل تماما انتصار الشريف حسين في الصراع المحلي لو توافرت ظروف مختلفة. لكن من الملفت أيضا، من وجهة نظر سعودية، أن دور اللاعبين المحليين يبرز على حساب السياق الإمبريالي الذي يضيع كليا في الخلفية. أما في الواقع فيفضل هنا فهم سياق الحرب العالمية على أنه ظرف سنح للمشايخ المحليين، ومكنهم من تشكيل تحالفات جديدة لتحقيق الأطماع السياسية الذاتية. وأما أن يكون لهذه الأطماع حدود تقف عندها، فيلاحظ في مشاكل الحدود العراقية السعودية، ففي واقع الأمر رسم تلك الحدود المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي، سير بيرسي كوكس.

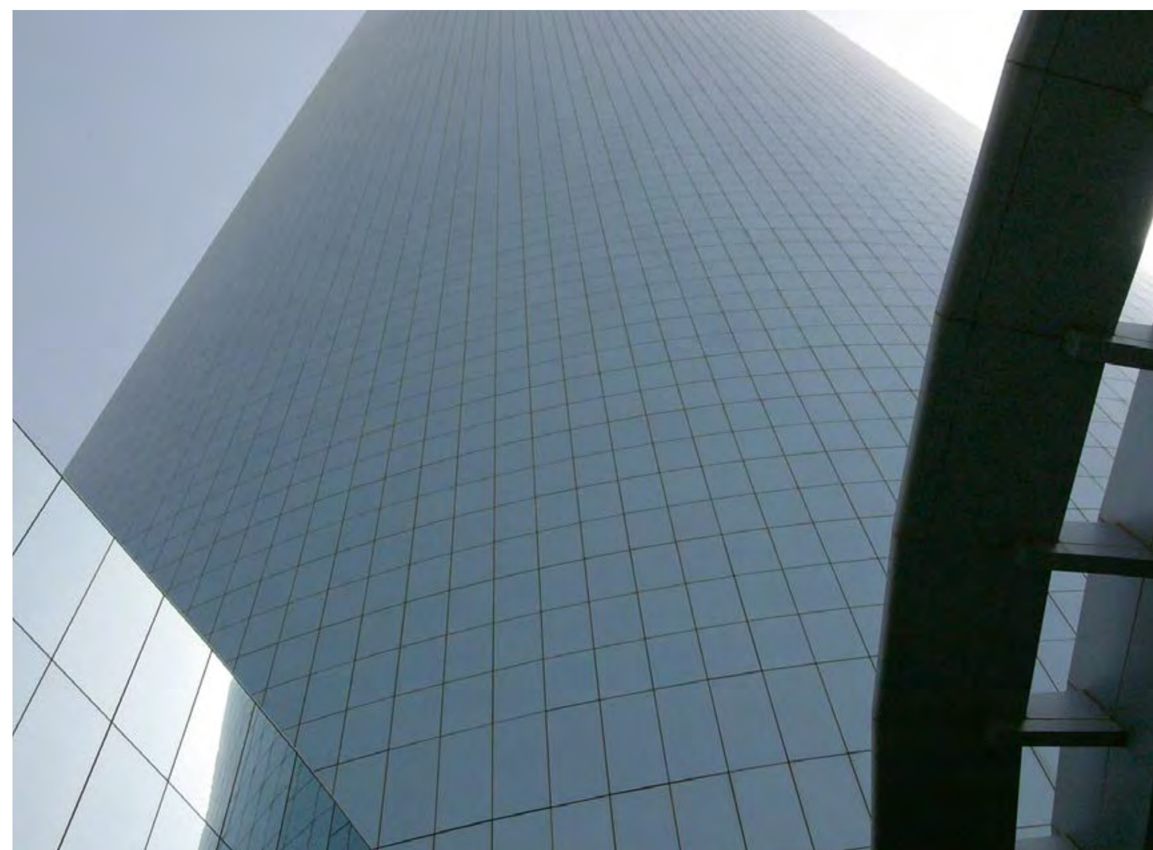
محنة السكان وسيلة للضغط في مراسلاته مع مكماهون طالبه الشريف حسين علاوة على السلاح والذخيرة بكميات غير قليلة من الأغذية: ٢٠ ألف كيس رز، ١٥ ألف كيس طحين، ٣٠٠٠ كيس شعير و ١٥٠ كيس قهوة وسكر. جاءت هذه المعونات الغذائية الشاملة نتيجة للحصار البحري الذي فرضته بريطانيا العظمى على الأراضي العثمانية، ما أدى إلى ارتفاع أسعار المواد الغذائية بشكل حاد في المناطق المحاصرة في النصف الثاني من عام ١٩١٥ بعد استنفاذ مخزون الحبوب المحلية وانتشار المجاعة الكارثية بين عامي ١٩١٦ و ١٩١٨. في هذه الأثناء كانت شبه الجزيرة العربية تعتمد كليا على الواردات. وكان للحجاز امتيازات خاصة حيث كان العثمانيون معنيون بتأمين المعونات حرصا على مواسم الحج والولاءات المحلية في الحرمين الشريفين. بل إنهم أخرجوا لهذا احتياطات حيوية من سوريا وحاولوا الحصول على المزيد من الحبوب من اليمن.

المستشرق النمساوي ألويس موزيل، الذي زار القبائل العربية مرتين في مهمة رسمية لإقناعها بعدم التعاون مع البريطانيين، يذكر الحصار البريطاني المضروب على سواحل البحر الأحمر بنهاية عام ١٩١٦: „بما أن المواصلات توقفت جزئيا بسبب ضرب سكة حديد الحجاز (على يد المتمردين العرب) والمعونات الغذائية قليلة، كان سكان الساحل يعانون المجاعة ومرغمين على الاستجابة لطلبات الانجليز والإقرار بحسين ملكا لهم ... وتسهيلا لوصول المعونات الغذائية أخليت المدينة من الأهالي في ربيع ١٩١٧ ولم يبق فيها سوى القوات العثمانية، المزودة بالغذاء والسلاح لثلاث سنوات تقريبا". ما يسرده موزيل يدعم تفسير شاتكوفسكي - شليشر السابق للأوضاع في سوريا، حيث أن انتصار الكثير من العرب لبريطانيا كان لأسباب مادية وجودية بحتة.

بينما تم إخلاء مناطق كثيرة من سوريا المهددة بالمجاعة، يبدو أن آخرين تركوا لمهب الريح والترحال. في سيرة محمد عيسى عبد الوهاب صفرجي نقرأ صورا عن المجاعة التي كان يعانيها النازحون: „وفي عام ١٣٣٤ هـ بدأت الثورة العربية وتحرك الأشراف فقام فخري بترحيل أهل المدينة بعد أن استولى على الأرزاق ... فسافر معظم أهل المدينة إلى الخارج ولم يكن الوالد وأمه وأخته يملكون ما يسافرون به فأرسل إليهم أحد الخوال رسولا من مكة لمساعدتهم على السفر وسافروا مع بعض الركب قاصدين مكة وكان الطريق مليئا بالجيش العثماني المتمركز على رؤوس الجبال وعلى الطرقات ... واضطر الركب للتمويه في السفر متجها إلى (ملل) ومنها إلى الفريش وواجهوا في هذه الرحلة أهوالا ومتاعب من فقر وجوع وظمأ حتى أنهم وجدوا في الطريق بقايا أحد الجمال الميتة فقطعوا منه وأكلوا من شدة الجهد والمسغبة". ومرة أخرى أنقذهم بدوي رق لحالهم وتقاسم معهم بعض طعامه. وفي ينبع وجدة ساعدهم الناس للوصول إلى مكة، لكنهم هناك سرعان ما „أصبحوا حملا ثقيلا على خاله خاصة وأن أحوال الجميع كانت ضعيفة".

أولريكه فرايتاغ باحثة ألمانية معروفة ومديرة مركز الشرق الحديث (ZMO) في برلين.

ترجمة: كاميران حوج



برج المملكة في الرياض
Photo: Stefan Weidner

■ تعد سوريا الحديثة دولة فتية ظهرت إلى حيز الوجود منذ نهاية الحرب العالمية الأولى، وكان لها لحد ما الحدود الحالية ذاتها. وقد استقلت تماما في عام ١٩٤٦. يتسم تاريخ سوريا في القرن العشرين بالهيمنة الأجنبية والتشكل الصعب للهوية السورية المرتبط بمسألة وحدة الأراضي والوحدة الوطنية. وعلى خلفية الأحداث الجارية في سوريا يلعب العلويون وتأسيس دويلة مستقلة لهم تحت حكم الانتداب الفرنسي بعد الحرب العالمية الأولى دورا ذا أهمية خاصة.

فرق تسد

تأسيس الدولة العلوية بعد الحرب العالمية الأولى

نجاتي ألكان NECATI ALKAN

مع انهيار الإمبراطورية العثمانية مع نهاية الحرب العالمية الأولى ١٩١٨، تنافس حلفاؤها على السيطرة على ولاياتها. غزت فرنسا ولاية سوريا (سوريا الحديثة، ولبنان ولواء إسكندرون/ هاتاي في تركيا) في عام ١٩٢٠ وفي العام نفسه أقرت عصبة الأمم بالانتداب الفرنسي على المنطقة التي تضمنت أيضا الأراضي الواقعة خلف اللاذقية، أي أراضي النُصيريين (العلويين) على الساحل الشرقي للمتوسط والتي كانت منذ قرون المستقر الأساسي لهم.

وينتمي العلويون الذين يتحدثون العربية (كان العثمانيون والأوروبيون يطلقون عليهم «النُصيريين» في السابق)، إلى طائفة خارجة لها جذور في الإسلام الشيعي. وقد عاشوا عبر القرون في سوريا العثمانية وحافظوا على سرية معتقدهم بالعيش منعزلين بسبب خوفهم من اضطهاد المتشددين السُنة.

من النصيريين إلى العلويين غير العثمانيون، الذين غزوا سوريا في عام ١٥١٦، مسلكهم السلبي منذ البداية تجاه النصيريين بدرجة كبيرة اعتبارا من منتصف القرن التاسع عشر. وكان تدخل القوى الأوروبية في السياسة العثمانية الداخلية أحد العوامل التي أسهمت في ذلك. أُرغمت الدولة العثمانية على الاعتراف بالنُصيريين كطائفة دينية لها حقوق. وثمة عامل آخر دفع الإدارة العثمانية إلى الاقتراب أكثر من النصيريين وهو توسع النشاط التبشيري للبروتستانت الإنجليز والأمريكيين لدى الطوائف الإسلامية الصغيرة. أرغم اختراق البعثات التبشيرية للنصيريين السلطان عبد الحميد الثاني (حكم ما بين عامي ١٨٧٦-١٩٠٩) على دمجهم في جماعة المسلمين وتقريبهم إلى المذهب الحنفي، أحد مذاهب الفقه السني الأربعة. وكان بناء المساجد والمدارس في منطقة النصيريين وفي المناطق الأخرى التي توجد بها طوائف مشابهة يهدف لتحويل «الزنادقة» إلى رعايا طيبين وموالين. ورغم أن الوثائق العثمانية الرسمية تذكر تحول الآلاف من هؤلاء إلى الإسلام السني، فإن «المشروع الحضاري» لعبد الحميد لم يكلل في نهاية المطاف بالنجاح. وفي الاتجاه نفسه لم تحقق البعثات التبشيرية التي حاولت تأسيس نظام اجتماعي جديد على قاعدة المعتقد الألفي السعيد، نجاحا يستحق الذكر في تغيير معتقد المسلمين الخوارج. في المقابل مر النُصيريون بعملية تحول جمعي خلال هذه العصور التي اختاروا فيها أن يسموا أنفسهم «العلويين» (بالتركية Aleviler). إنني أفترض أن التغير في توصيف أنفسهم هو جزء من عملية اجتماعية - سياسية للانفصال عن الإمبراطورية العثمانية خلال العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر قبل انهيارها التام.

لا شك في أن اسم «العلويين» أصبح مقبولا بعد الحرب العالمية الأولى مع دولة «العلويين» قصيرة الأجل التي تأسست تحت الانتداب الفرنسي كمنطقة تخضع لحكم شبه ذاتي ولاحقا كجزء من الاتحاد السوري. ومن المعروف أن العلويين أصبحوا طائفة مهيمنة بفضل الفرنسيين الذين حاولوا مواجهة الهيمنة السنية في سوريا. تشير نتائج البحث هنا إلى أن العلويين كانوا قد جُهزوا لهذا الدور مع التوتر الذي ساد بين العثمانيين والقوى الغربية.

قوى الانتداب في سوريا بعد الحرب العالمية الأولى انتهى الحكم العثماني بهزيمة الإمبراطورية وتفككها التام في نهاية الحرب العالمية الأولى. وقسمت بريطانيا وفرنسا، كمنتصرتين، الولايات العربية حسب مصالحهما. وقد كان ما يُعرف اليوم بسوريا ولبنان والأردن وفلسطين وإسرائيل، منطقة جغرافية تسمى «سوريا الكبرى» وقد رُسمت حدودها بشكل مصطنع

وفرضتها القوى الأوروبية ضد إرادة سكان المنطقة. كان الهدف هو استغلال الاختلاف الديني والطائفي والعرقي وتطبيق مبدأ «فرق تسد». أتاحت الحرب العالمية الأولى لفرنسا وللمرة الأولى دون انتصارات عسكرية المجال لفرض هيمنتها ووصايتها على المنطقة التي وُسمت بـ «الشرق الأوسط». وتعود رغبتها في الفوز بالسلطة والأرض في الشرق الأوسط إلى الأعوام السابقة على الحرب العالمية الأولى مباشرة، عندما بدأ تفكك الدولة العثمانية. بعد احتلالها للجزائر وتونس والمغرب، شعرت فرنسا بأن عليها أن تسيطر على سوريا الكبرى كي تتمكن من خلق توازن في منطقة البحر المتوسط. كانت إيطاليا قد غزت طرابلس/ ليبيا في عام ١٩١١ وبهذا سددت ضربة قوية وأخيرة للهيمنة العثمانية في شمال أفريقيا. كانت المهام العسكرية لفرنسا خلال الحرب العالمية داخل أوروبا، وحال تواجدها العسكري الضعيف في الشرق الأوسط دون إدعاء دور مهم لها في المنطقة. لهذه الأسباب وخوفا من أن يسعى البريطانيون للإضرار بمصالحهم، لجأ الفرنسيون إلى قوة التفاوض.

وفقا لمبادئ ويلسون لم يكن ممكنا احتلال الولايات العثمانية السابقة بصورة علنية وهكذا تم تقسيمها إلى مناطق أُطلق عليها اسم انتدابات حددتها «الجمعية العامة للأمم» وهي ما أصبح لاحقا عصبة الأمم. (المبدأ الرابع عشر) تُمنح الانتدابات لدول قوية من أجل ضمان حصول المناطق الخاضعة لهذه الدول على حق تقرير المصير وتصبح مستقلة. وقد صرح غيلبرت موراي مندوب بريطانيا لدى عصبة الأمم فيما يخص تركيا قائلا: „إن هذه الجمعية العظيمة للأمم" لم تكن فقط لتساعد بعضها البعض لتنفيذ „المهمة الأصعب" التي لم تفرضها المعاهدات وحدها ولكن فرضتها أيضا „ضرورات تاريخية للوقت الحالي". وعند تطرقه إلى «المعاهدات لحماية الأقليات» و «تطبيق البنود» ، ألمح إلى أنه „لا مساءلة لأمة أجنبية تتدخل في الشؤون الداخلية لأمة أخرى من أجل حماية مصالح أقلية تشعر بتعاطف خاص معها".

لقد اعتبرت القوى الغربية نفسها مصدرا للتنوير والريادة الأخلاقية وكحامل لشعلة التحضر التي كان على هذه القوى أن تأخذها إلى المناطق التي استعمرتها لتنويرها. ودون أي شك فقد صنعت فرنسا لنفسها صورة ذهنية مثالية كـ «أمة متحضرة»، في مقابل لا دولة سوريا «غير المتحضرة» التي كانت مجتمعا فتته الديانات والطوائف والجماعات العرقية، «المتطرفة» و «الهمجية» التي تقاتل بعضها بعضا ويحتاجون لتعلم النظام على أيدي الفرنسيين. وكما ورد في دراسة فرنسية عن الأكراد فإن „هذا الجنس شبه الهمجي يجب أن يقضي أعواما تحت الوصاية قبل أن يحكموا أنفسهم... ولا بد أن تقبل قوة عظمى هذا الانتداب لإدارة بلادهم وتُدخل الدروس التي هي ثمرة خبرة قرون بين الأمم إلى قلوبهم.

تقسيمات حسب الأهواء الغربية حددت قرارات بريطانيا وفرنسا بشأن تقسيم الشرق الأوسط في مؤتمر سان ريمو عام ١٩٢٠ مصائر شعوب المنطقة. ففي السنوات العشر التالية على سان ريمو تسببت بريطانيا وفرنسا في حدوث انقسام بين سكان الشرق الأوسط وفقا لأهوائهما الخاصة، بل وذهبت فرنسا إلى أبعد من ذلك وأسست مناطق تخضع لحكم شبه ذاتي تحت إشراف الحكومة الوطنية في سوريا. وبعيدا عن حكم الشعوب لنفسها واستقلالها، قام البلدان برسم حدود اصطناعية جديدة، تسببت في خلق حواجز اجتماعية ما فتح المجال لظهور الاضطرابات الإقليمية على المدى الطويل. لكن ما تصوره ويلسون عن „الحق المؤكد في الحياة والفرصة التي لا يشوبها أي تشويش للتطور الذاتي" لغير الأتراك تحت الحكم العثماني (المبدأ الثاني عشر) لم يتحول إلى واقع بالنسبة للعرب. كانت معاهدة سان ريمو نقطة تحول في تاريخ الشرق الأوسط. حددت فرنسا وبريطانيا شكل الانتدابات. نظرا لعدم وجود اتفاقية على الحدود، ترك الفرنسيون فلسطين والموصل للبريطانيين ووافقوا على الحصول على ربع نفط الموصل. كانت سوريا الكبرى منطقة مؤلفة من أغلبية من العرب والقومية العربية كانت هي الإيديولوجية المهيمنة خصوصا في أوساط السنة. وكانت الخصوصية المحلية والسياسية فرصة مواتية للفرنسيين لتقسيم سوريا وإعادة ترتيبها وفقا لمصالحهم. وقد ادعوا أنهم يستجيبون بتركيزهم على الاختلافات الاجتماعية لمطالب الناس. وكان هذا المفهوم مناسبا لرغبتهم في إضعاف القومية العربية والاقتراب أكثر من الأقليات المحبة للحياة على الطريقة الفرنسية من أجل تعزيز الهيمنة الفرنسية. وهكذا فإن تأسيس الانتداب الفرنسي واستمراره كان معتمدا على الوهن والانقسام الذي أصاب القومية العربية. كانت الإستراتيجية هي أولا إنشاء كيانات إدارية في سوريا تحول دون نمو المشاعر والحركات الوطنية ثم تنصيب حكومة محلية خاضعة لهم بحيث تسهل الحكم الفرنسي.

عندما احتلت فرنسا دمشق في تموز/ يوليو عام ١٩٢٠، قسموا سوريا إلى خمسة أجزاء:

١) لبنان الكبرى المؤلفة من مدن مهمة مثل طرابلس وبيروت وصيدا وصور.
٢) الدولة السورية (حلب وحماة وحمص ودمشق)،
٣) جبل الدروز.
٤) محافظة اللاذقية.
٥) لواء إسكندرون أو هاتاي، نظريا كجزء من سوريا ولكن عمليا بوضع إداري خاص. بعد عامين من احتلال دمشق، سُلم انتداب سوريا ولبنان إلى فرنسا. وحتى قبل ٢٣ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٢٣ عندما أصبح انتداب سوريا ساري المفعول، كانت فرنسا قد اتخذت الترتيبات لرسم الحدود على نحو يجعل من الصعب على عصبة الأمم أن تلغي تأسيس الحكم الفرنسي هناك.

مثال لبنان كانت الخطوة الأولى في عملية التقسيم هذه هي إنشاء لبنان الكبرى. لم تكن دولة لبنان الحديثة بحدودها القائمة أبدا دولة ولا حتى منطقة جغرافية، ولكن كانت جزءا من الإمبراطورية العثمانية منذ القرن السادس عشر. وتكونت على أسس دينية من المسيحيين المارونيين والدروز والشيعة والسنة وطوائف مثل الروم الأرذثوكس والكاثوليك. رأى المارونيون فرنسا كمنقذ ودعموها منذ البداية وقد جرى إعدادهم فعليا لحكم المنطقة. لقد تحقق حلمهم مع إنشاء لبنان الكبرى. لكن مسلمي المنطقة الذين كان عددهم مساويا لمسيحيها لم يرغبوا في أن يكونوا تحت حكم المارونيين. حارب السنة في السنوات التالية من أجل أن يصبحوا جزءا من سوريا. عارضت زعامات الدروز المتمثلة في عائلتي جنبلاط وأرسلان الحكم الفرنسي أيضا. وأراد الشيعة الذين بقوا أسرى للماضي أن يحافظوا على صلاتهم بسوريا بسبب خوفهم وعدم وثوقهم بالسنة والمسيحيين.

كان التقسيم الإقليمي والعرقي لسوريا نتيجة لسياسة «فرق تسد» الاستعمارية التقليدية. بعد إنشاء ولايتي حلب ودمشق كان يحكمهما حكام معينين بواسطة السكان المحليين مدعومين بمستشارين فرنسيين، وكانت هاتاي التي تسكنها غالبية تركية قانونيا جزءا من حلب ولكن في الواقع تتمتع بحكم ذاتي. ذهبت فرنسا إلى أبعد من ذلك وأكدت بإصرار على إبراز خصوصية طائفتي النُصيريين والدروز المتركزين إقليميا في مناطق بعينها. ومنذ ذاك الحين بدأ الفرنسيون يطلقون على النصيريين «العلويين». كانت القومية العربية السنية تهدد المصالح الفرنسية والمسيحيين وهذه الطوائف الإسلامية الخارجة. ولهذا كانت فرنسا في حاجة لتوطيد علاقات ودودة مع المنتمين لهاتي الطائفتين. في عام ١٩٢٢ كانت تسكن جبل الدروز الواقع جنوب دمشق غالبية درزية وقد أعلنت فرنسا فيه دويلة درزية لها حاكمها الخاص وبرلمان منتخب تحت إشراف السلطة الفرنسية. كما أن اللاذقية بمنطقتها الجبلية (جبال النصيرية/الأنصارية) بغالبية سكانها العلويين أصبحت وحدة إدارية منفصلة وأصبح يطلق عليها دولة العلويين.

بعد عام ١٩٢٢ توحدت المناطق خارج جبل الدروز في إطار الاتحاد السوري الذي حلت محله في عام ١٩٢٤ الدولة السورية التي ضمت حلب ودمشق ولواء الإسكندرون. لكن الأخير تغير اسمه إلى هاتاي وحصل على دولة مستقلة في أيلول/ سبتمبر عام ١٩٣٨. وبعدها بتسعة أشهر في حزيران/ يونيو ١٩٣٩ سُلم إلى تركيا بعد عامين من المفاوضات، وقد اتخذت فرنسا هذه الخطوة لتضمن عدم تدخل تركيا في الحرب العالمية الثانية. لم تكن دولة العلويين داخل الاتحاد السوري. باستثناء الأعوام من ١٩٣٦ إلى ١٩٣٨ كانت دولتي الدروز العلويين منفصلتين إداريا عن سوريا.

لقد شجعت الدعاية الفرنسية الانفصالية (سياسة الأقليات) التي تبرز الاختلافات الجغرافية والدينية والطائفية والاجتماعية، على نشأة هوية أقلية أثرت سلبا ولفترة طويلة على السياسة السورية بعد الانتداب الفرنسي. ضيقت هذه الإستراتيجية التي طُبقت طوال فترة الانتداب تقريبا المجال أمام الحركة القومية العربية وقللت من تأثيرها. وحيث أن فرنسا نجحت في الحيلولة دون ظهور القومية العربية في مناطق التي تركزت فيها الأقليات، فقد حالت أيضا دون انتشار تأثيرها في أطراف مدن مثل دمشق وحلب وحماة وحمص.

كانت معظم الأقليات الدينية والعرقية كالأرمن والأكراد واليهود والمسيحيين الشرقيين في سوريا جماعات غير منظمة ولم تكن لهم قاعدة سياسية أو جغرافية، ولم يكن ثمة ارتباط سياسي بالنسبة لهم. على النقيض من ذلك تركز العلويون والدروز في مناطق جغرافية وكانوا مترابطين سياسيا. دعمت فرنسا استقلالهم بشكل كامل من أجل الحيلولة دون تحقق وحدة سوريا. كانت فرنسا بسياستها الإمبريالية معادية لوحدة سوريا. وكانت إستراتيجيتها تكمن في تعميق وإثارة التمايزات من أجل تغذية النزعة الانفصالية. وقد جرى تشجيع النزعة الداعية لانفصال واستقلال الأقليات الوطنية عبر منح وضعية الحكم الذاتي للمناطق التي كان تشكل فيها هذه الأقليات الأغلبية.

انتداب لمنع التطور؟ طوال فترة الانتداب لم يف الفرنسيون بالشروط الخاصة بتعليمات عصبة الأمم وتجنبوا عمدا تعليم الناس الذين يمكن أن يصبحوا رجال دولة أكفاء لحكم البلاد. لقد حال تقسيم سوريا بضع مرات إلى أقاليم وأقاليم فرعية خلال فترة الانتداب دون تكوين طبقة من الإداريين يمكنها التحرك والعمل سويا. وعندما غادر آخر جندي فرنسي سوريا في نيسان/ أبريل عام ١٩٤٦، كان العائق الأكبر أمام الوحدة السياسية في سوريا المستقلة هو غلبة الطابع الإقليمي بل والمحلي وقد استمر هذا الأمر أيضا بعد الاستقلال. بالإضافة إلى ذلك، رفض مختلف القادة السياسيين في سوريا ما بعد الانتداب أن تكون الوحدة العربية رؤية وهدفا مشتركا لهم. لقد ترددوا ما بين الوطنية السورية

والقومية العربية ومصالحهم الخاصة. ومن المحتمل أن التوتر الأساسي كان بين الوحدة السياسية التي تشمل كل من تجمعهم العربية لغة وثقافة وبين القضايا والشؤون الإقليمية/ المحلية. كانت المهمة الكبرى التي واجهت القادة الوطنيين في سوريا بعد الاستقلال هو إدماج الأقليات المشتتة في أنحاء البلاد كالأكراد والشركس والأرمن، والعلويين والدروز كأقليتين لهما مناطق تركز جغرافي. ارتأت حكومة ما بعد الاستقلال في سوريا تقليل عدد ممثلي العلويين والدروز في البرلمان وتدريجيا إلغاء مقاعدهم. وفي الاتجاه نفسه خططت لإلغاء الحقوق التي منحها الفرنسيون لهاتين الأقليتين. وهذا طبعا تسبب في صراع عندما اتخذ القرار بإلغاء هذه الحقوق من أجل تأسيس إدارة مركزية. ضم قادة السنة في دمشق اللاذقية إلى سوريا وهكذا انمحت فعليا دولة العلويين . كما أُلغيت أيضا مقاعد العلويين في البرلمان وفي المحاكم والتي كانت تضمن لهم حقوقهم المدنية. لقد أصبحوا مواطنين سوريين وكان عليهم أن يتخلوا عن حلم الدولة العلوية. لم يبد هذا التغيير مهما في ذاك الوقت، لكنه مهد الطريق لبداية عهد جديد: وهو الصعود السياسي للعلويين في عقود لاحقة.

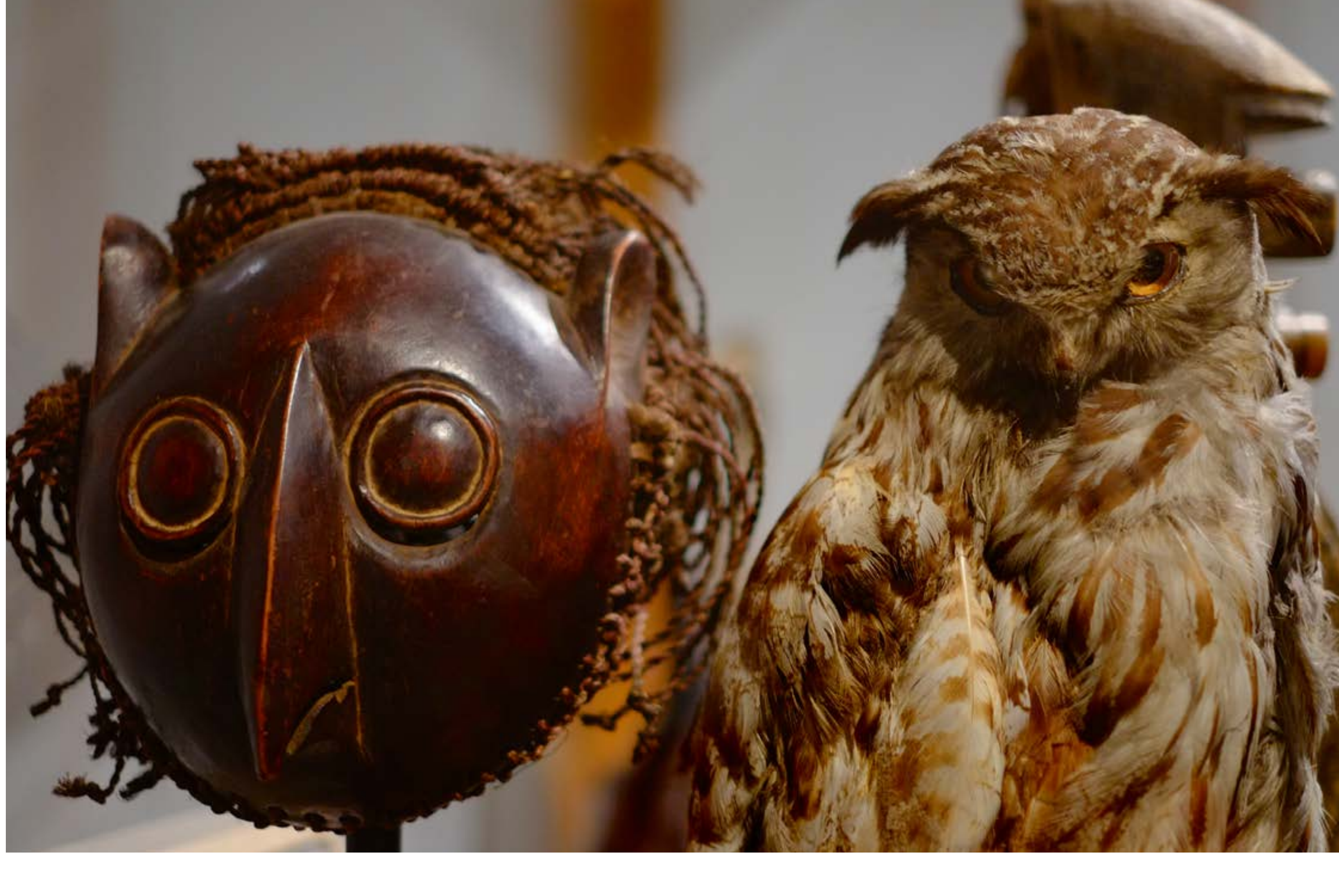
خلال فترة الانتداب كان إداريون ومستشارون فرنسيون يحكمون سوريا فعليا من أجل مصالحهم. وبعد انتهاء الانتداب بفترة طويلة كانت سوريا بلدا محروما من مؤسسات قادرة على تنظيم نفسها بنفسها ومن الوحدة الإقليمية. فبسبب السياسة الإمبريالية الفرنسية حُرم السوريون من الولاء للدولة الوطنية، وكانت الولاءات المحلية والإقليمية قوية رغم مشاعر القومية العربية. ورغم استقلالها في عام ١٩٤٦، فإن سوريا كانت بعيدة عن مفهوم الدولة الوطنية ولم تكن بها قيادة سياسية قادرة على الاستمرار. إن وضع سوريا الحالي هو نتاج للسياسات البريطانية الفرنسية الهدامة، وعدم إيفائهما بقواعد الانتداب كما وضعته عصبة الأمم. وبسبب ضعف القوانين والدول التي أسستاها، تعاني المنطقة بأسرها من مشكلات لم تحل ليومنا هذا. وبدلا من دعم الدول قامتا بتأسيس سوريا الكبرى ولبنان وفلسطين وإسرائيل والأردن ـ ولم يكتفيا بجعل حدود هذه الدول إشكالية بل جعلتا وجودها إشكاليا. يمكننا القول أن السياسات الإمبريالية لبريطانيا وفرنسا هي السبب الرئيسي للحروب المستمرة والخلافات والسياسة الجارية في الشرق الأوسط. إن بذور الشقاق التي نثرتها فرنسا في سوريا قد أصبحت أساسا لمشاكل إقليمية معقدة وامتدادا للتوتر وإراقة الدماء الدائمين.

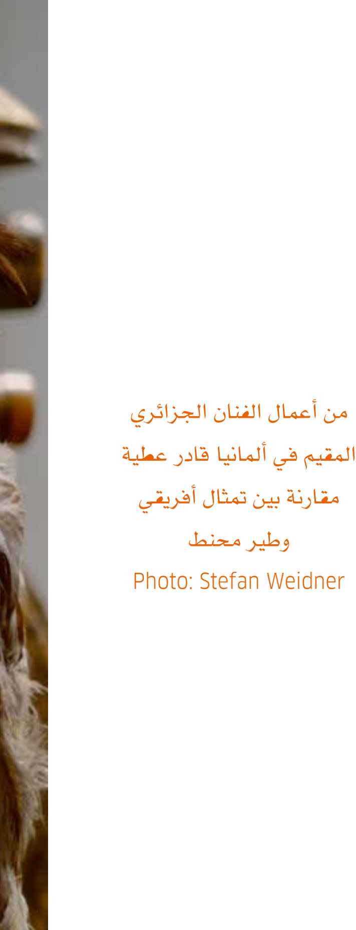
صعود العلويين إلى السلطة لقد جرى صعود العلويين الذين يحكمون سوريا منذ عام ١٩٧٠، على مدى خمسين عاما، حيث أنهم كانوا في عام ١٩٢٠ أقلية محرومة كما ذكرنا أعلاه، وبحلول عام ١٩٧٠ كانت السلطة السياسية في سوريا في قبضتهم. حدث هذا التحول عبر ثلاث مراحل: ١٩٢٠–١٩٤٦ وهي مرحلة الانتداب الفرنسي وهي المرحلة محل البحث، و ١٩٤٦–١٩٦٣ وهي سنوات السلطة السنية، و ١٩٦٣–١٩٧٠ وهي فترة التوحد العلوي.

كان العلويون مؤيدين للفرنسيين حتى قبل الانتداب لأنهم عارضوا الملك فيصل، الحاكم العربي السني لسوريا من ١٩١٨ حتى ١٩٢٠ والذي كان يُخشى من هيمنته. في عام ١٩١٩ قاموا بثورة ضده بالاستعانة بالأسلحة الفرنسية، آملين في دمار الإمبراطورية العثمانية وأبلغوا الفرنسيين برغبتهم في اتحاد للنصيريين تحت الحماية الفرنسية. ورغم ذلك فقد تمردوا على الفرنسيين بعدها بعامين بقيادة صالح العلي، كانت الثورة ضد تحالف أعدائهم الإسماعيليين وهم طائفة إسلامية خارجة أيضا مع الفرنسيين. بعدما ضمنت فرنسا الحكم الذاتي للعلويين، عرض هؤلاء دعمهم لها. كان العلويون هم أكثر من استفادوا من الحكم الفرنسي بعد الحرب العالمية الأولى. وكان التعاون مع الفرنسيين يعني هروبهم من هيمنة الحاكمين السنة، وهكذا تأسست دولة اللاذقية في تموز/ يوليو ١٩٢٢. تمتع العلويون بضرائب منخفضة وتلقوا دعما ماليا من الفرنسيين. وعلاوة على ذلك اكتسب العلويون أيضا استقلالا قانونيا أيضا. فقد انتقلت سيطرة السنة على القضايا الشرعية إلى قانونيين علويين.

وفي داخل دولتهم كان العلويين لا يزالون في مستوى أدنى اقتصاديا واجتماعيا من السنة ولم يكن بإمكانهم التغلب على ذلك والإحساس بالمساواة إلا بأن يكون لهم قضاؤهم الخاص. نظم الفقه الحنفي في زمن العثمانيين كل شيء في المحاكم السنية. ومع ذلك لم يتدخل العثمانيون في العرف العلوي الذي ساد في قضاياهم المدنية، لكن لم يكن له سلطة شرعية. احتاج العلويون تحت الانتداب الفرنسي الجديد اعترافا بطائفتهم وبمحاكمهم الخاصة وقضاتهم. ولكن ذلك لم يكن سهلا لأن العرف العلوي كان معتمدا على السلطة الاجتماعية، ولم يكن ممكنا جمعه وتنظيمه وتطبيقه في المحاكم. وكان الحل الذي تم الوصول إليه في عام ١٩٢٢ هو تأسيس محاكم علوية دينية تحكم وفقا للمذهب الشيعي الاثناعشري (الجعفري). وقد جُلب هذا القانون وقضاته من لبنان، حيث لم يكن ثمة خبراء علويون في القانون.

التحالف العلوي ـ الفرنسي كان العلويون سعداء بهذه التغييرات لصالحهم. كان تقسيم البلاد نعمة لهم، في حين شهدت البلاد تمردات من أجل استقلال سوريا





من أعمال الفنان الجزائري المقيم في ألمانيا قادر عطية مقارنة بين تمثال أفريقي وطير محنط
Photo: Stefan Weidner

ووحدتها. عندما دعمت فرنسا الانتخابات في كانون الثاني/ يناير عام ١٩٢٦، قاطعها معظم السوريين، لكن العلويين شاركوا بأعداد كبيرة. وقد أمدوا الحكومة بمعظم الجنود وعملوا كرجال شرطة ودعموا الاستخبارات. اتخذ العلويون هذه الخطوات للمساعدة في إبقاء الحكم الفرنسي وأعلنوا تأييدهم له علنا. لقد ساعدوا في قمع تظاهرات السنة والإضرابات والتمردات. وبذلوا كل ما يستطيعونه من أجل استمرار الحكم الفرنسي في سوريا، لأنه بخلاف ذلك كان السنة سيستعيدون الهيمنة عليهم. وكما عبر سياسي علوي „لقد نجحنا في تحقيق المزيد من التقدم خلال ثلاث أو أربع سنوات أكثر مما حققناه خلال ثلاثة أو أربعة قرون. لذلك دعونا نحتفظ بوضعنا الحالي." عندما ضُمت الدولة العلوية في عام ١٩٣٦ مؤقتا إلى سوريا، أدى ذلك إلى تظاهر العلويين وإعرابهم عن مشاعر مؤيدة للفرنسيين. ووصف التماس علوي في العام نفسه الاتحاد مع السنة بأنه „عبودية"، كما كتب قيادي علوي آخر بأن ضم الدولة العلوية سيكون معادلا لـ „كارثة مدمرة". كما كتب أيضا ستة من قيادات العلويين من بينهم علي السليمان، والد حافظ الأسد (البعض يقول جده) الذي تولى السلطة في عام ١٩٧٠ عبر انقلاب عسكري، إلى الحكومة الفرنسية متحدثين عن سوريا كدولة سنية وأن هذه الدولة تعتبرهم كفارا، وأن إنهاء الانتداب الفرنسي سيعرض العلويين لـ "خطر قاتل". يجب على فرنسا أن تبقى في سوريا لضمان حرية واستقلال العلويين. كما أكد قادة العلويين أيضا لفرنسا أنهم ليسوا „بهائم جاهزة للذبح" على أيدي السنة، خصومهم الرئيسيين الذين سيخضعونهم لنيرهم. إذا تخلت فرنسا عن العلويين، فسيندم العلويون حقا على „خسارة صداقتهم وارتباطهم الوفي مع فرنسا النبيلة." ورغم مناشدات العلويين أنهت فرنسا الحكم الذاتي للاذقية في عام ١٩٣٦ وأدمجتها في إدارة دمشق، لكن منطقة اللاذقية ظلت تستفيد من وجود إدارة خاصة ودعم مالي من قبل فرنسا. في عام ١٩٣٩ حصل العلويون على استقلالهم ثانية بعد التمرد المسلح لسليمان المرشد الذي أعلن نفسه «مخلصا» وإلها قادرا على المعجزات وجمع حوله آلاف من الأتباع. وقد نجح في إبعاد هيمنة سلطة دمشق على العلويين.

حتى استقلال سوريا في عام ١٩٤٦ استمر العلويون في إرسال التماسات لفرنسا، في عام ١٩٤٥ طلبوا حماية فرنسية وتحكيما في القضايا القانونية بينهم وبين دمشق، أو دعوا لبقاء الجنود العلويين في الجيش الفرنسي. كانت الأحداث التي تلت بعد عام ١٩٤٦ حاسمة فيما يخص استحواذهم على السلطة في سوريا عام ١٩٧٠. عندما غادرت فرنسا دمشق، ورثت النخبة الحضرية السنية الحكومة وهكذا انتهى الانتداب. وبخلاف الأسباب الوطنية، فقد تم احتواء الدولة العلوية داخل سوريا لأسباب إستراتيجية، فقد كانت هي المنفذ الوحيد إلى البحر المتوسط.

ثمة أسباب عديدة لإعادة اتحاد العلويين مع سوريا. ولنبدأ بأن منطقة العلويين لم تتمكن من أن تكون دولة مستقلة لأنه لم يكن

بها مزايا اقتصادية، فلنقل لم يكن بها بنية تحتية. ولهذا فإن كونها البوابة إلى أوروبا بساحلها على البحر المتوسط لم يكن كافيا للتنمية الاقتصادية. كان الاندماج مع سوريا هو السبيل الوحيد الذي يتيح ذلك. ثانيا، لأن المنطقة العلوية كانت تفتقر إلى الأهمية الاقتصادية وبالتالي السياسية، لم تكن معظم القوى الأوروبية مهتمة بها. ثم إن العلويين لم يشكلوا أقلية مطلقة كالدروز، حتى في منطقتهم، وفي بعض المواقع على الساحل المعروف بأنه مركزهم الاقتصادي والسياسي، كانوا أقلية. وأخيرا عندما ضمت تركيا هاتاي في عام ١٩٣٩ بعد اتفاق مع فرنسا، تسبب ذلك في نشوء عداء مع تركيا وعدد كبير من العلويين غادر المنطقة بسبب خوفهم من أن الأتراك قد يتوسعون جنوبا بطول ساحل البحر المتوسط.

ويبدو أن ثمة عاملين مهمين قادا إلى توحد العلويين مع سوريا، الأول تمثل في أنه لم تكن ثمة قوى غربية تدعم العلويين فعلا خلال الفترة العثمانية المتأخرة، بعكس الدروز والمارونيين الذين كانت لهم علاقة خاصة بالدول الغربية. كان للعلويين بنية اجتماعية هشة لا تمتلك الترابط الداخلي. وعلاوة على ذلك لم تكن لديهم مؤسسات دينية وتعليمية منظمة وكانوا معزولين جدا بحيث يصعب تأثرهم بالإيديولوجيات الغربية. وحتى تأثير البعثة التبشيرية الأمريكية لم يكن قويا بالقدر الذي يجعل العلويين يغيرون معتقدهم، رغم أن ذلك كان من شأنه أن يتيح لهم فرصة الإفلات من القمع العثماني. وتمثل العامل الثاني في أن كونهم جزءا من سوريا سيعني الاستفادة من نتائج الحداثة مثل التعليم في المدارس السورية. وقد جلب هذا لهم في المقابل وضعا اجتماعيا أفضل، وإثراء ثقافيا وثروة مادية والمساواة والنفوذ ومن ثم السلطة في المجال السياسي.

الجيش والحزب رغم هيمنة السنة الحضريين على مقاليد الحكم في البلاد حتى عام ١٩٧٠، فقد قادت مؤسستان محوريتان إلى صعود العلويين. الأولى كانت القوات المسلحة والثانية حزب البعث القومي العلماني. وكلاهما شهد حضورا كثيفا للعلويين، في الجيش لأنه أتاح لهم ولأقليات أخرى وللسنة الريفيين فرصة الحراك لأعلى. لقد وجدت كل هذه المجموعات المعدمة لغة مشتركة ووسيلة لنضالهم ضد التمييز الاجتماعي والاقتصادي. أيضا على خلاف الضباط السنة الذين سيطروا على الجيش وتآمروا على بعضهم البعض أثناء ذلك، كانت مجموعة الضباط العلويين أكثر ترابطا وتنسيقا. وحيث أن السنة دخلوا الجيش كأفراد، فقد شدد العلويون على أهمية التضامن الطائفي الذي أتاح أساسا أكثر استقرارا للتعاون مقارنة بالتحالفات المتقلبة للضباط السنة. أسفرت الانقلابات العسكرية العديدة من عام ١٩٤٩ إلى ١٩٦٣ والتي نفذها ضباط كبار من السنة عن نزاعات على السلطة وأدت إلى تقلص عدد هؤلاء الضباط. بالطبع استفاد العلويون من ذلك وحلوا باضطراد محل الضباط السنة وجلبوا معهم أقاربهم. وهذه الميزة أدت إلى صعود العلويين إلى المراتب العليا للجيش.

وعموما فإن أغنياء السنة الحضريين كانوا يقللون من شأن الجيش ويعتبرون أن الخدمة فيه ما بين الحربين العالميتين، كانت خدمة للفرنسيين. كما أنه كان بالنسبة لهذه العائلات السنية المؤمنة بالقومية السورية مكانا لفئات اجتماعية معدمة وغير مثقفة ومتمردة. لم يركز قادة السنة في دمشق اهتمامهم على الجيش بوصفه أداة للدولة. لقد خشوا من سلطته في السياسة الداخلية وأبقوا تمويله منخفضا، وجعلوا المستقبل الوظيفي به غير جذاب. لقد اعتقدوا أن تقلدهم المناصب العليا في الجيش سيكون كافيا للتحكم فيه. لم يبرز دور العلويين في الجيش لوقت طويل لكن صراع السلطة السالف الذكر بين قادة الجيش السنة أدى لتغيير ذلك. لقد كان هذا الخطأ التاريخي هو السبب في جعل العلويين سادة سوريا.

أما بالنسبة لحزب البعث فقد راق للعلويين وللأقليات الفقيرة الريفية المشابهة نظرا لأيديولوجيته العلمانية الاشتراكية.

جذب حزب البعث منذ بدايته أبناء المهاجرين من المناطق الريفية الذين ذهبوا إلى دمشق من أجل التعليم. وقد شكلوا أغلبية أعضاء الحزب هناك وفي مدن كحلب واللاذقية. كان زكي الأرسوزي أحد مؤسسي الحزب ذاته علويا ودفع بالكثير من رفاقه للانضمام للحزب. أتاحت اشتراكية حزب البعث التي حُددت بوضوح خصوصا بعد الستينات فرصا اقتصادية لفقراء العلويين وجمعت العلمانية، رغم وجودها النظري فقط، جماعات مختلفة تحت مظلة الحزب بينما لم يول اهتمام كبير للاختلافات الدينية والطائفية.

وحد العلويون صفوفهم خلال الفترة ما بين ١٩٦٣ و ١٩٧٠ من خلال ثلاثة انقلابات عسكرية: في مارس ١٩٦٣ عندما لعبوا دورا رئيسيا وتولوا مناصب مهمة في حزب البعث والحكومة، وبحلول عام ١٩٦٦ كانت أقليات كالعلويين والإسماعيلية والدروز قد أطاحوا بالسنة بعد معارك طائفية في الحزب والجيش. اتبع حافظ الأسد الذي أتم ارتقاءه في الجيش سياسة طائفية وقام أخيرا في ١٩٧٠ بانقلابه ونصب نفسه رئيسا. واستمر انفراده بالسلطة حتى وفاته في يونيو عام ٢٠٠٠، وبعده „انتُخب" ابنه بشار رئيسا.

ورغم أن النظام البعثي العلوي قد أنشأ دولة وطنية قوية ومستقرة في سوريا، يحسب لها حساب في المنطقة، فإن أسرة الأسد العلوية ظلت تواجه دائما تحديات. كان العلويون أناسا بائسين ومقموعين من السادة السنة ولم تكن لهم حقوق، ومازال يُنظر لهم كأقلية محتقرة رغم أنهم أصبحوا سادة البلاد ومازالوا يملكون مقاليد السلطة في أيديهم. في الثمانينات ومنتصف التسعينات توقع المختصون بشؤون الشرق الأوسط الذين حللوا النظام العلوي في سوريا أن:

١) حكم الأسد سينهار عبر نزاعات بين السنة والعلويين، على سبيل المثال عبر ثورة إقليمية.

٢) يمكن المحافظة على اندماج المناطق العلوية مع سوريا. وبالنظر إلى الحرب الأهلية الدموية التي تجري في سوريا منذ عام ٢٠١١ فإن تغيير نظام الأسد سيبقى فقط مسألة وقت.

نجاتي ألكان باحث تركي مختص بالتاريخ العثماني الحديث وتاريخ النصيريين. كان مؤخرا أستاذا مساعدا بجامعة إرفورت في شرق ألمانيا.

ترجمة: أحمد فاروق

■ **لم يكن التاريخ أبدا مجرد ماض فحسب، بل هو يوجهنا وحاضرنا بأساليب شتى أيضا. وفي الوقت ذاته لا يمكننا فهم وقائع الماضي ولماذا وكيف حدثت إلا من منظور الحاضر. وينطبق ذلك بالأخص على التضاد بين الإمبراطورية العثمانية وتركيا الحديثة.**

تاريخ وحكايات

من نهاية الإمبراطورية العثمانية إلى الجمهورية التركية

ظافر سينوجاك ZAFER SENOCAK

ليس الشر وحده هو ما يجعل التاريخ على هذا القدر من الإثارة، بل وأيضا الإنسان القادر على أن يصيب إنسانا آخر بمعاناة لا نهائية. وفي الوقت ذاته يرزح الحديث عن الشر الذي ارتكبه هذا الإنسان بنفسه تحت حاجز منيع. إذ يهدد مثل هذا الحديث مجد الأمة وشرفها. مع ذلك فإنه سرعان ما يصبح شر الآخرين شاشة عرض تغطى إشعاعاتها كل شيء.

تتكون كرة خيوط معقدة يتشابك فيها وصف الذات والآخرين لا يمكن حلها من بعد. وفي كرة الخيوط المتشابكة هذه تكمن مرحلة انهيار الدولة العثمانية ومرحلة تأسيس الجمهورية التركية، حتى يومنا هذا، معقودة ومشفرة عبر الأساطير التي تتحلل فيها السير الذاتية للأفراد. تغطي كتابة التاريخ كل شيء ولا تترك أي مجال لمصائر الأفراد.

نداء الحرية في عام ١٩٠٨ سرى نداء الحرية مدويا في أنحاء الإمبراطورية. وخصوصا في سالونيكي المركز الفكري للتحديث العثماني، وقد كان ثلث سكانها من المسلمين وثلث آخر من اليهود والثلث الثالث من اليونانيين، وقد شكلوا تيارات إصلاحية تطالب بالمساواة وبالملكية الدستورية التي أوقف الحاكم المستبد السلطان عبد الحميد العمل بها قبل ثلاثة عقود.

لا شك أن الإمبراطورية العثمانية كانت في مأزق، فالقوى الأوروبية الكبرى كانت قد تمركزت منذ زمن بعيد وأعلنت عن أطماعها. لقد انتظرت في غير صبر تقسيم الكعكة. فقد ترنح النظام الاستبدادي للسلطان عبد الحميد الذي يعد على الأرجح أول حاكم للعالم الإسلامي في العصر الحديث، وتهاوى دون أن تنهار الإمبراطورية متعددة القوميات على الفور.

إن لعام ١٩٠٨ وهو عام الثورة وما تلاه حتى عام ١٩١١ أهمية هائلة لشعوب الإمبراطورية العثمانية. لكن المدهش أكثر أنه لا توجد أدبيات كثيرة عن هذا الموضوع. وفيما تستدعي حاليا العديد من الدراسات والأفلام والوثائق الإبادة الجماعية للأرمن إلى ذاكرتنا، ما يجعل إنكار هذا الفصل المريع من التاريخ العثماني أمرا صعبا، يبقى السؤال عن كيفية حدوث هذه المذبحة في جنح الظلام. كما بقيت في جنح الظلام أيضا مصائر شعوب أخرى تعيش على أراضي تركيا حاليا وتحديدا السريان، ويونانيي الأناضول واليهود والأكراد العلويين والسنة وأخيرا وليس بآخر المهجرين بسبب حرب البلقان وخصوصا المسلمين المقدونيين والبوسنة والألبان أو يهود سالونيكي.

من كان يعد تركياً؟ كانت الإمبراطورية العثمانية دولة متعددة القوميات، وهكذا هو حال الجمهورية التركية أيضا. لقد فشلت الأولى بسبب هذا التعدد وفي المقابل تخيلت الجمهورية الناشئة أنها دولة قومية متجانسة، واعتبرت أن ٩٩٪ من سكانها أتراكا لمجرد كونهم مسلمين. وها هي تركيا الحديثة التي تفتخر بعلمانيتها الفريدة في العالم الإسلامي قد جعلت في لحظة ميلادها من الدين، دون غيره، أساسا لهويتها. ولم تجر حتى يومنا هذا معالجة تداعيات هذا التناقض الغريب. لقد كان على الأكراد أن يقروا بهويتهم التركية لمجرد كونهم مسلمين، ومنذ سنوات قليلة انطلقت عملية وئيدة ومضنية للاعتراف بالهوية الكردية.

لكن المسيحيين عانوا أيضا من إعادة تعريف الهوية التركية تحت مظلة الدين. عندما وُقعت بعد حرب التحرير في الأناضول عام ١٩٢٢ اتفاقية بشأن تبادل السكان بين اليونان وتركيا (والتي لم تعن سوى تهجير مليون ونصف مليون من الروم. الأرثوذكس من الأناضول ونحو نصف مليون مسلم من اليونان)، كان من بين هؤلاء «اليونانيين» الوهميين عدد غير قليل لا يعرف أي كلمة باليونانية. لقد كانت قبائل تركية تحولت إلى المسيحية في وسط الأناضول.

ويتضح جليا من هذه الأمثلة التي تبدو غريبة من القرن الماضي والمرتبطة بمعاناة لا نهائية للمتضررين، أن التاريخ التركي ليس ملكا للأتراك وحدهم. لأن تاريخ البشر المهجرين من أرض ما لا ينتهي ولا يمحى بهجرتهم، بل يصبح ماضيا لا يمكن الاستمرار في كتابته.

أي تاريخ هذا الذي لم يعد يُكتب داخل الذاكرة الجمعية؟ يعمل تكوين الذاكرة الجمعية كمشروع قومي يضع دائما الذات الجماعية «نحن» في مقابل الآخر، بآليات الكبت.

ولا تحتل الأحداث التاريخية خلال ذلك مركز الاهتمام بقدر كبير، بل يحتله الفضاء الذي يحتوي هذه الذاكرة. فالذاكرة هي وسيلة مثيرة للجدل لتشكيل الهوية، ويمكنها أن تنشئ جماعات وتهدمها.

إنني لا أكتب روايات تاريخية ولهذا ليس للأحداث التاريخية مكان بارز في كتبي. إنها تشكل، إن وُجدت، خلفية لانقطاع الذكريات وفجوات الذاكرة ولكنها أيضا خلفية لأبنية راسخة، أجل، فكثيرا ما تكون الهياكل التي تُنصّب عليها آثار الذكريات الوطنية غير قابلة للمساس بها. إنني أحكي في كتبي قصصا تدور حول آثار الكبت التي تترسب في أبنية الهوية الوطنية وكيف تعلن هذه الترسبات عن نفسها في التاريخ العائلي أو على مستوى مصائر الأفراد بصورة كثيرا ما تكون مؤلمة بل وصادمة أيضا، ولكنها تعلن عن نفسها أحيانا بشكل غرائبي فقط.

والسبب في اتباعي لهذا النهج هو تاريخ عائلتي. لم أعرف من عائلتي الكثير عن دور أجدادي في الحرب العالمية الأولى. أحد أعمام أمي كان نقيبا في فرقة الفرسان ولقي مصرعه في شتاء ١٩١٤/١٩١٥ في جبال القوقاز. أُعفي جدي من الخدمة الحربية لأنه كان الابن الوحيد الباقي على قيد الحياة في عائلته. جاءت عائلتي في الماضي لاجئة من باطومي الواقعة حاليا في جورجيا بعد الاحتلال الروسي في عام ١٨٧٨. لقد سبقت الحربُ التركية الروسية الكبيرة عام ١٨٧٧



أحد أبراج للسور البيزنطي في اسطنبول
Photo: Stefan Weidner

بناء الذاكرة الجماعية كمشروع وطني يعني العمل مع آليات القمع.

وحربُ البلقان في عامي ١٩١٢/١٩١٣ الحرب العالمية الأولى التي كانت بالنسبة للإمبراطورية العثمانية وأيضا لشعوب القوقاز والبلقان من نواح عدة أكثر فداحة ومأساوية. فحسب التقديرات هُجر نحو مليون مسلم آنذاك من منطقة البلقان وفقد نحو ثلاثمائة ألف شخص حياتهم جراء جرائم بشعة. لم يكن لهذه الأحداث أي مكان تقريبا في مخيلة الشعوب الأوروبية، بالرغم من أن الصحف الإنجليزية والألمانية كانت تعج بوصف هذه الأحداث المأساوية.

تاريخ الأرمن توجد منطقتا البلقان والقوقاز في الكثير من قصص العائلات التركية وكأنهما في خلفية مطفأة. طوى معطف النسيان الهروب والتهجير. ثم غطى هذا المعطف أيضا على الأحداث التي قادت إلى الكارثة الأرمينية في الأناضول.

قبل أعوام قلائل التقيت صديقا في اسطنبول انشغل بكثافة بتاريخ حركة تركيا الفتاة. ولديه أسلاف أرمن من ناحية الأم، قضوا جميعا أثناء تهجيرهم، فيما عدا جدته الكبرى. لكن في عائلته لا يكتفون فقط بعدم الحديث عن هذا الفرع منها، بل وينكرونه أيضا. وهكذا هو حال صديقي أيضا الذي يدافع عن قناعة عن الأطروحات التركية بشأن الأحداث التي وقعت عام ١٩١٥ في الأناضول باعتبارها نزوحا أوجبته الحرب، ونُظم بطريقة سيئة، لكنه لم يكن أبدا إبادة جماعية. ويقول إنه حتى الآن لا توجد في أي مكان أية وثيقة تثبت تعمد الإبادة الجماعية، وإن أرمنيّ المهجر على وجه الخصوص هم من يسيّسون الأحداث ويسعون لتحقيق كل الأهداف الممكنة ما عدا هدف واحد، هو الوحيد المشروع، وتحديدا كشف الحقائق بشأن ما جرى في الماضي فعلا ولماذا.

ثم أعطاني كتابا لافتا إلى أنه مرجع لا بد من قراءته لكل من يهتم بالموضوع. إنها الترجمة التركية لكتاب: The Armenian Massacres in Ottoman Turkey- A Disputed Genocide من تأليف غونتر ليفي.

قلت له إنني أعرف الكتاب وقرأت الأصل الأمريكي. وأعرف أن الكاتب مؤرخ أمريكي مرموق، لم تدفع له تركيا كي يكتب هذا الكتاب. لكن السؤال عما إذا كانت أحداث عام ١٩١٥ تعد إبادة جماعية أم لا، لا يهمني بقدر كبير. ما يشغلني هو ما فعلته بنا هذه الأحداث، ماذا فعلت بأجدادنا وجداتنا وآبائنا وأمهاتنا، ما فعلته بي وبك، تهمني كل الخبرات الشخصية المكبوتة.

لا أشعر بأن صديقي ينصت لي. إنه بالأحرى مشغول بهوية المؤلف. إنه يهودي، يقول لي، وإن كتابة مثل هذه الكتاب الذي يسير عكس تيار الرأي السائد ويكشف بلا حرج تزييف وحيل بعض المؤرخين، يحتاج حقا إلى الكثير من الشجاعة. وهذا أمر يجعلنا يشعرنا بالخجل، حيث أننا نتعامل في الآونة الأخيرة بشكل مزر مع اليهود.

أفكر متسائلا، ماذا عساه أن يصور لنا استحضار التاريخ أفضل من هذا اللقاء؟ علاقتنا التركية بالأرمن التي هي في حالتي وحالة صديقي جزء من تاريخ العائلة. العائلة لا ترغب في معرفة أي شيء عن ذلك، سواء في حالة صديقي أو أيضا في حالتي. لأن ناجين من عمليات التهجير القسري قد صاهروا عائلتي والدي والدتي. وبالطبع ليس باعتبارهم أرمن ولكن كأتراك مسلمين. وما زال أصلهم يعد ليومنا هذا سرا من أسرار العائلة.

يعكف مؤرخ أمريكي من أصل ألماني - يهودي على دراسة مصير الشعب الأرمني في أراضي الأناضول وتؤكد ردود الفعل على كتابه نظرية صديقي بأن استغلال الموضوع وتسييسه يضفي ضبابية على التناول التاريخي العلمي للموضوع، بل ويجعل هذا الأمر مستحيلا. يشعر صديقي بزوال العبء، ولكن لأن المؤلف يهودي، يشعر أيضا بالخجل إزاء الشعب اليهودي بسبب رئيس وزراء تركي لا يمكن وصف علاقته بإسرائيل بأنها ودودة.

مهمة الكاتب هذه بالضبط هي كرة الخيوط المتشابكة التي أتحدث عنها والتي تهمني ككاتب. ليس لأنني أدعي أنني قادر على حل هذه الخيوط المتشابكة، لكنني أريد أحس بها وأجعلها محسوسة، باعتبارها حاجزا معطلا للفكر وللمشاعر والإحساس بمشاعر الآخرين، والذي بدونه لا يمكن أن ينشأ أي حوار مع الآخر.

إنها تلك القصص من الحياة اليومية والتجارب التي تنفتح لي ككاتب كالنافذة في العوالم الداخلية للأشخاص. إنني أتعرف فيها على حقائق حياتية وعوالم فكرية مخفية عن النقاشات العامة ومشوشة وكثيرا ما يلفها الضباب. لا يمكن سرد حكاية إلا عندما تفضح البشرة على السطح المظهر الخارجي وعندما تظهر تلك الطبقات في الوعي التي تحدد أحكامنا وأحكامنا المسبقة وتحكم أفكارنا وأفعالنا. والأدب في المقام

الأول خبرة داخلية، فهو يتواصل بلغة تستوعب المحادثة الذاتية الصامتة التي تدور في ذهن شخص ما.

توجد في أوروبا لحظتي ميلاد للجماعات الوطنية، الأولى في المعركة والثانية على طاولة المفاوضات. ولا غنى لإحداهما عن الأخرى. لحظتا الميلاد هاتان يرتبطان بصورة دائمة تقريبا بمصاب أليم، وتهجير وإبادة جماعية. التذكر والكبت وجهان لعملة واحدة.

حاولت في روايتي «قرابة خطرة» إعادة تركيب حكاية لم يعد المرء يتذكرها: عن تورط جد البطل في تهجير الأرمن من الأناضول وانتحار الجد في عام ١٩٣٦ في ظروف غامضة، في ظل الشعور بالذنب ونفي المسؤولية.

وكان السؤال الذي رافقني هو: من سيتكلم عندما لا يتكلم أحد؟

يحلو للناس في تركيا اعتبار الثالث والعشرين من نيسان/ أبريل عام ١٩٢٠ هو بداية التاريخ التركي الحديث وهو تاريخ اجتماع المجلس الوطني في أنقرة لتحرير هضبة الأناضول من القوات المنتصرة التي احتلتها خلال الحرب العالمية الأولى. كان لتركيا اتفاقية مشابهة لاتفاقية فرساي التي فرضها الحلفاء على الألمان، فرساي تركيا كان اسمها سيفر. وقع السلطان والحكومة على هذه الاتفاقية وبموجبها أُحتلت اسطنبول وأجزاء من الأناضول. تمرد ضباط تحت قيادة مصطفى كمال باشا وأسسوا بعد حرب تحرير ناجحة الجمهورية التركية الحالية. لقد وُلدت أسطورة وطنية، تبعها تحويل التوجه الثقافي لتركيا نحو الغرب.

لكن منطقة الأناضول لم تكن تركية محضة. لقد جلب تحول الإمبراطورية العثمانية إلى دولة وطنية، يُزعم أنها متجانسة، الكثير من المعاناة معه. التهجير وسياسة صهر القوميات الأخرى في الهوية التركية وإنكار التاريخ والهوية. كانت الأحداث في أراضي الإمبراطورية العثمانية، أي في البلقان والأناضول وشبه الجزيرة العربية أثناء انهيار الإمبراطورية مروعة ودموية جدا، بحيث بدا النقاش حول تهجير غالبية الشعب الأرميني من الأناضول والنقاش حول عدد الضحايا والدوافع وراء ذلك بالنسبة لي كروائي أمرا غير قابل للمناقشة إطلاقا. فماذا يكسب المرء أو يخسر من كلمة «إبادة جماعية» التي يجري جدل شرس بشأنها، سوى أن يضع حدودا لجماعة الذاكرة الخاصة به؟

التاريخ الألماني . التركي لكن كيف تعمل جماعة ذاكرة قائمة حتى في تواريخ عائلاتها فقط على الكذب والزيف والتكتم؟ حاولت في روايتي المكتوبة بالتركية «مدرَسَة ألمانية» انطلاقا من الشخصية الرئيسية «صالح بيه» أن اقترب من التاريخ الوطني التركي المعقد. كيف تعمل القومية نفسيا، إذا كانت مبنية على خبرات مأساوية؟ أصل صالح بيه المولود عام ١٨٨١ من مقدونيا، يأتي إلى برلين عام ١٩٠٠ كضابط عثماني شاب، لكي يواصل تأهيله العسكري لدى الجيش القيصري الألماني، ويقع في غرام ابنة ضابط ألماني ويتزوجها ويصبح ضابطا ألمانيا يشارك في الحرب العالمية الأولى ويخرج من الخدمة عام ١٩١٨، ثم يصبح تاجرا ناجحا في برلين ما بعد الحرب. صالح بيه رجل وفي للقيصر، ويعتبر نفسه وطنيا مخلصا لألمانيا وتركيا، يحب التصوير ويسهم كمنتج في خروج أول فيلم روائي تركي إلى النور.

ينتقل قبيل الحرب العالمية الثانية مع زوجته أنيتّ إلى اسطنبول التي أصبحت في تلك الأثناء غريبة عليه. لقد انتقلا بناء على إلحاح من زوجته التي انتبهت على عكس صالح بيه لخطورة نظام هتلر وتقززت منه. لقد أدركت أن كارثة كبيرة تتهدد ألمانيا.

تموت أنيته بعد الانتقال إلى تركيا بفترة وجيزة ويبدأ صالح بيه في كتابة ذكرياته. في عام ١٩٤١ تكون القوات الألمانية قد توغلت في عمق روسيا. ألا ينبغي عليه أن يهب لدعمها؟ أليس في الاتحاد السوفيتي عدد لا حصر له من القوميات التي ترتبط علاوة على ذلك بصلة قرابة مع الأتراك والتي يمكن بسهولة كسبها لصالح ألمانيا؟

يشعر صالح بيه بالمسؤولية ويحاول أن يشارك بجهوده لكنه لا يلقى ترحيبا كبيرا من الجانب الألماني. ثم تأتي من برلين صديقته كارلا التي يعرفها منذ العشرينات. تقف أمام باب بيته في حالة مزرية. كانت في طريقها إلى فلسطين. تأتي لتنفض عن صالح بيه آخر أوهامه.

يتشابك في هذا الكتاب الغرور القومي وشرف العسكرية والوطنية والأصل والهوية مع بعضهم البعض بصورة معقدة. ولا تبقى الحدود بأي حال من الأحوال دائما واضحة بين الشخوص والمشاعر والأحداث الواقعية والأحلام والمخاوف والأوهام.

فثمة طفولة صالح بيه في البلقان، وهناك هويته العثمانية، وهنا صالح بيه كضابط ألماني وكرجل مسلم متزوج من ابنة ضابط ألماني، وصالح بيه الذي يشتهي أن يكون عميلا لدى الرايخ الثالث، ثم صالح بيه الذي يساعد امرأة يهودية في الهرب إلى فلسطين، ثم صالح بيه الذي نزع عنه الرايخ الألماني جنسيته، وصالح بيه الذي يتجسس البوليس السري عليه. من حياة في القرن العشرين تنشأ وجوه عديدة بجوازات سفر مختلفة ومصائر وأوطان عديدة ضائعة ومكتسبة ومرارا وتكرارا يكون الفرد هو ضحية الانتهاكات، تنتهك الإيديولوجيات وتنتهك مشاعره وينتهك حنينه للانتماء.

الحرب العالمية الأولى محور ومركز للكثير من الحكايات والكثير منها لم يُرو بعد.

ظافر سينوجاك كاتب وصحفي ألماني من أصل تركي يعيش ويعمل في برلين وتصدر أعماله بالألمانية والتركية.

ترجمة: أحمد فاروق

■ يرى بعض الباحثين أن „القرن العشرين، الذي لم يعمر طويلا“، بدأ بعملية اغتيال ولي عهد النمسا فرانس فرديناند في الثامن والعشرين يونيو ١٩١٤ على يد غافريلو برانسيب، وانتهى بسقوط جدار برلين عام ١٩٨٩. هذا القرن كان طويلا لصربيا وأجزاء أخرى من جمهورية يوغسلافيا السابقة. فالصراعات التي تسببت في اندلاع الحرب الأولى ما زالت مؤثرة حتى يومنا هذا.

متى تختفي آثار الحرب العالمية الأولى؟

الموت البطيء لغافريلو برانسيب

عالم غرابوفاتس ALEM GRABOVAC

استمر ميراث الإمبراطورية النمساوية المجرية وميراث الإمبراطورية العثمانية التي حكمت المنطقة لما يقرب من خمسة قرون إضافة إلى حركات التحرر القومية التي جاءت ردا عليها وتسببت في اندلاع الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ وفي الحروب الأهلية التي عرفتها يوغوسلافيا السابقة. إن القوميات كما أوضح ذلك فلاسفة اجتماعيون مثل إرنست غيلنر وبنيدكت أندرسون هي من اختراع الحداثة. ففي الماضي كانت هناك إمارات ومملكات وتكونت أغلبية الشعب من الفلاحين الأميين الذين كانوا يتماهون مع قريتهم أو قبيلتهم. وفقط مع ظهور التعليم الإجباري في المجتمعات الصناعية، وتطور لغات قومية وانتشار صناعة الكتاب والطباعة أصبح ممكنا للناس أن يفهموا أنفسهم كقوميات.

القوميات اختراع إن القوميات هي اختراعات وهي أيضا قابلة للاندثار. وفيما يتعلق بشعوب يوغوسلافيا فإنها نتيجة لصيرورة تكون قومي خلال القرن التاسع عشر والعقد الأول من القرن العشرين. فقد قارن المثقفون السلوفينيون والكرواتيون والبوسنيون والصربيون مبادئ الثورة الفرنسية والتطورات الاقتصادية في الدول الغربية



آثار الدمار على مبنى وزارة الدفاع في بلغراد
Photo: Alem Grabovac

مع واقعهم المتخلف في الإمبراطورية النمساوية المجرية (سلوفينيا، كرواتيا) أو الإمبراطورية العثمانية (البوسنة، صربيا، كوسوفو) ليقرروا بأن التحرر والتطور والتحديث لا يتم إلا باسم الأمة. وفي الوقت الذي أصاب الضعف الإمبراطورية العثمانية مع نهاية القرن التاسع عشر، تحولت الإمبراطورية النمساوية المجرية بعد ضمّ البوسنة والهرسك في العام ١٩٠٨ إلى العدو رقم واحد لصربيا وفي الثامن والعشرين من حزيران/ يونيو ١٩١٤ أطلق التلميذ غافريلو برانسيب الذي كان مسكونا بالإيديولوجية القومية النار على وليّ العهد النمساوي فرانس فرديناند من أجل تحرير الشعوب السلافية الجنوبية من „نير الحكم الأجنبي المتمثل في الإمبراطورية النمساوية المجرية". وقد أعقب ذلك حربان عالميتان، تأسست مع نهايتهما بقيادة المارشال جوزيف بروز تيتو جمهورية يوغوسلافيا الاشتراكية. أما تلاشي يوغوسلافيا فقد بدأ مع بداية عقد الثمانينات بسبب خليط من المشاكل الإثنية والدينية والقومية وخصوصا الاقتصادية. فسلوفينيا وكرواتيا الغنيتين طالبتا بحصة أكبر من عائدات اقتصادهما، في حين دافعت مناطق فقيرة كالبوسنة وصربيا ومقدونيا على التوازن المالي. وعلاوة على الصراع المالي، ظهر فراغ سياسي بعد وفاة تيتو الذي كان يحظى بشعبية كبيرة وحافظ على وحدة يوغوسلافيا المتعددة الأعراق، عام ١٩٨٠. وسيتم ملء هذا الفراغ شيئا فشيئا بإيديولوجيات قومية.





أسطورة الضحية ضد الإسلام أحد أبرز زعماء الإيديولوجية القومية كان منذ البداية سلوبودان ميلوزوفيتش. فكرئيس للحزب الشيوعي ورئيس لصربيا استغل التحفظات القومية داخل يوغوسلافيا لتقوية سلطته. فقد قدم نفسه كرجل قوي جاء ليعيد لصربيا أمجادها الضائعة. وفي سنوات ١٩٨٨ و ١٩٨٩ عوّض النخبة السياسية الحاكمة في الأقاليم الصربية: كوسوفو وفويفودينا بأتباعه وعدّل بذلك العمل بالحكم الذاتي. وكان خطابه في الثامن والعشرين من حزيران/ يونيو ١٩٨٩ بمناسبة مرور ستمائة عام على معركة حقل الشحارير في كوسوفو، والتي انهزم فيها الجيش الصربي أمام العثمانيين، ذروة القومية الصربية الجديدة، ففي ظل حضور من المثقفين والقيادات الجديدة وتصفيقات الشعب الصربي أعاد إحياء أسطورة الضحية الصربية، مقدما نفسه كقائد سيصحح هزيمة ١٣٨٩ عبر إلغاء الحكم الذاتي لإقليم كوسوفو، ليرد الإسلام بذلك على أعقابه ويسترجع بذلك «قلب» الأمة الصربية. وفي الجمهوريات اليوغوسلافية الأخرى جنح الجميع إلى استعمال الورقة القومية، فسلوفينيا وكرواتيا نظرتا إلى أنفسهما كآخر قلاع منظومة القيم الأوروبية الرومانية الكاثوليكية في المنطقة والصرب حلموا بصربيا كبرى، مسيحية أرثوذكسية، غير آخذين بعين الاعتبار الحقائق التي أفرزها الحكم العثماني في المنطقة، أما ألبان البوسنة وكوسوفو، فقد وجدوا أنفسهم محاصرين بالأعداء، ولم يعد بإمكانهم حماية أنفسهم إلا عبر تأسيس قومية مستقلة. وهكذا بدا التلويح بالأعلام وتأكيد الاختلافات وخلق الأعداء والأساطير. لتندلع شرارة الحرب في المنطقة، حرب سلوفينيا عام ١٩٩١ وكرواتيا بين ١٩٩١ و ١٩٩٥ والبوسنة ما بين ١٩٩٢ و ١٩٩٥ وكوسوفو عام ١٩٩٩. خسرت صربيا كل الحروب وتوفي ميلوزوفيتش في لاهاي داخل زنزانته، بعد أن مثل أمام محكمة جرائم الحرب.

مائة عام بعد ذلك ... صيف ٢٠١٣. قامت الخارجية الصربية بدعوة مجموعة من الصحفيين الألمان والنمساويين وكنت أيضا برفقتهم للقيام برحلة صحفية إلى بلغراد وكوسوفو. إن الحكومة الصربية تطلب الالتحاق بالاتحاد الأوروبي بعد عقود من الانحراف القومي وكان علينا، وكان هدف الدعوة، أن نتحدث عن مصداقية هذه الرغبة.

تبلغ ساكنة بلغراد مليونا وسبعمائة ألف شخص، الشوارع مزدحمة ولا وجود للمترو هنا، وحركة السير الكثيفة تصم الآذان. لقد تم بناء المدينة على عديد من التلال وتقود الشوارع الواسعة إلى نهري سافو والدانوب. وعلى مرتفع تقف كاتدرائية القديسة سافا التي بنيت على الطراز الصربي البيزنطي، والتي تعتبر من أكبر الكنائس الأرثوذكسية في العالم وإذا توجهنا قليلا إلى الأسفل سنصل إلى ساحة سلافيا، التي تتواجد بها بنايات حكومية عالية. إنها مدينة متماسكة وبخليط هندسي متوحش، أبنية خرسانية تعود إلى العهد الاشتراكي ، فيلات متآكلة، بنايات أنيقة وواجهات متفتتة وبنايات حكومية على الطراز النيوكلاسيكي.

ساحة في المدينة القديمة لسراييفو
Photo: Stefan Weidner

لقد تسببت حروب التسعينيات بالإفلاس للبلد، فالدخل الفردي السنوي يبلغ ٤٩٤٣ دولارا، خلف جامايكا والإكوادور، ولا يتجاوز متوسط الأجور خمسمائة يورو، وثلاثون في المائة من اليد العاملة تعاني من البطالة. وفي أوساط الشباب فإن المشكل مستفحل بشكل أكبر، فواحد من كل اثنين بلا عمل، وغادر فقط في العقد الأخير ثلاثون ألف شاب متعلم صربيا في اتجاه الدول الغربية. وفي مركز المدينة نشاهد أكواما كبيرة من الخراب تعود لوزارة الدفاع السابقة، وهي إحدى الآثار القليلة الواضحة لهجوم الناتو الذي استمر ثمانية وسبعين يوما على بلغراد. أسأل أحد العابرين، ما إذا كانت أكوام الخراب هذه نوعا من نصب تذكاري يذكر بالحرب. فأكتشف بأن هذا الشخص والذي يدعى توميسلاف عمل لسنوات في مدينة فرانكفورت. يقول لي في ألمانية طليقة: „لا، لا، فالحكومة الصربية لا تملك المال لإعادة بناء هذه البناية." ولما عرف توميسلاف البالغ من العمر ثلاثة وخمسين عاما، صاحب البنية القوية والبطن الضخمة بأنني صحفي، تابع قائلا: „أخبر من فضلك للناس في ألمانيا بأن بلغراد مدينة متسامحة ومنفتحة على العالم وأنها تنتمي إلى أوروبا. سئمنا من الحروب والقومية. لا نريد أي علاقة بذلك. إننا ننتمي إلى أوروبا!" وبالفعل فإن المراقب الأجنبي لا يملك إلا أن يعترف بأن الناس هنا لا يطلبون أكثر من حياة هادئة وعادية.

الصراع في كوسوفو والحرب العالمية الأولى بدأت الرحلة إلى كوسوفو في الساعة الثامنة مساء. نيكولا، سائقنا، يسوق بطريقة مسرعة وهو يعشق كما لمسنا ذلك في اليومين التالين الموسيقى الشعبية الصربية. رافقنا في هذه الرحلة كل من ميلان وسوفيا، وهما موظفان في الخارجية الصربية، توجب عليهما أن يؤديا رفقتنا دوري المرشد السياحي والمترجم. وصلنا بعد خمس ساعات إلى نقطة حدودية وهي بناية صغيرة من حديد وخشب. في السابع عشر من شباط/ فبراير ٢٠٠٨ أعلن البرلمان في بريشتينا استقلاله عن صربيا، لكن الوضعية القانونية للبلاد مازالت موضع خلاف، فصربيا لا تعترف بهذا الاستقلال شأنها في ذلك شأن بلدان أوروبية أخرى هي اليونان ورومانيا وسلوفاكيا وإسبانيا وقبرص، ومع ذلك فإنه تم طبع جوازاتنا عند الدخول.

لوحات معدنية تخليدا لذكرى ضحايا حصار سراييفو
Photo: Stefan Weidner

توقفنا لأول مرة في قرية غورازديفاك في غرب كوسوفو. القرية صربية، تحميها قوات دولية أربعا وعشرين ساعة يوميا. ففي السنوات الماضية نشبت صراعات جديدة بين الصرب والألبان. حللنا ضيوفا على أسرة داكيتس. استقبلنا المضيف بكؤوس من الخمر المحلي. الأم والأب والابن يجلسون ثلاثتهم على كنبة، وعلى الجدران علقت صور للقديسين الأرثوذكس وصورة للابن باندو الذي قتله قناص ألباني خلال سباحته في البحيرة. يحكي لنا ميليسلاف، وهو رجل ذو بنية قوية وحاجبين كثيفين قصة ما



حدث: "في آب/ أغسطس ٢٠٠٣ كان ابني الذي كان يبلغ يومذاك ثلاث عشرة سنة يسبح رفقة أطفال آخرين، حين أقدم ألباني على إطلاق النار عليهم، بكل بساطة وعن حقد. جرح ستة أطفال أما ابني باندو، فقد أسلم الروح بين ذراعي في المستشفى. فالأطباء الألبان رفضوا علاجه. أما الفاعل، وعلى الرغم من أن الجميع هنا يعرف هويته، إلا أنه مازال حرا طليقا. فالسلطات الألبانية تحمي قاتل ابني. لا أحد يقدم لنا هنا يد المساعدة. على العالم أن يفهم أننا، نحن الصرب، هم الضحايا الفعليون في كوسوفو". بدا خطاب السيد داكيتس كما لو أنه محفوظ عن ظهر قلب. وبدا التأثر على مرافقينا الصربيين. لقد عرضت علينا أسرة داكيتس كضحية واستغل قدرها المؤلم لأغراض دعائية. لكن من العبث أن يزعم أحدهم بأن الصرب وحدهم الضحية في كوسوفو. فقد أقدم ميلوزوفيتش على إبطال قوانين الحكم الذاتي التي كان يتمتع بها المسلمون الألبان في كوسوفو فعانوا خلال فترة حكمه من التمييز والتهجير والقتل.

نواصل رحلتنا بعدها إلى دير ديكاني. تحمل سيارتنا رقم مدينة بلغراد. لا نحتاج إلى حماية، لكن بين الحين والآخر يلوح فلاح ألباني بيده غاضبا ومتوعدا. ويبدو كما لو أن عمليات البناء تجري هنا في كل مكان على قدم وساق، وخلال الظهيرة، بحرارتها الخانقة، تظهر لنا بنايات كثيرة في أشكال مختلفة لم ينته العمل فيها، وفي كل القرى والمدن تلوح الأعلام الألبانية. كما أنه أطلقت أسماء من قبيل بيل كلينتون وواشنطن أو البيت البيض على المطاعم والمحلات التجارية والمقاهي شكرا للتدخل الأمريكي في حرب كوسوفو عام



١٩٩٩. كما أن المرء لا يعدم رؤية القبور الحديثة العهد على جانب الطريق. وفوق القبور صور لمقاتيلين في جيش تحرير كوسوفو بزيهم العسكري وسلاحهم. ويذكر تقرير لمحكمة جرائم الحرب الأممية، يعود إلى سنة ٢٠٠٢، أن عشرة آلاف من ألبان كوسوفو لقوا حتفهم خلال هذه الحرب.

الدين والقومية تظهر جبال بروكليتيي للعيان والتي يقع خلفها جمهوريتا مونتينيغرو وألبانيا. مساء نعبر مدينة ديكاني، التي تقع أسفل الدير. نشاط محموم يعمّ المدينة، فألبان كوسوفو يحتفلون بمناسبة ما وفي كل مكان ترتفع الأعلام الوطنية. بعيد مغادرتنا للمدينة، عند بداية طريق جبلي، مررنا على أول نقطة للمراقبة التابعة للأمم المتحدة. فالدير الذي كان ملجأ خلال حرب كوسوفو للصرب والألبان والغجر، هوجم عشرات المرات بقنابل الهاون وغيرها من طرف المتطرفين الألبان.

يخيم هدوء مقدس على جدران الدير، التي تظهر من خلفها قمم جبال وغابات وتصلنا من وراءها زقزقة العصافير. يعتبر الدير من أكبر بنايات صربيا القرون الوسطى، وقد بني بين ١٣٢٨ و ١٣٣٥، وصنف من طرف اليونسكو كتراث ثقافي إنساني. استقبلنا الأب سافا وهو مدير الدير. يقودنا الأب سافا بشعره الطويل ولحيته الكثة وبطنه الكبيرة وبدلته السوداء داخل الكنيسة الكبيرة بأعمدتها العالية وجدارياتها التي تعود إلى القرون الوسطى وأيقوناتها الثمينة ونوافذها القوطية وقبور الملوك الصرب. وبالنسبة للعديد من الصرب فإن الأديرة والكنائس في كوسوفو والتي تعود إلى القرون الوسطى تمثل أصل ثقافتهم. وخلال حرب كوسوفو دُمرت ستة وسبعون كنيسة وديرا. وعند تناولنا لطعام العشاء حدثنا الأب سافا في انجليزية ممتازة عن الخوف الذي يتملكه كلما تعرض الدير للهجوم. ومؤخرا وخلال أعياد الميلاد نشبت أعمال عنف جديدة. فقد حاول ألبان كوسوفو عرقلة قداس أعياد الميلاد. كانوا ناقمين لأنهم يطالبون بنصف أراضي الدير وهو ما يرفضه. إن الحقد، كما يقول، ما زال ضاربا بجذوره في الأعماق. ومن أجل الذهاب للتسوق في صربيا يحتاج سكان الدير لمرافقة الجنود الأمميين، بل وما كان لهذا الدير أن يستمر في الوجود لولا الجنود الإيطاليين. فألبان كوسوفو لن يتأخروا في تدميره وقتل رهبانه. يأمل الأب سافا أن تتحسن الأوضاع في السنوات القادمة وأن يتمكنوا من العيش في سلام مع ألبان كوسوفو. قضينا الليلة في غرف للرهبان. وحضرنا في اليوم التالي قداس الأحد في الكنيسة، الذي يحج إليه صرب المنطقة مستقلين الحافلات وفي ظل حماية القوات الدولية. ردد الأب سافا وبقية الرهبان أناشيد سلافية مقدسة. رائحة البخور تعم المكان، شموع مشتعلة ومؤمنون يقبلون الأيقونات المقدسة. بدا غريبا أن يكون هذا المكان المسالم في حاجة لحماية من الجنود. وبعيد القداس غادرنا الدير، عائدين إلى بلغراد. ليومين كاملين حدثنا المرء عن ضحايا صرب، ولم نلتق البتة بأي ألباني. طبعا إنها قصص مؤلمة تلك المتعلقة بالتمييز العنصري والاعتداء على الكنائس وقتل الأبناء، لكن إذا ما تواجدنا على الجانب الآخر عند ألبان كوسوفو لسمعنا القصص المرعبة نفسها. ولربما أرادت الحكومة الصربية أن تظهر لنا خلال هذه الرحلة الدعائية المشاكل التي تواجهها. لكن من المحزن أنها ضيعت فرصة أن تسرد علينا القصة كاملة والتي ينتمي إليها ألبان كوسوفو أيضا.

سياسيون متحولون وفي اليوم التالي التقينا في بلغراد رئيس الوزراء ايفيكا دافيتش ونائبه الكسندر فوتشيس، الذي يعتبره الكثيرون أقوى رجل في صربيا. وعلى الرغم من أن الاثنين كانوا قوميين عملوا لصالح سلوبودان ميلوزوفيتش، لم نسمع منهما أي عبارات قومية. لقد أصبح رجال السلطة الجدد في بلغراد براغماتيين يطلبون الدخول وبأي طريقة إلى الاتحاد الأوروبي. وبسبب الضغط الأوروبي وقعوا على اتفاق مع رئيس وزراء كوسوفو هاشم تاتشي، يقضي باندماج الجماعات الصربية التي بلغ عددها مائة ألف نسمة في الدولة الكوسوفية مقابل منحهم حقوقا كثيرة. ألكسندر فوتشيس قال عن هذه الخطوة: "لسنا حالمين. تمكنا من إقناع شعبنا من أننا مضطرون للتوقيع على هذا الاتفاق. إنه أمر صعب بالنسبة للصرب في كوسوفو وهم يكرهونني لذلك. لكن لا يوجد بديل عن ذلك. لقد قمنا بحلّ المشكلة ونريد الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي". إنه أمر يثير الاستغراب أن القوميين الذين كانوا يحلمون بصربيا الكبرى هم من يساهمون اليوم في الاستقلال التدريجي لكوسوفو. لقد تأقلمت النخبة السياسية في بلغراد مع روح العصر وتحول قوميون متطرفون إلى ديمقراطيين يتمتعون بالمرونة. لكن هذا هو مسار التاريخ ولربما يكونون وحدهم القادرين على توقيع اتفاق من هذا القبيل، لأن أي حكومة يسارية لم تكن لتتوفر على غطاء شعبي كاف للقيام بذلك. وفي الثامن والعشرين من حزيران/ يونيو قرر زعماء حكومات ودول الاتحاد الأوروبي أن تبدأ مفاوضات انضمام صربيا إلى الاتحاد الأوروبي بداية ٢٠١٤. وموازاة مع ذلك يتوجب البدء في محادثات شراكة مع كوسوفو. فهذه خطوة باتجاه مفاوضات الشراكة. لكن الملح الآن حسب بروكسل هو أن يعمل الطرفان على تطبيق ما جاء في اتفاقية تطبيع العلاقات. ولهذا سيتم بحث التقدم الذي تحقق في هذا السياق شهر كانون الأول/ ديسمبر المقبل قبل أن تبدأ مفاوضات الانضمام إلى الاتحاد. ورويدا رويدا تخلد السرديات القومية للقرن العشرين إلى الصمت في البلقان. فما كان مرة إيديولوجية للتحرر الوطني تحول مع مرور الوقت إلى نوع من الدين الجديد، بديل وهمي عن التحديث وعن التغيير البراغماتي لينكشف في النهاية كمجرد كلمات فارغة، لا تستطيع ما هو أكثر من التدمير الذاتي. لقد تراجع النموذج القومي في زمن العولمة. سلوفينيا وكرواتيا التحقا بالاتحاد الأوروبي وستلحق بهما صربيا ودول أخرى في السنوات المقبلة، ومن سخرية التاريخ أن هذه الدول التي عاشت كل تلك الصراعات القومية الدموية ستتوحد يوما داخل الاتحاد الأوروبي. فمرحبا بكم في القرن الواحد والعشرين.

عالم غرابوفاتش كاتب وصحفي يقيم في برلين.

ترجمة: رشيد بوطيب

■ بين عامي ١٩١٢ و ١٩٢٠، وبينما كان الشرق الأوسط وأوروبا يحترقان بأوار الحرب العالمية الأولى، خطا كاتبان لبنانيان خطوة جبارة على طريق الأدب العربي الحديث في المهجر الأمريكي وتحت تأثير الأدب الروسي. لقد أدى انهيار النظام القديم في الشرق الأوسط إلى إطلاق قوة التجديد الأدبي من قمقم الركود.

الطرق الالتفافية للحداثة

إبداع الحداثة عقب الحرب العالمية الأولى

أندرياس فليتش ANDREAS PFLITSCH

ستغير إحدى أمسيات نهاية نيسان/ أبريل عام ١٩٢٠ مجرى الأدب العربي. فقد التقت مجموعة من الكتاب السوريين واللبنانيين تلبية لدعوة عبد المسيح حداد في الدار رقم ١٥ في الشارع العاشر غرب نيويورك. وغدا هذا اللقاء ولادة الرابطة القلمية، التي سيساهم أعضاؤها في تجديد مسار النثر العربي. قبل أسبوع من ذلك اليوم كان البعض قد عقد لقاء شخصيا في بيت ابن مدينة حمص السورية عبد المسيح حداد، صاحب مجلة السائح، وتحدثوا في وضع الأدب العربي المعاصر. وتساءل الأصدقاء كيف للكتاب السوريين في نيويورك المساهمة في تحرير الأدب العربي „وانتشاله من وهدة الخمول والتقليد إلى حيث يصبح قوة فعالة في حياة الأمة." بتعبير ميخائيل نعيمة (١٨٨٩ - ١٩٨٨) المشارك في ذلك اللقاء.

الإمبراطوريات والأمم وكان الاجتماع الذي عقد في نيويورك أحد الردود على الاضطرابات الهائلة التي غيرت النظام العالمي نهائيا خلال الحرب العالمية الأولى منذ ١٩١٤. فقد زالت عن وجه البسيطة الإمبراطوريات العظمى لآل هابسبورغ وآل رومانوف والعثمانيين وهي التي كانت تحدد مصائر العالم من وسط أوروبا إلى شرق المتوسط حتى آسيا. وجعل الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون مبادئه الأربعة عشر عن حق تقرير المصير للشعوب، التي كان قد أعلنها عام ١٩١٨، أمثولة للسياسة الدولية. بعدها لن تكون الأسر حاملة السلطة، بل الأمم وعلى هذا الأساس تشكلت عصبة الأمم عام ١٩٢٠. والعالم الذي غادره المهاجرون العرب قبل الحرب العالمية الأولى بسبب الوضع السياسي القاتل في الدولة العثمانية المتأخرة ولأسباب اقتصادية، لم يعد قائما بعد الحرب.

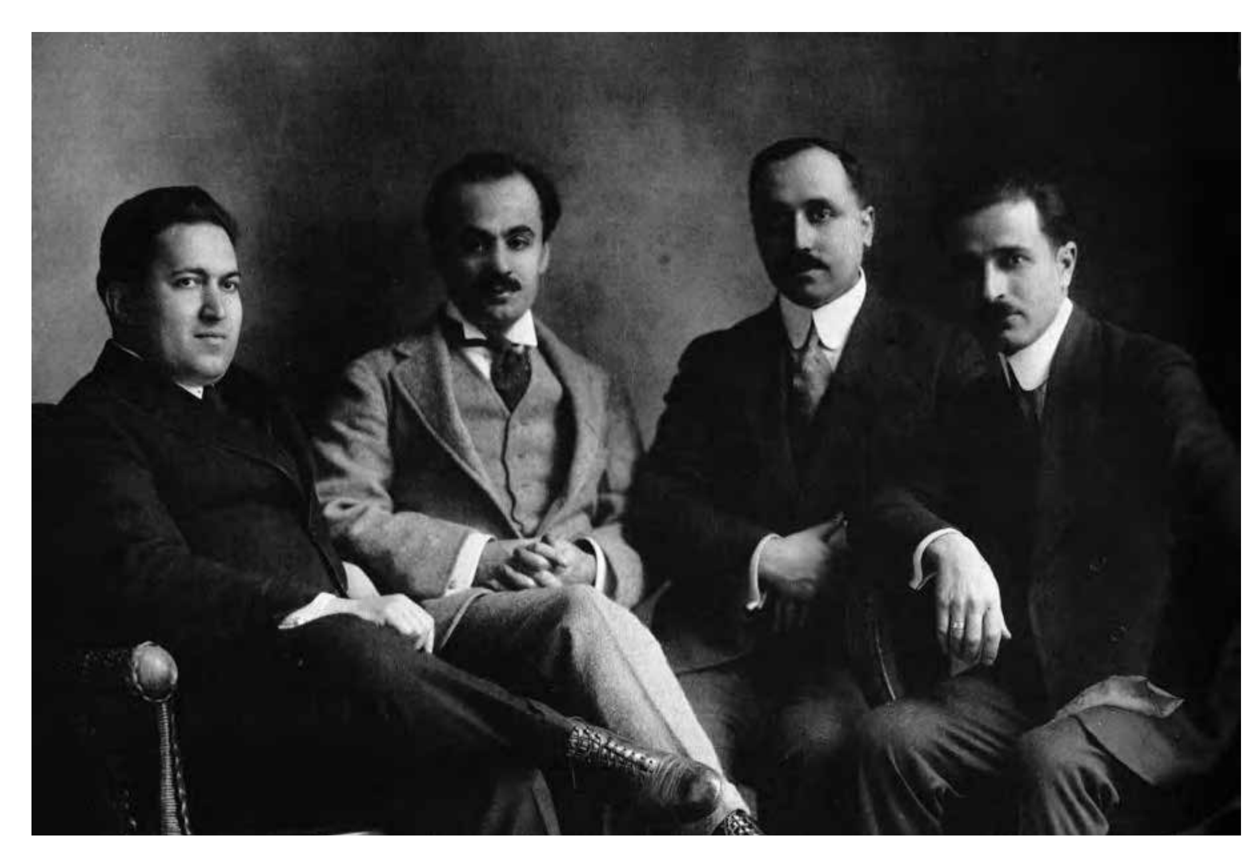
سعى الكتاب العرب في أمريكا في ذلك الوقت لحجز مكان لهم وبدؤوا بإعادة تقييم دور الأدب على خلفية التبدلات الطارئة على مفهوم الوطنية. كيف ينبغي أن يكون مستقبل بلدان شرق المتوسط؟ وما الدور الذي يجب أن يضطلع به الأدب؟

لم ينبثق زخم تجديد الأدب العربي، بناء على هذا المناقشات، من تأثيرات الثقافة الأمريكية فقط، بل بدفق واسع من التأثيرات الروسية بدورها. في عامي ١٩١٢ و ١٩١٣ كانت تصدر في نيويورك مجلتان أدبيتان عربيتان على قدر عال من الأهمية، هما السائح والفنون، تحت إشراف عبد المسيح حداد ونسيب عريضة (١٨٨١-١٩٤٠) وميخائيل نعيمة، وهم الثلاثة من خريجي معهد المعلمين الروسي في الناصرة.

من لبنان إلى أمريكا عبر فلسطين وروسيا ولد ميخائيل نعيمة عام ١٨٨٩ في قرية بسكنتا اللبنانية. واظب هناك على مدرسة متواضعة جدا بناها النبلاء اليونان الأرثوذكس وتحسنت الأوضاع كثيرا عندما فتحت جمعية فلسطين الروسية عام ١٨٨٩ مدرسة في بسكنتا، حيث قضى نعيمة ثلاث سنوات قبل اختياره لإتمام تعليمه في معهد المعلمين التابع للجمعية الفلسطينية في الناصرة والذي دشن عام ١٨٨٦. وفي عام ١٩٠٢ غادر ابن الثالثة عشرا قريته راكبا بغلا إلى بيروت ومنها أبحر على ظهر سفينة إلى حيفا وواصل رحلته إلى الناصرة راكبا حمارا.

كان التدريس في المدارس الروسية والمعهد باللغتين العربية والروسية ومن خلالها وجد نعيمة طريقه إلى الأدب العالمي. كلما نمت مهاراته بالروسية كلما ازداد حماسة للقراءة. وبينما هو في الناصرة قرأ بعض روايات جول فيرن بترجمتها الروسية. كما قرأ بعض أقاصيص تشيخوف وتولتسوي وكذلك الجريمة والعقاب لديستويفسكي كاملة، على روايته. وفي عام ١٩٠٦ غادر الناصرة ليلتحق بمعهد اللاهوت في بولتوفا الأوكرانية وبذلك فتحت للشاب اللبناني بوابات عالم جديد كليا. تعمق نعيمة في الأدب الروسي، تعلم الموسيقى والرقص الشعبي الروسي وفرغ جل وقته للأدب، حيث كتب أولى القصائد بالروسية كما كتب أولى يومياته بها.

صورة عن العالم بطابع روسي في بولتوفا أُخِذَ نعيمة بميخائيل ليرمنتوف (١٨١٤-١٨٤١)، حيث وجدت روحه صدى لها في تعظيم ليرمنتوف الرومانسي للطبيعة، وفهمه الأفلاطوني للروح وخصوصا نقده الشديد للظلم الاجتماعي. وفي شعر ليرمنتوف النقدي وجد نعيمة إحالة على الأوضاع في وطنه لبنان. لقد فتح تصوير الإقطاع وموظفي الدولة الفاسدين ورجال الكنيسة في الأدب الروسي في القرن التاسع عشر عيني نعيمة على مشاكل مجتمعه الشبيهة. وقبالة هذا العالم الفاسد كان هناك عالم مثالي، يوتوبي من „البساطة



صورة تجمع ميخائيل نعيمة بجبران خليل جبران ونسيب عريضة وعبد المسيح حداد

والحقيقة والجمال" اكتشفه نعيمة لدى ليف تولستوي (١٨١٨-١٩١٠). أكثر ما أقنع نعيمة هو عداء تولستوي لرجال الدين وتمييزه بدون هوادة بين المسيح الحق والكنيسة الفاسدة، لأنه شاهد بأم عينيه أوضاعا مشابهة في لبنان. حيث كتب لاحقا إلى المستعرب الروسي ايغناتس كراكوفسكي: „ثورة داخلية ضد الكنيسة وعقائدها الجافة جعلتني أبحث عن ملاذ في كتابات تولستوي الأخيرة".

بيد أن نعيمة لم يعثر لدى الكتاب الروس على جواب على أسئلته الدينية وحسب، بل وجد أيضا أجوبة حول مسألة الهوية الثقافية. لا بد أن نعيمة كان على دراية بالنقاش الدائر حول الهوية الروسية بين الشرق والغرب كما مارسه المستغربون والسلافيون مع أفول القرن التاسع عشر. في رسائله في فلسفة التاريخ (١٨٢٩-١٨٣١) كان بيير كاداييف (١٧٩٣-١٨٥٦) قد اشتكى أن روسيا ليست جزءا من الحضارات الكبرى فهي لا تنتمي لا إلى الشرق ولا إلى الغرب. جاء نعيمة إلى روسيا ممثلا لحضارة شرقية تضاءلت ثقتها بنفسها كثيرا خلال العقود الماضية، حيث يزداد الشعور بالهوان قبالة الغرب. وإذا كان الروس قد تمكنوا من تجاوز الوضع الذي اشتكى منه كاداييف وبنوا حضارتهم الخاصة، فلا بد أن العرب أيضا قادرون بعراقتهم على تجاوز ضعفهم الراهن. إن التوافق مع قناعات السلافيين بتفوقهم على الغرب وحضارته يفسر الموقف الواثق لنعيمة في مقالاته في النقد الحضاري التي كتبها لاحقا في أمريكا ولبنان.

علاوة على جوانب النقد الاجتماعي في الأدب الروسي والتساؤلات الفلسفية الحضارية للسلافيين كان لنهج أشهر النقاد الروس آنذاك فيساريون بيلينسكي (١٨١١-١٨٨٤) تأثير مستديم على نعيمة. ركز بيلينسكي على الدور الاجتماعي للأدب. وكناقد حضاري على منوال كاداييف كتب في رسالة إلى قسطنين اكساكوف: „كيف ينبغي أن تكون حياتنا؟ أين هي وما غايتها؟ نحن كثير من الأفراد الذين يعيشون خارج المجتمع لأن روسيا ليست مجتمعا. إن حياتنا ليست سياسية ولا دينية، ليست علمية ولا أدبية. ضجر، خمول، خيبة أمل وجهد عقيم ـ هذه هي حياتنا"، ثم يدعو إلى أدب روسي بحت: „ما نحتاجه هو عصر تنوير نخلقه نحن، نزرعه في أرضنا. ليس لنا أدب خاص؟ غير أن بذور الغد تنمو اليوم وذات يوم سيكون لنا أدبنا الخاص وعندئذ سنكون منافسين لأوروبا وليس مقلدين". كان هدفه الرئيسي العودة عن مفهوم الفن المثالي والتوجه إلى أدب واقعي. وفي آخر أيامه جمع إلى موقفه التشاؤمي الأمل في الأدب، فقد كتب في رسالة إلى نقولاي غوغول في عام ١٨٤٧: „رغم الرقابة البربرية إلا أن أدبنا وحده يظهر علامات الحياة والمضي قدما". لا بد أن هذه الأفكار كانت مألوفة لنعيمة نظرا للنقاش بشأن تجديد الأدب العربي في سياق النهضة. فهو يكتب في يومياته الروسية: „لا نزال نفتقر إلى الأدب بمعناه الحرفي. لا يسع أحدنا أن يسمي جاداً ما ننتجه أدباً". في مقالاته الأدبية اللاحقة ينادي نعيمة بتحرير الأدب العربية من الأغلال الشكلية للكلاسيكية الجديدة. نصوصه عن الأدب بين ١٩١٤ و ١٩٢٢ والتي جُمعت ونُشرت

عام ١٩٢٣ في كتاب بعنوان «الغربال» تعتبر أول نقد أدبي عربي حديث.

إلى نيويورك عير سياتل بعد التوقف عن الدراسة في بولتوفا عاد نعيمة عام ١٩١١ إلى لبنان، إلا أنه غادره مرة أخرى بعد عدة أشهر إلى سياتل هذه المرة، حيث يعيش أخ له. وهناك قرأ بالصدفة عام ١٩١٢ نثرا لجبران خليل جبران دون أن يعرفه، وبالصدفة أيضا حصل على عدد من مجلة الفنون. وعندما أهداه بعدها بقليل صديق لبناني نسخة من الأجنحة المتكسرة لجبران، اتصل من فوره بنسيب عريضة. وعليه ظهرت أول مادة لنعيمة في مجلة الفنون بعنوان «فجر الأمل بعد ليل اليأس»، حيث يرصد الأدب العربي المعاصر رصدا سلبيا ويحلل تأثير جبران على الأدب العربي ويخلص إلى أن جبران: „أول صوت حقيقي للمواطنين العرب في المهجر" وأن أعماله هي „بدء فجر الأدب العربي".

جبران المجدد مكرَها في هذه التركيبة التاريخية أصبح جبران مكرها رائدا للحداثة في الأدب العربي. باكوراته النثرية تتميز بسهولة اللغة، بل بسذاجتها. أبرز مواطن ضعفها تكمن في لهجتها العاطفية، وتكمن أكثر في سوء تصوير الشخصيات التي لا تتميز إلا نادرا بخصال فردية وغالبا ما لا تكون سوى بوق لأفكار مؤلفها في النقد الاجتماعي والفلسفة الدينية. وعوضا عن أحداث تتطور فإن في هذه الأقاصيص مجرد تراكيب متنازعة دون أي ديناميكية داخلية تنتهي دون مفاجآت نهاية وعظية رغما عنها. ما يعتبر اليوم عيبا كان بالنسبة للنثر الحديث، قيد التجريب آنذاك، على درجة عالية من الأهمية، فالمفردات العادية والسياق البسيط في أعمال جبران (ضعيف العربية مقارنة بالشعر العربي التقليدي المتقن في زمنه) أعتبر محاولة ترمي لقهر نظام الشعر العربي الصارم والساري عندئذ والوصول إلى سرد عربي حديث. في هذه النقطة تلاقت قدرات جبران اللغوية المحدودة بما اقترضه نعيمة من برامج تحديث الأدب الروسي. وافتتح تاريخ جديد للأدب: فمفكر من وزن أدونيس يرى في جبران فاتحة الشعر العربي الحديث.

كما أن نعيمة ذاته ساهم عام ١٩١٤ عبر مجموعته القصصية «كان يا ما كان» بقسطه في حركة التجديد وتأليف قصص عربية حقيقية حسب حفيده نديم نعيمة: „ظهرت أول قصة عربية ناضجة عندما دخل المسرح عام ١٩١٤ تلميذ للواقعية الروسية في القرن التاسع عشر".

عالم الأمس في مهجرهم الأمريكي شهد الكتاب العربي غروب العالم المعروف لديهم في أعقاب الحرب العالمية الأولى. لم تغب فقط شمس الدولة العثمانية، بل زالت أيضا الإمبراطورية الروسية عن الوجود. لم يستسغ نعيمة الاتحاد السوفيتي. عندما زاره للمرة الأولى والأخيرة عام ١٩٥٦ تلبية لدعوة اتحاد الكتاب السوفيت لم يجد شيئا من روسيا(ه). وفي العالم التالي كتب „أبعد من موسكو ومن واشنطن"، وفيه ينأى بنفسه، على خلفية الحرب الباردة، عن الشرق الاشتراكي والغرب الرأسمالي معا. منذ عودته إلى لبنان في مطلع الثلاثينات كان قد أعرب عن استيائه من أمريكا ونقدها وطور «رؤية للشرق» واثقة مستمدة من حجج السلافيين الروس.

وكان جبران خليل جبران قد وضع في أمريكا رؤيته عن الشرق وفي منفاه البعيد وقع ضحية للشوق والحنين إلى وطنه لبنان: فالوادي المقدس، العزلة الشرقية، شجرات أرز عمرها ألف سنة، وأشجار التنوب الخضراء، الينابيع الفوارة والكهوف صعبة المنال في الجرود، كل هذا كوّن „إطار شباب جبران وهو في الوقت نفسه ركيزة قاموس أعماله"، حسب جان بيار دحداح، كاتب سيرة جبران. أما فيما يتعلق بالهوية السياسية فقد وضعها جبران على الورق في مقال نشره عام ١٩١٣ في مجلة الفنون باقتضاب: إنه فخور بلبنانيته، فخور بأنه ليس عثمانيا، إنه ابن وطن جميل وأمة ذات ماض مجيد، إلا أنه ليس لديه دولة تحميه. وبهذه فهو شرقي العادات، سوري الهوى، لبناني الشوق. لم يعلق على التغييرات السياسية العميقة في شرق البحر الأبيض المتوسط في أعقاب انهيار الإمبراطورية العثمانية. كما ظل مرتبطا بالقومية اللبنانية والسورية. وحين يتكلم عن قوميته، كان يعني القومية العربية ويفهمها في المقام الأول كجماعة لغوية واحدة وأمة حضارية. ورفض التحزب السياسي والإيديولوجي وأعرب عن وجهة نظر مثالية عن لبنان في مقال عام ١٩٢٠ يكثر الاقتباس منه : „لكم لبنانكم ولي لبناني. لكم لبنانكم ومعضلاته، ولي لبناني وجماله. لكم لبنانكم بكل ما فيه من الأغراض والمنازع، ولي لبناني بما فيه من الأحلام والأماني." التجلي الرعوي في نظرته إلى لبنان يجعل منه بالأحرى شاعرا محليا أكثر من كاتب قومي.

الدائرة تكتمل بعد مقالته عن جبران عام ١٩١٣ بدأ نعيمة بالكتابة دوريا لمجلة الفنون وانتقل عام ١٩١٦ للعيش في نيويورك. عند تأسيس الرابطة القلمية اختير جبران رئيسا لها وكتب نعيمة باعتباره سكرتيرها بيانها الشعري. وترد فيه إشارات واضحة إلى بيلينسكي: „الحركة الجديدة التي جعلت هدفا لها بث روح جديدة في جسم الأدب العربي وانتشاله من وهدة الخمول والتقليد إلى حيث يصبح قوة فعالة في حياة الأمة. إن هذه الروح الجديدة التي ترمي إلى الخروج بآدابنا من دور الجمود والتقليد إلى دور الابتكار والاستنباط في جميل الأساليب والمعاني، لحرية في نظرنا بكل تنشيط ومؤازرة". كان المنحى نحو الأمام فقط، نحو مستقبل مجهول، لكنه مفعم بالتفاؤل. وكان للحداثة الأدبية أن تبدأ.

أندرياس فليتش مدرس مادة الأدب العربي الحديث في جامعة برلين الحرة.

ترجمة: كاميران حوج

إضـــاءات

في عام ١٩٦٣، أي قبل ٥٠ عاماً بالتحديد، صدر العدد الأول من مجلة ألمانية باللغة العربية تحمل اسم «فكر وفن». كان صدور مثل هذه المجلة، الموجهة من الألمان إلى العالم الإسلامي، مشروعاً فريداً من نوعه، لم ير العالم مثله حتى يومنا هذا.

تاريخ مجلة

«فكر وفن» تحتفل بعددها المائة

شتيفان فايدنر STEFAN WEIDNER

تميزت تلك المجلة بأنها لا تخدم أغراضا سياسية أو اقتصادية بشكل مباشر. وكذلك لم تكن بمثابة منشور إعلاني يُعنى بالسياحة أو الصناعة في ألمانيا. أو وسيلة دعائية سياسية تخدم حكومة بعينها، كالخدمات الأجنبية لهيئات الإذاعة التي ازدهرت إبَّان الحرب العالمية الثانية ولا زالت تلعب دورا حتى الوقت الحالي، مثل الخدمة العربية لإذاعة «دويتشه فيله» أو إذاعة «بي بي سي»، على سبيل المثال لا الحصر. بل إن نشأة هذه المجلة ارتبطت في المقام الأول بالرغبة في تحقيق التفاهم الدولي ومد أواصر التبادل الثقافي. ولقد تزامنت تلك الرغبة مع الظروف ذات الطابع السياسي التي سادت في بداية الستينات، وحولتها من مجرد هدف إلى واقع.

نتاج الصراع الشرقي الغربي تمحورت الأوضاع السياسية العالمية حول الصراع الشرقي الغربي، وليس المقصود به الصراع بين الشرق والغرب بمعناه الحالي؛ بل الصراع بين البلدان ذات الإيديولوجية والنظام الاقتصادي الشيوعي والرأسمالي. وإذا ما عدنا وألقينا اليوم نظرة على تلك الفترة، لتراءى إلينا أنه ليس من محض الصدفة أن يأتي تأسيس المجلة في عام ١٩٦٣ بالتحديد. حيث أنه في تلك الفترة ومع بناء جدار برلين في ١٩٦١ واندلاع أزمة كوبا في أكتوبر ١٩٦٢، كانت الحرب الباردة قد وصلت إلى ذروتها. وانقسم العالم تدريجيا إلى معسكرين من البلدان، أحدهما ينحاز إلى الغرب والآخر إلى الاتحاد السوفيتي. وأصبحت العديد من مناطق العالم الثالث موضع منافسة. فأي نظم التحالف سوف يستحوذ على العدد الأكبر من البلدان؟ الرأسمالي أم الشيوعي؟ ويليه تساؤل أكبر: إلى أي المعسكرات انحازت الدول النامية لاسيما في آسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية؟ أما التساؤل الأكثر أهمية على الإطلاق فهو: إلى أي المعسكرات انحازت البلدان العربية الإسلامية بثروتها النفطية المكتسبة حديثا

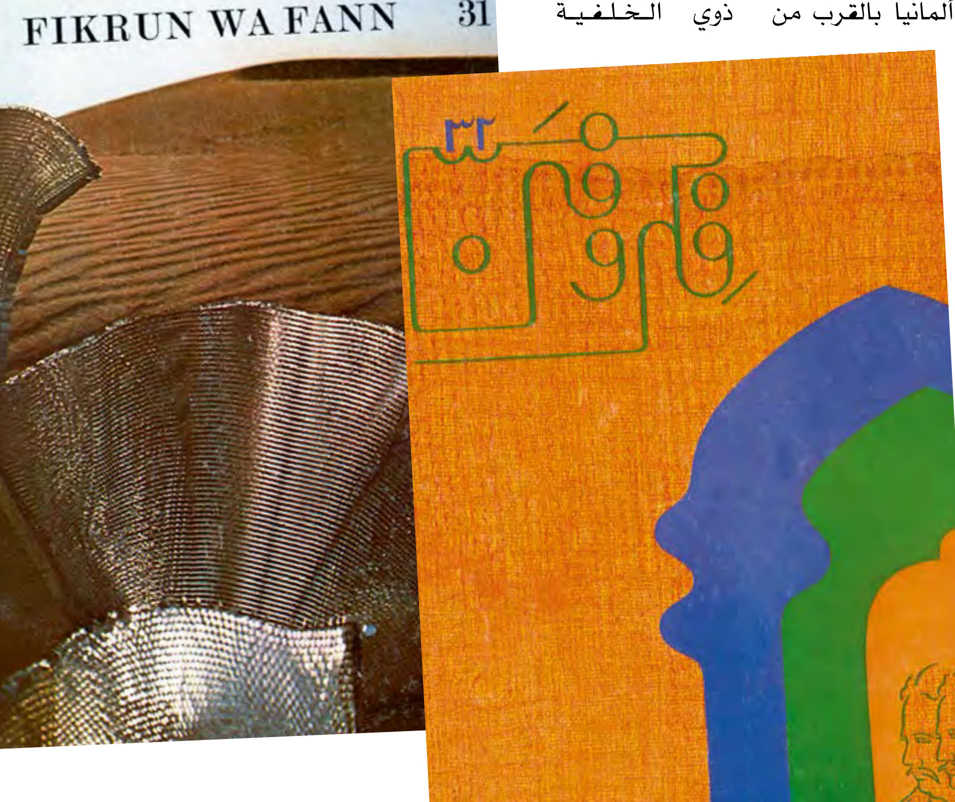
وموقعها الجغرافي البارز؟ وفي ظل هذا المناخ السياسي لعبت مجلة «فكر وفن» دورا هاما من خلال تعزيز العلاقات الثقافية بين ألمانيا (الغربية) والعالم العربي.

وإزاء هذه الخلفية نجح الصحفي والمؤرخ الفني ألبرت تايله (١٩٠٤-١٩٨٦) في بداية الستينات في إقناع المكتب الإعلامي الاتحادي بدعم تأسيس مجلة موجهة إلى العالم العربي. كان تايله قد وصل إلى تشيلي عقب رحلة هروب مليئة بالمغامرة من النازيين وأحداث الحرب، حيث عمل أستاذا جامعيا وأسس مجلة «هومبولدت» (على اسم الرحالة في جنوب أمريكا والمستكشف الألماني ألكسندر فون هومبولدت) كمجلة ألمانية موجهة إلى أمريكا اللاتينية، وذلك قبل أن يستقر في سويسرا عام ١٩٥٢. وبعد النجاح الساحق الذي حققته مجلة «هومبولدت»، أسس تايله مجلة «فكر وفن» في عام ١٩٦٣. مع العلم أن مجلة «هومبولدت» أوقفت إصداراتها بكل أسف في عام ٢٠١٢ عقب صدور طبعتها رقم ١٥٩.

آنا ماري شيمل ومنذ البداية، وجد تايله في آنا ماري شيمل زميلة في العمل على معرفة جيدة بالعالم الإسلامي، من بين القليل من الألمان. إن شغف آنا ماري شيمل بالثقافة الإسلامية انعكس منذ العدد الأول على محتوى وكذلك على تصميم المجلة. إذ اتسم بالفخامة، لاسيما مقارنة بالأوضاع التي سادت إبَّان فترة الستينات. وفي بعض الأحيان بدت المجلة وكأنها كتالوج فني أكثر منها مجرد مجلة. اتجه العديد من القراء إلى جمع المجلة، في الوقت الذي دفع فيه آخرون مقابل الحصول عليها. ونظرا لارتفاع حجم الطلب على المجلة، صدر عنها ملحق خاص بعنوان «الأفكار والفنون» عقب صدور العدد السادس مباشرة. وقد جمع هذا الملحق بين أفضل المقالات التي نُشرت في المجلة. ويجدر بالذكر أن داري نشر وطباعة المجلة تمركزتا في ذلك الوقت في شمال ألمانيا بالقرب من مدينة هامبورج. إلا أن مكتب التحرير كان في سويسرا حيث سكن ألبرت تايله. وتحت عنوان «هدفنا» صاغ ألبرت تايله مهام المجلة في افتتاحية العدد الأول على هذا النحو: „تبنى المجلة على تلك القيم من الماضي، التي احتفظت برونقها. وعلى الرغم من ذلك ينصب التركيز في الحاضر على قضايا عملية، تسعى المجلة إلى طرحها، ليتم البحث لها عن إجابات في صفحات المجلة".

إن تايله لم يذكر الوضع السياسي العالمي. وكان الشعار المستخدم في السياسة الدولية آنذاك هو مصطلح «الشراكة». فاتجه إلى التشديد على البعد الفكري في تلك الشراكة المرجوة قائلا: „إنها (أي الشراكة) لن تنطوي على معنى أو مضمون إلا إذا نشأت وظلت راسخة في البعد الفكري". وكون أولى المقالات الطويلة في العدد الأول قد تمحور حول دور المثقفين في البلدان النامية في ضوء التطورات الاقتصادية الحديثة وليس حول أي موضوع ثقافي، فهذا يشير إلى أن الصراع الشرقي الغربي قد صبغ محتوى المجلة منذ البداية. ففي الوقت الذي انصب فيه تفكير المثقفين في معظم البلدان العربية الواقعة تحت نفوذ الاتحاد السوفيتي على الثورة والكفاح ضد الاستعمار، كتب أحد العرب القاطنين في ألمانيا، أحمد مدثِّر، حول ضرورة إبطاء عملية التنمية قائلا: „يجب أن يأتي التطور تدريجيا وليس جذريا".

وحدة جمع إلا أن الانفتاح الإيديولوجي والاتجاه المحافظ المعتدل الذي سلكته المجلة قد تسببا أيضا في بعض المشكلات. إذ افتقرت المجلة إلى مفهوم واضح رغم ادعا „مد الجسور الفكرية" و„البناء على تقليد طويل من التبادل الفكري المثمر بين الشرق والغرب". وأصبحت بمثابة وحدة لجمع كل ما يعزز من ذلك التبادل الفكري وفقا لما يراه محرروها ألبرت تايله وآنا ماري شيمل. ومن هذا المنطلق استهدفت المجلة المسلمين ذوي الخلفية



المعرفية الألمانية والعربية وكذا المستشرقين في المقام الأول. وذلك لأنها لم تقتصر على النصوص العربية فحسب، بل احتوت على نصوص ألمانية كذلك، من بينها ترجمات ألمانية من العربية لآنا ماري شيمل أو تقييمات باللغة الألمانية لكتب حول العالم الإسلامي. إضافة إلى بعض المقالات باللغة الإنجليزية حول موضوعات تتعلق بالعلوم والدراسات الإسلامية. ولم تتحول فكر وفن إلى مجلة عربية بحتة إلا في السبعينات، وإن لم يمنع ذلك آنذاك أن تتسلل إليها من حين لآخر قصيدة مترجمة إلى الألمانية من العربية أو الفارسية أو التركية .

ومن الملفت للنظر أن «فكر وفن» لم تكن مجلة ثقافية بحتة منذ البداية. إذ نجد أنه في العدد الثاني، على سبيل المثال، تمحورت إحدى المقالات حول وسائل استخلاص المياه العذبة من مياه البحر وتميزت بالطول وبكثرة المصطلحات الفنية. إلى جانب مقالات حول الحياة النباتية في ألمانيا وأخرى حول علم الفلك والقصور الباروكية الألمانية. وكان لعلم الخيول كذلك نصيبا من المقالات الفنية بالصور. ويرجع اختيار هذا الموضوع في الغالب إلى ما هو متعارف عليه من ولع الشرقيين بالخيول. أما من المنظور المعاصر، فنجد أن وجود مثل هذه المقالات يبدو غريبا في مجلة ثقافية موجهة نحو جمهور من المثقفين. ربما يكون هذا النوع من المقالات قد لاقى صدى أكبر في الأوساط البدوية في دول الخليج أو في الدوائر الأرستقراطية وتلك شديدة الثراء.

وهناك مقالات يعود الفضل فيها إلى تأثير آنا ماري شيمل، من بينها مجلد حول الأديب الباكستاني محمد إقبال (في العدد رقم ٣٢)، وكذا مقالات متعددة حول التصوف الإسلامي وحول استقبال تصور المشرق في الكلاسيكية والرومانسية الألمانية. وعلى الرغم من شغف المجلة إلى حد ما بالتراث الثقافي المحافظ وسعيها لمخاطبة النخب التقليدية أكثر من توجهها لجيل الشباب ذي التفكير الثوري، إلا أن اتهامها بضيق الأفق لم يكن ممكنا. إذ وجدت القصائد العربية الحديثة طريقها إلى المجلة، مثلها مثل القصص القصيرة الألمانية المعاصرة. فكانت على استعداد لاحتواء جميع المقالات ذات العلاقة بألمانيا أو العالم الإسلامي أو كلاهما معا، إذا ما نالت إعجاب المحررين. إلا أن هذا الانفتاح الذي تميز به مفهوم المجلة المثير للتعجب، يُمثّل في الوقت نفسه إحدى نقاط الضعف فيها. حيث ارتبطت هيئة المجلة بشخصيتي تايله وشيمل أكثر من اللازم. وافتقرت المجلة إلى مفهوم مركب، ينشأ عن احتياجاتها وإمكانياتها وحدودها. أما عن كون مجلة فكر وفن قد اكتسبت، على الرغم من ذلك، سمعة عظيمة فالفضل في ذلك يعود إلى محرريها الأوائل.

دماء جديدة في هيئة التحرير لقد كان العدد رقم ٣٧ (١٩٨٢) هو العدد الأخير الذي يُذكر فيه اسم كل من آنا ماري شيمل وألبرت تايله كمحررين. ومع العدد الثامن والثلاثين طرأ على المجلة تغييرا جذريا. حيث شغلت الصحفية والباحثة في ميونخ، إردموته هيلر، منصب رئيسة التحرير. ومنذ ذلك الوقت عهدت جمعية إنترناتسيونس (Inter Nationes) بإصدار المجلة، مع العلم أنها كانت خاضعة فيما قبل للمكتب الصحفي الإعلامي (على الرغم من عدم التنويه عن ذلك رسميا أبدا). أما ناجي نجيب، فقد كان باحثا أديبا مصريا مقيما في ألمانيا وزميلا مقرَّبا من إردموته هيلر. وابتداء من العدد رقم ٣٩ ظهر اسمه كمحرر في المجلة جنبا إلى جنب مع إردموته هيلر. ومعها اكتسبت المجلة هيئة جديدة أكثر عصرية. إذ أصبحت أقل محافظة وأكثر فكرية، وتخلت بالكامل تقريبا عن الموضوعات الاستشراقية. وفجأة ظهرت في المجلة مجموعة أسماء لبعض الشخصيات الثقافية، لم تكن لتصل إليها في عهد شيمل وتايله: من بينها الفلاسفة ميشيل فوكو ومارتين هايديغر ويورغن هابرماس؛ والكتّاب غونتر غراس وهانز ماغنوس إنتسنسبيرغر والناقد الأدبي مارسيل رايش ـ رانيسكي والمخرجان فولكر شلوندورف ومارغريته فون تروتا والفنان جوزيف بويس؛ وبعض الرواة المعاصرين من العرب كالطيب صالح ويحي حقّي؛ إضافة إلى جيل جديد تماما من الشعراء مثل محمد بنيس أو محمد الغُزّي - جميعهم شخصيات ساهمت فعليا في تحديد معالم الحياة الفكرية المعاصرة في ألمانيا والعالم الإسلامي. وفجأة أصبحت الصورة الشرقية الكلاسيكية للعالم العربي محل انتقاد، وإن كان بغرض جيد، وذلك على الرغم من كون تلك الصورة قد صبغت المجلة في الماضي إلى حد كبير. فنجد في العدد رقم ٤٠ على سبيل المثال، مقال نقدي حول صورة المشرق لكارل ماي وآخر يحمل هذا العنوان المميز: „استعمار فكري ثقافي أم جسر نحو التفاهم؟ الدراسات الاستشراقية في جمهورية ألمانيا الاتحادية. الهياكل والوظائف".

وانتهت تلك الفترة المثمرة بصدور العدد رقم ٤٧ في عام ١٩٨٨، وهو بلا شك أحد أفضل أعداد فكر وفن على الإطلاق: تحليل نقدي لهايديغر ونيتشه داخل مجلد فلسفي ضخم، في وقت كان هايديغر لا يزال يُمثّل الورقة الرابحة في العالم العربي. إلا أنه نظرا لنشوب خلافات داخلية بين المحررين ووزارة الخارجية وهيئة التحرير، تركت إردموته هيلر بكل أسف المجلة مع هذا العدد.

الركود وبعد ذلك بعام، وجدت المجلة في الصحفية روزماري هولّ، خليفة ذات خبرة لإردموته هيلر. وعلى الرغم من استمرار معالجة المجلة لموضوعات معاصرة وغياب المقالات الاستشراقية عنها؛ إلا أن التخوف من تأثير المقالات الجدلية أو النقدية في الانتقاص من شعبية المجلة في العالم الإسلامي، أدى إلى تجنب تناول الموضوعات التي صبغت طبيعة المجلة في عهد إردموته هيلر باستثناء بعض الحالات النادرة. وأصبحت المقالات ذات الطابع العام تهيمن على المجلة، كتلك التي تناولت الذكرى المائة لماكينات العملات أو النجاح الذي حققته قصة الصعلوكين «ماكس و موريتس» أو تلك التي حملت عنوان: «الركائز. معالم أثرية في ألمانيا من العصر الحجري الحديث». إضافة إلى ذلك، وجدت العديد من المقالات الموجهة إلى عشاق الخيول، طريقها إلى المجلة مرة أخرى.





النسخة الإلكترونية
للعدد ١٠٠

خلال الأعوام الثلاثة عشر التالية صمدت فكر وفن كالصخرة في غمرة العواصف السياسية العالمية. وبعد فترة وجيزة من الانتهاء من إعداد أول عدد في عهد هولّ، العدد المزدوج رقم ٤٨/٤٩ في عام ١٩٨٩، سقط جدار برلين ـ الحدث الأكثر حيوية في تاريخ ألمانيا القريب. إلا أنه انعكس بالكاد على صفحات مجلة فكر وفن. ولم يُنشر حتى في عدد ٥٢ في عام ١٩٩١ أي مقال عن الوحدة الألمانية. وفي عام ١٩٩١ اندلعت حرب الخليج وهو حدث، لعب دورا حاسما في تشكيل العلاقة بين الغرب والعالم العربي. إلا أن هذا الحدث أيضا لم يجد صدى في مجلة «فكر وفن». من الممكن تفهم قرار هيئة التحرير باستبعاد الأحداث السياسية، طالما لم يكن باستطاعة فكر وفن أن تصبح مجلة ذات طابع سياسي. ولكن يبقى أن المجلة لم تول اهتماما كافيا للبعدين الفكري والسياسي لبعض الأحداث السياسية الفارقة. ويجدر بالذكر أن روزماري هول قد شغلت منصب رئيسة تحرير المجلة حتى عدد ٧٤ في عام ٢٠٠١.

التوجه نحو التطورات الآنية إن أحداث ١١ سبتمبر والنتائج المترتبة عليها، كان من شأنها أن تضع مجلة مثل فكر وفن في مواجهة مهام وتحديات جديدة كليا، وعلى ذلك انتقلت هيئة التحرير لجيل أصغر سنا. أما معهد غوته الذي تسلم المجلة آنذاك من جمعية إنتر ناتسيونس (Inter-Nationes)، وجد فيها أداة مثالية لتجاوز تلك الفجوة الإيديولوجية الآخذة في الاتساع بين أوروبا وآسيا وإفريقيا. ولهذا الغرض اتسع نطاق المجلة ليشمل طبعتين إضافيتين باللغتين الإنجليزية والفارسية، اللتان تحتفلان بصدور عددهما رقم ٢٥، بالتزامن مع الذكرى المئوية للمجلة. وهكذا أصبحت فكر وفن تصدر بثلاث لغات. واستطاعت الطبعتان الإنجليزية Art & Thought والفارسية Andishe ve Honar من المجلة، وعلى مدى اثني عشر عاما،أن تثبتا أنهما تنتميان لوسائل إعلامية مرموقة في المناطق التي تتوجه إليها. وبالفعل لا تزال المجلة تحتل مركزا متقدما في عملية التبادل الثقافي حتى الآن.

وبالعمل بشكل وثيق وبالتوازي مع جداول أعمال معاهد غوته في أفريقيا وآسيا، نسعى منذ ذلك الوقت إلى المعالجة النقدية والمنفتحة لتلك الموضوعات بالتحديد التي تُعد ذات أهمية حيوية بالنسبة إلينا وللمناطق التي نستهدفها على حد سواء؛ وذلك في سبيل تلبية الاحتياجات الجديدة التي نمت من خلال الثورات العربية. ولعل عناوين الموضوعات الرئيسية في الأعداد السابقة تتحدث عن نفسها: «الثقافة والمناخ» و«آفاق الديمقراطية» و«منذ أحداث ١١ سبتمبر لغاية الثورات العربية». كما تهدف المجلة إلى مخاطبة جيل القراء الشباب من الجنسين. ذلك الجيل الذي تألق بحيوية خلال الثورات العربية وسيعمل على تقرير مصير العالم ذي الطابع الإسلامي على مدى العقود القادمة. ولذا فإن هذا الجيل هو الجهة التي نسعى إلى مد أواصر التبادل والحوار معها. إلا أن هذا الحوار بحاجة إلى جهد وفكر وإبداع وإلى وجود استعداد للنقد الذاتي والتبادل الحيوي بين الثقافات. ومن أجل كل هذا، كانت فكر وفن ومازالت بمثابة منتدى، لا يتوفر فقط من خلال نسخة مطبوعة، بل وكذلك في هيئة نسخ إلكترونية متاحة عبر الموقع الإلكتروني الخاص بالمجلة والمتوفر بأربع لغات www.goethe.de/fikrun. أي أن ما كانت عليه المجلة في عام ١٩٦٣، مازال قائما حتى الآن ولكن على أحدث مستوى من التقنية: فكر وفن/ Art & Thought/ Andishe wa Honar هي مجلة فريدة من نوعها على مستوى العالم!

شتيفان فايدنر رئيس تحرير مجلة «فكر وفن».
ترجمة: هبة شلبي



■ منذ أن بدأت الثورة و «الربيع العربي» يُثمر أروع أزهاره داخل المشهد الفني المصري. ويتبلور السخط المتزايد لجيل الشباب الأكثر تعليما من خلال فنون الشوارع، وفي إطار ما يُطلق عليه بـ 'Artivismus' أو الحراك الفني. ولقد وجدت التغييرات اللاحقة في مصر تجلياتها أيضا في فن الشوارع الذي قدم مقاربات فنية عديدة حول ما يجري.

بحبك يا بلادي!

تحولات «الربيع العربي» . الوطنية والجرافيتي

هانا روبيلين HANNA RÖBBELEN

التحرر الفكري ينعكس في طيات هذه الظاهرة ذلك التحول الاجتماعي الجذري الذي لاحظه راصدو حركة «الربيع العربي» كانتصار للمظاهرات الشعبية، حتى من قبل تنحي مبارك. وتتمحور هذه الظاهرة حول مفهوم التحرر الفكري. إذ إن الثورة باعتبارها تحررا عقليا من القمع تجد صداها في إطار حرية فنية جديدة. وفيها يرتبط كل من الفن والحرية بعلاقة اعتماد متبادلة. فمن ناحية تعمل تلك الحرية المكتسبة جزئيا على تعزيز الفن، نظرا لتعدد إمكانيات التعبير الإبداعي على مستويات عدة؛ والعكس صحيح، فالفن يعزز أيضا من الحرية لأنه يعمل على تحفيز الوعي النقدي داخل المشاهد. ونظرا لكون فنون الشوارع تُجسَد في الفضاء العام، فإن أعداد مشاهديها تتزايد تبعا لذلك، مما يجعلها من البداية وسيلة احتجاج قوية وحتمية. أما المحتوى المقدم من خلال فن الشوارع والموضوعات التي يتطرق إليها، فهو على نفس القدر من الأهمية.

إذا ما استندنا إلى عالم الاجتماع اللبناني ساري حنفي، ينبغي علينا الافتراض بأن غالبية موضوعات هذا الشكل من أشكال الفنون تتسم بالطابع القومي. وينطلق ساري حنفي في هذا الصدد من بزوغ ذاتية سياسية جديدة في الشرق الأوسط: يرى مناهضو النظام أن الناشطين الشباب بمثابة منبع للتضامن والوحدة، فهم لا يسعون إلى أية مصالح خاصة، ولا يمثلون ما هو أقل أهمية من الأمة في حد ذاتها. مما أدى إلى أن تفقد الشعارات الدينية فاعليتها. ونظرا لتجسيد الدين لهوية محددة، ليست صالحة لتأسيس مجتمع وطني شامل وفقا لنظرية حنفي، فإن دوره في فنون الشوارع لا يمكن إلا أن يكون هامشيا. ويعد ذلك استنتاجا مفاجئا في ضوء ظاهرة التدين المتجلية في المجتمع المصري.

جرافيتي، تقاطع شارع محمد محمود مع ميدان التحرير، نوفمبر ٢٠١٢
Photo: Stefan Weidner

ولكن، ما المقصود بمصطلح 'Artivismus' (الحراك الفني) بالتحديد؟

لعل أفضل وسيلة للإجابة على هذا التساؤل وشرح هذه الظاهرة، هو تناول أحد أمثلة الجرافيتي بالقاهرة والذي يُجسد شابا ذو ملامح بريئة يرتدي جينز وتي شيرت، ويقف في حيوية أمام جدار ممسكا بلوحة ألوان في يده اليسرى وريشة مُمرَّغة بالألوان في يده اليمنى، بينما يُطل عليه من خلف الجدار هيأة وحش آدمي خنثي في زي عسكري ينقض عليه ممسكا هراوة مسننة في يده. ويصاحب الرسم الأبيات التالية:

„يا نظام خايف من فرشة وقلم، وظلمت وبتدوس ع اللي اتظلم، لو كنت ماشي في السليم ما كنت خفت م اللي اترسم. آخرك تحارب الحيطان، تتشطر ع الخطوط والألوان. لكن انت من جواك جبان، عمرك ما تبني اللي اتهدم."



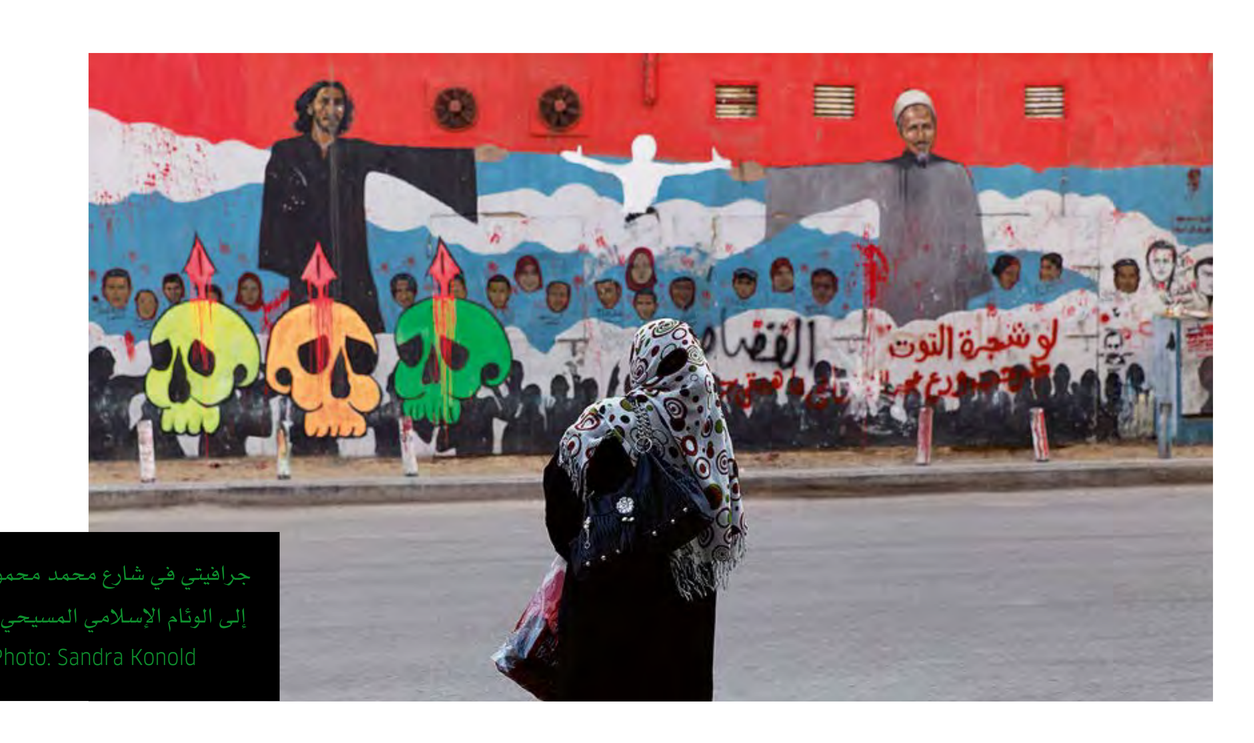
جرافيتي في شارع محمد محمود، نوفمبر ٢٠١٢
Photo: Stefan Weidner

تؤكد الأبيات أن «الحراكيين الفنيين» في مصر على بينة من قوتهم: فهم قادرون على الإضرار بالنظام وهذا هو السبب في مقاومته لهم، بقوة السلاح أيضا إذا لزم الأمر. ومثلها مثل جميع أشكال المقاومة السياسية، تُقمع كذلك المقاومة الفنية أو ما يُسمى بـ «الحراك الفني». والرائع في هذه الظاهرة الجديدة هو الاستحالة المطلقة للفصل بين الفنانين والناشطين، إذ يُشكل الاثنان معا علاقة تكافلية مثمرة: فقد وجد النشاط السياسي في الفن أداة فاعلة لتحقيق أهدافه، ووجد الفن في الوضع السياسي قضية خصبة مثيرة للمشاعر.

الانفجار الإبداعي ولدت ظاهرة «الحراك الفني» مع انطلاق ثورة ٢٠١١: فمنذ انطلاقها اصطبغت موجة الاحتجاجات الحاشدة التي شهدها ميدان التحرير على مدى ١٨ يوما بإبداع وأصالة فنية نجحت في تعبئة الجماهير. وبعد سقوط مبارك دخل هذا الاتجاه في مرحلة النضج، ولكنه لم يهدأ أبدا. وقد وصف مدير البرامج بمعهد غوته القاهرة التطورات التي تجتاح المشهد الفني بـ «الانفجار الإبداعي». ولعل أكثر الأنماط الفنية شعبية في مصر المعاصرة، أو وضوحا على الأقل، هو فن الجرافيتي. فمنذ قيام الثورة شهد هذا الشكل الفني طفرة حقيقية. ولا عجب في ذلك، نظرا لارتباط الجرافيتي منذ نشأته ارتباطا وثيقا بعقلية المقاومة والعصيان المدني. ويتناسب تماما مع بلاد لا تهدأ فيها الأوضاع السياسية والاقتصادية.

فنانون معارضون لمرسي يرسمون لوحة جرافيتي جديدة، قرب ميدان التحرير، ٢٠١٢
Photo: Sandra Konold

ولكن ما هي الرسالة التي يحملها هذا الشكل الفني في طياته؟ وما هي الرموز المستخدمة في هذا الصدد؟ ردا على هذا التساؤل تتبلور لدينا من الوهلة الأولى ثلاث



جرافيتي في شارع محمد محمود يدعو إلى الوئام الإسلامي المسيحي، ٢٠١٣
Photo: Sandra Konold

فئات من الرموز: الرمزية الوطنية القومية والرمزية الفرعونية والمصرية القديمة والرمزية الدينية الإسلامية. ومن البداية يلاحظ المرء أن الرمزية الوطنية القومية تحتل الجزء الأكبر من مساحة هذا النمط الفني. وتتضمن هذه الفئة جميع المظاهر القومية الحديثة: بداية من العلم الوطني المصري الذي يتألف من ثلاثة شرائط أفقية باللون الأحمر والأبيض والأسود، ويتوسطه رمز العقاب الذهبي الذي يرجع إلى عهد صلاح الدين الأيوبي؛ إلى جانب النسر المصري والأسد والألوان الوطنية في حد ذاتها وبورتريهات لرموز وطنية كالمطربة المصرية أم كلثوم الذائعة الشهرة على مستوى العالم والمبجلة في العالم العربي أجمع، فضلا عن أشكال التعبير عن القومية وحب الوطن.

فنجد على سبيل المثال أن الكتاب التوثيقي الشامل «الجدران تهتف ـ جرافيتي الثورة المصرية» لشريف برعي يتضمن رسوم جرافيتي مشروحة يصل عددها إلى قرابة ٤٧٠ رسم، بينما يتمحور أكثر من ثلاث أرباعها حول رموز قومية. وأكثرها شيوعا هو الاستخدام الحصري للألوان الوطنية، بغض النظر عن العنصر المجسد في حد ذاته.حيث أن اقتصار الألوان المستخدمة على الأحمر والأبيض والأسود يهدف إلى إضفاء الطابع القومي على جميع الموضوعات والعناصر التي يتم تجسيدها في الرسوم وتوثيقها كإحدى قضايا الأمة، أيا كان ما تعبِّر عنه. على عكس الألوان الوطنية يغلب على رمز النسر الغموض واستخدامه في الجرافيتي لا يتسم دائما بالوضوح: يظهر النسر في أغلب الأحيان كرمز للأمة المصرية التي تسعى للتحرر، أي كرمز إيجابي يسعى من خلاله الفنان إلى تعريف نفسه شخصيا، مثله مثل النموذج المعهود والمتكرر بشكل دائم الذي يجسد طائرا يتحرر من قفصه أو قيوده. ولا يقل عنه إيجابية عنصر النسر الجاثم فوق شعار «مصر تستطيع الطيران». الأمر نفسه ينطبق على صورة قبضة اليد البشرية المقاتلة التي ينمو من جانبيها أجنحة نسر. ويعد مزيج النسر وقبضة اليد البشرية، مزيجا محببا في هذا الصدد.

يظهر النسر دائما كرمز للقوة وقوة الإرادة والسمو. ولذا فإنه ليس من المستغرب أن يأتي استخدامه مرتبطا بفكرة «الشهداء» ممن ضحوا بحياتهم في الثورة ويقترن تبجيلهم بالقوة والسمو. وبهذه الطريقة يتم الربط بين الشهداء والنسر من ناحية، وبين النسر والأمة وكفاحها التحرري من ناحية أخرى. وفي إحدى الصور نجد النسر محاطا بكلمات تحثه على توخي الحذر من أي أخطار داهمة: „إذا رأيت أنياب الليث بارزة، فلا تظن الليث يبتسم". وفي هذه الحالة يرمز النسر إلى الأمة والأسد إلى النظام.

وعلى الرغم من ظهور النسر في أغلب الأحيان كرمز إيجابي، إلا أنه في عدد قليل من الجرافيتي يرمز أيضا للدولة والنظام اللذان تستهدفهما المقاومة. ومن بين تلك الأمثلة القليلة، رسم جرافيتي يجسد نسرا مقلوبا أسفل الدعوة لـ „إسقاط النظام!". وهنا يرمز سقوط النسر إلى سقوط النظام المنشود.

العلم المصري لإضفاء الطابع القومي على الجرافيتي وتمييزها كإحدى قضايا الأمة، يُشكل العلم المصري خلفية العديد من رسوم الجرافيتي كما في سلسلة بورتريهات «عيون الحرية» لعمار أبو بكر والتي تجسد العديد من الثوريين معصوبي الأعين ممن فقدوا أبصارهم خلال المظاهرات. يظهرون جميعا جنبا إلى جنب أمام خلفية عريضة لعلم مصر. وكذلك على خلفية للعلم الوطني تم تجسيد أسد معصوب العين بجوار عبارة „حتى لو خسر عينيه الاثنين برضه اسمه أسد: عاشت أسود مصرا!". والأسد كرمز مصري مستقل بذاته يرتبط بالقوة والذكاء والسمو. أي أن النموذج الماثل أمامنا يشير إلى أن الأسد الذي يرمز في هذه الحالة إلى الأمة المصرية، لا يفقد سمات التفوق المرتبطة به ويظل غير قابل للقهر على الرغم من الانتكاسات المريرة التي مر بها.

وإن تلك الصورة الذاتية المصرية تتناسب مع الطيف الهائل من الشعارات التي توقظ مشاعر الفخر والاعتزاز الوطني كما هو الحال مع عبارات „بحبك يا بلادي" و „لو لم أكن مصريا لوددت أن أكون مصريا" و „مصري وأفتخر" و „ارفع رأسك فوق أنت مصري". علاوة على ذلك نجد أن وجه أم كلثوم له نفس القدرة على إثارة مثل هذه المشاعر. لعل أبرز مثال على ذلك هو جرافيتي أم كلثوم الذي صاحبه الفنان كايزر بعبارة „الفن مش حرام". يعد استخدام كلمة «حرام» هنا ملفتا للنظر، فهذا العنصر الديني يشير في هذا الصدد إلى تقييد الفن باللجوء إلى الحجج الدينية.

وفي الوقت نفسه يوضح للمشاهد أن حرية الفن ضرورية لارتقاء مثل هذه الرموز التي يفتخر بها كل مصري، كالفنانة أم كلثوم. ونرى من خلال الأمثلة أن الفنانين المصريين يلجأون إلى استخدام النزعات القومية كرموز إيجابية في أغلب الأحيان وذلك تعزيز وتأكيد رسالتهم الخاصة. وفي طيات هذا النوع من أنواع الدمج للرموز القومية من خلال ما يُسمى بـ 'Artivismus' أو الحراك الفني يقبع أيضا الاتهام الضمني أن الدولة قد اتخذت لنفسها مقرا خارج نطاق الأمة. ومن الواضح إذن أن ثمة اندماج راسخ في مصر بين المواطنين وأمتهم، وليس بين المواطنين والدولة أو سلطة الدولة. وأن صلة الأمة بالدولة، أي الدولة القومية المصرية، تبدو هشة للغاية. وبالاستناد إلى رسوم الجرافيتي يتضح أنه في نفس الوقت الذي تسعى فيه الرموز القومية إلى إيقاظ التماسك والتلاحم الداخلي للمجتمع، فإنها تضعه في موقف منافسة مع الخارج المزمع، أي مع النظام. وبالتالي تتحول الهوية المصرية الجماعية وبذلك الأمة، إلى أساس للكفاح ضد النظام الظالم. وهذا التأكيد على الوحدة والتضامن يتجلى أيضا من خلال إحدى رسوم الجرافيتي، التي يُستخدم فيها حرف الميم في اللغة العربية، كأول حرف في كلمات: «مسلم» و «مسيحي» و «مواطن» و «مصري» وكعنصر رابط بينها.



جرافيتي قرب ميدان التحرير، ٢٠١٣
Photo: Sandra Konold

الرمزية الفرعونية تعد ظاهرة التلاعب بالعناصر من الأمور المحببة في فن الشوارع المصري، وتعود أصولها إلى الأعراس المصرية القديمة وتقع بالتالي ضمن فئة الرمزية الفرعونية والمصرية القديمة. وإن هذا الأسلوب في العودة إلى العصور القديمة الساحرة والاستعانة بعناصرها، يعد ظاهرة نموذجية لتعزيز الشعور القومي. فنجد أن رموز تلك الحقبة تساهم بشكل رسمي في بناء الهويات الجماعية، لاسيما في بلد كمصر، يتطلع إلى حضارة عريقة خلفت آثارها على التاريخ البشري. وفي هذا الصدد يعد الفنان علاء عوض أبرز الفنانين الذين اعتمدوا في أعمالهم على الرمزية الفرعونية. إذ اتجه كرسام ناجح يتمتع بمكانة راسخة في صالات العرض بالقاهرة، إلى تلبية دعوة الثورة في عام ٢٠١١ ونزل إلى الشوارع ليرسم لوحاته منذ ذلك الحين على جدران المنازل بدلا من اللوحات الزيتية. وأكثر أعمال هذا الفنان شهرة هو مشهد النائحات الجنائزي في شارع محمد محمود. حيث نرى من خلال اللوحة فتيات نائحات على الطراز المصري القديم، يمدن أيديهن نحو تابوت حزنا على فقدان أحد الأقارب، بينما تؤخذ أرواح الموتى من التابوت وتُسلم إلى إلهة السماء المحلِّقة. ويرمز المشهد إلى الحداد على أرواح الضحايا الشباب لمذبحة إستاد كرة القدم في بورسعيد في أوائل عام ٢٠١٢ ـ مأساة تُفسر في الخطاب السياسي المصري

السبب في استخدام الرموز المصرية القديمة هو توجيه النقد للنظام من خلال تعزيز مشاعر الفخر الوطني.

على أنها من صنيع ثورة النظام القديم المضادة. إن هذه اللوحة لم تستعن فقط بالأسلوب المصري القديم في الرسم بل جسدت أيضا بعض عناصر مشاهد الحداد الفرعونية التي نعهدها حتى الآن في صعيد مصر. أي أن علاء عوض استعان بشكل عام برموز مصرية قديمة لتجسيد الرفعة والحاكمة، من أجل التشكيك بأسلوب بارع في مصداقية السياسة التي يتبعها النظام. وهذا يتجلى بشكل خاص من خلال لوحته «الوصيفات» والتي رسمها تفاعلا مع جدارية للفنان عمار أبو بكر، الذي يصور المجلس العسكري كثعبان يزيد طوله عن المتر، له ثلاثة رؤوس ضخمة، يجسد كل منها أحد أعضاء المجلس العسكري. إن تصوير المجلس العسكري كثعبان ضخم مشهد لا يحتاج إلى تفسير. أما إضافة عوض إلى تلك الجدارية فتعد مثيرة للاهتمام: حيث رسم سبع فتيات فرعونيات بجوار رؤوس الثعابين الثلاثة، ينحنين بمنتهى الود وحسن الضيافة نحو ذلك الوحش. وإن تعبيراتهم إيماءاتهم المليئة بالترحيب، ترمز إلى حكمة النساء المصريات على مدى قرون وتجسد النقيض الآخر لزيف وخداع الثعابين. أي أن „التفوق من خلال الحكمة" هي الرسالة التي يسعى هذا الجرافيتي إلى التعبير عنها. علاوة على أن استخدام الكتابات الهيروغليفية على يسار النساء يشدد على المرجعية المصرية القديمة، وهي كذلك رموز نموذجية في الجرافيتي المصري المعاصر مستمدة من الأعراس الفرعونية، والإشارة إلى التاريخ الفرعوني لمصر الذي ولّى منذ زمن طويل، تهدف في المقام الأول إلى إرساء مشاعر الاعتزاز والفخر الوطني من خلال التأمل والتفكر في الماضي. ويؤكد على ذلك، جرافيتي آخر لقناع يجمع بين طراز أقنعة الموتى في مصر القديمة وأقنعة الفينديتا الحديثة. مصحوبا بشعار مقفي: „ثورة الأحفاد هترجّع الأمجاد". أي أن الثورة تعتبر في هذه الحالة بمثابة إمكانية للرجوع بالبلاد إلى سابق عهدها في العصر الفرعوني بما فيه من قوة. وفي ضوء إعادة اكتساب القوة نجد أن المواطنين يتوجهون بطبيعة الحال إلى تلك المراحل في ماضيهم وتاريخهم، التي تُثير مشاعر الفخر لديهم. ومن الرموز المحبب استخدامها أيضا في هذا الصدد بعض العبارات الشهيرة مثل «مصر أم الدنيا» شأنها في ذلك شأن عنصر الأهرامات. إلا أن استخدام الرموز المصرية القديمة ينطوي كذلك على بعض أوجه التناقض: حيث نرى في إحدى رسومات الاستنسيل الشائعة، وجه الرئيس مرسي داخل قناع مصري قديم للملك توت عنخ آمون أعلى وصف «باطل». على الرغم بالفخر بالإنجازات الحضارية للمصريين القدماء، إلا أن مصطلح «فرعون» قد تحول في التاريخ الحديث إلى سبة باعتباره صفة للديكتاتوريين، ويرجع ذلك إلى توثيق حكام الفراعنة في كتب التاريخ كطغاة مستبدين. وإن نموذج الجرافيتي المذكور أعلاه يتطابق تماما مع تلك النظرية: إذ يساوي بين مرسي وتوت عنخ آمون ويتهم مرسي بالاستبداد.

وعلى عكس ذلك نجد أن العنصر المصري القديم في مثال آخر محمل بالدلالات الإيجابية، حيث يظهر النموذج الشهير لوجه نفرتيتي الجميل مختفيا بشكل قاتم خلف قناع غاز، وهو يرمز في هذه الحالة إلى الأمة المصرية. إذ يبدو أنها أجبرت على ارتداء قناع الغاز المُشوه لتضمن بقائها على قيد الحياة. يرمز التصميم إلى كون جمال (وأيضا أنوثة) مصر مهددة من قبل العنف القمعي للسلطات. ومن خلال جميع هذه الأمثلة يتجلّى بوضوح السبب في استخدام الرموز المصرية القديمة. الأمر يتمحور حول توجيه النقد للنظام من خلال تعزيز مشاعر الفخر الوطني. وتصف النصوص المصاحبة لتلك المشاهد مدى تطابق هوية المواطنين مع بلادهم وبالتالي وحدة جميع المصريين تحت عباءة الأمة العظيمة ذات التاريخ المجيد.

الوحدة من خلال الثورة كذلك تتمحور الجرافيتي ذات الرموز الدينية حول تعزيز مفهوم الوحدة داخل الأمة. ومن أكثر النماذج المحببة في هذا الصدد في فن الشوارع المصري، تلك التي تجسد الإخـوَّة بين المسلمين والأقباط. ويتمثل الهدف منها في تجاوز الصراع الجاري بين الطوائف. ففي كثير من الأحيان يتم تصوير الصليب وكأنه يحتضن الهلال وأحيانا بالاستعانة بعنصر مساعد كرمز القلب أو وصف «إخوان». وفي إحدى رسوم الجرافيتي التي تتميز بسحر خاص، تكاد تتلامس يدان تمتدان نحو بعضهما البعض، كما في لوحة مايكل أنجلو الشهيرة «خلق آدم»، بينما يغطي الصورة عبارة 'Take Care' (احـذروا)، يرمز فيها حرف 'T' إلى الصليب وحرف 'C' إلى الهلال. ويلاحظ في هذه اللوحة وشم الصليب المرسوم على الجهة الداخلية لرسغ اليد (كرمز للعقيدة المسيحية) بينما تلتف اليد الأخرى بالسبحة (هنا: رمز للعقيدة الإسلامية). فيما يوحي التصميم بالتقارب والمصالحة.

ويتضح من خلال الأمثلة أنه تم الاستعانة بالرمزية الدينية من أجل الشؤون الثورية على نطاق واسع. إلا أنه تجدر الإشارة في هذا الصدد أن الهدف من العمل الفني في حد ذاته يبقى سياسيا بحتا. (كانت هناك محاولات لاستغلال صحوة الجرافيتي لأغراض الدعاية الدينية من قبل بعض المجموعات السلفية، وذلك من خلال بعض

التصميمات الإسلامية الفلكلورية، إلا أنها باءت بالفشل. إذ افتقرت إلى عنصري الفكاهة والأصالة النموذجيين في فن الجرافيتي). أي أن الرموز الدينية تُستخدم في فن الجرافيتي لتسليط الضوء على بعض الرسائل السياسية، كما هو الحال مع البراق، وهو عبارة عن كائن أسطوري حمل الرسول محمد إلى السماء حسب مصادر التراث الإسلامي. وباعتباره رمزا إسلاميا للتحرر والحرية، يظهر هذا العنصر في العديد من رسوم الجرافيتي الخاصة بالفنانين علاء عوض وعمار أبو بكر. أي أن هذا الرمز الأسطوري ذو الصلة بالتاريخ الديني، يظهر في الفن السياسي كرمز للحرية في الثورة. وبذلك يكون الجرافيتي قد نجح في مزج الثورة ببراعة في الشؤون الدينية.

ويتجلى هذا بوضوح أكبر من خلال حقيقة إطلاق لفظ «الشهيد» على من فقدوا حياتهم جرَّاء عنف الشرطة من المتظاهرين، وهو مصطلح يصطبغ ضمنيا بطابع ديني إسلامي، وإن لم يكن له في الأصل تعريف ديني بحت. جميع بورتريهات الشهداء المرسومة باستخدام الاستنسيل يصاحبها لفظ «شهيد» واسم المتوفى. ويلاحظ وجود أجنحة ملائكة في معظم لوحات «الشهداء» وهو ما ينطوي أيضا على رمزية دينية. حتى أنه يمكننا القول أن شارع محمد محمود بوسط مدينة القاهرة والذي يحتوي على عدد كبير من بورتريهات الشهداء، أصبح وكأنه موقعا لإجلالهم وتقديرهم.

علاوة على ذلك، يتجلى أيضا استخدام القرآن فيما يتعلق بالرمزية الدينية في الجرافيتي. إذ تُكتب تلك الآيات القرآنية، التي يدعم محتواها قضية الثورة، بأسلوب الرش على الجدران. و من أكثر الآيات القرآنية استخداما في هذا الصدد هو في الواقع جزء من آية ٢٤ من سورة إبراهيم: „وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّه غَافِلا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ". حيث أن الاستعانة بهذه الآية يُفهم كتهديد غير مباشر للطبقة الحاكمة، فيتم وصفهم بـ „الظالمين'، ويُقصد بـ „عما يعمل"، أي ما يمارسونه من عنف ضد المتظاهرين. فلن يدع الله أعمالهم تمر دون عقاب. بل إنه في إحدى رسوم الجرافيتي الضخمة في المنطقة نفسها، يتم صياغة التهديد بشكل صريح ضد الحكام. فمن خلال الاستشهاد بالآيات ٦٧-٦٨ من سورة الأحزاب يتم دعوتهم لنيل العقاب الإلهي: „وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ۞ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا".

استخدام جديد لفن الخط إلى جانب الاستشهاد بآيات قرآنية، يعد أيضا استخدام الكتابات الخطية، كما نعهدها في القرآن، (بزخارف دقيقة والتشكيل وعناصر زخرفية أخرى) أحد أبرز معالم ظاهرة «الحراك الفني». فنجد أن بعض العبارات، كشعار «كلنا خالد سعيد» المفعم بالثورية، تظهر ككتابات خطية تذكرنا بالخط القرآني. مما يخلق انطباعا عفويا كأنما استمدت تلك العبارات من القرآن مباشرة. هذا ما ينطبق أيضا على مقولة „لا تصالح" الموجهة إلى الحكام وكذلك على جرافيتي «ميدان الشهداء» الملون الموجود بالقرب من ميدان التحرير. وبهذه الطريقة تتحور الشعارات العلمانية لتتخذ مظهرا دينيا. وفيما يتعلق باستخدام الرمزية الدينية بشكل عام، نجد أن الأسلوب الذي اتبعه «الحراكيون الفنيون» في معالجة الموضوعات يتسم بالذكاء: فلم يتم الزج بالثورة في كفاح عقائدي، فهذا من شأنه أن يتناقض مع الأهداف العلمانية – السياسية للمتظاهرين. بل إن استخدام وصف «الشهداء» لضحايا الثورة وكذا الآيات والكتابات القرآنية يؤكد على المعنى المقدس لتلك الثورة العلمانية. وبالتالي يصبح الإله معاونا للثوار وتكون قضيتهم العلمانية قد اكتسبت الشرعية الدينية. أي أنه وفقا للفن تكون الثورة قد استطاعت أن تجذب الأمة وكذلك الدين إلى صفها.

وفي النهاية يمكننا القول أن الفن في مصر (ما بعد) الثورة قد ارتقى ليصبح وسيلة شعبية للتعبير والاحتجاج. وبإلقاء نظرة على فن الجرافيتي المصري تتأكد لنا الأهمية الجوهرية والمحورية للرسائل القومية والمجتمعية. مثلها مثل ظاهرة «الوطنية الجديدة» التي يصفها عالم الاجتماع محمد بامية، ويُقصد بها ذلك الشعور الوطني الذي لا يستند إلى زعيم أو قائد، ويتبلور من خلال شعور بالتجانس الجماعي. إن الشعور بالوطنية وبالانتماء إلى المجتمع هي النماذج الرئيسية التي يتمحور حولها فن الثقافة الفرعية في مصر، حيث يقف بشغف في مواجهة الخطر الوشيك الذي يهدد بالتفكك الداخلي في مصر. مثلما يرتبط الصراع السياسي حول مستقبل البلاد في مصر المعاصرة بالجدل حول الأسس المشتركة في الأمة. وكأنما يرغب المواطنون المصريون في ضوء عدم الاستقرار السياسي والاقتصادي إلى التأكيد على صلابة هويتهم الجماعية على الأقل، لوضعها في مواجهة الانهيار المحتمل للبلاد. وإزاء المعارك المحتدمة في الوقت الراهن بين أنصار الإخوان المسلمين ومناهضيهم حول مدى شرعية حكومة مرسي، يعد هذا الهدف ذا أهمية قصوى في جميع الأحوال.

وعلى خلاف المتوقع، نلاحظ أن الدين أو الرمزية الدينية تلعب دورا في هذا الصدد، وإن كان ثانويا مقارنة بدور العناصر والرموز الأخرى. إذ يُستخدم الدين في بعض الأحيان لدعم الرسائل القومية والوطنية. أو بعبارة أخرى: تُستخدم الرموز الدينية، حين يرغب الفنان في التعبير بأن الدين ليس من شأنه أن يتناقض مع وحدة الشعب. وعلى الرغم من ذلك رأينا من خلال الأمثلة، أن مجرد النقد البحت لنماذج الحكم، يُعبَّر عنه أحيانا باستخدام رموز دينية. وهذا يشير إلى استمرار تعاظم أهمية الدين الإسلامي بالنسبة هوية المصرية. ففي تاريخ مصر الحديث، لم يكن بإمكان أي حاكم، سواء عبد الناصر أو السادات أو مبارك، التخلي عن تطعيم سياساته الخاصة بالمرجعيات الإسلامية، حتى وإن كان من الناحية البلاغية على الأقل. وربما ينطبق الأمر نفسه على شباب الثورة والرسائل التي يوجهونها من خلال فن الجرافيتي.

هانا روبيلين درست العلوم السياسية والإسلامية والقانون العام في مونستر والقاهرة وجنيف. وهي تعمل الآن كباحثة مساعدة في قسم علم اللغات الشرقية والدراسات الإسلامية بجامعة إرلانغن.

ترجمة: هبة شلبي

■ في عام ٢٠١١ تمّ الكشف عن سلسلة الاغتيالات التي نفذتها خلية يمينية متطرفة عرفت باسم NSU، التنظيم «القومي الاشتراكي السريّ» (النازي الجديد)، وذهب ضحيتها تسعة من المهاجرين، إضافة إلى شرطية ألمانية. وقد انتحر منفذا عمليات الاغتيال، في حين بدأت محاكمة مساعدتهما في مدينة ميونخ منذ صيف ٢٠١٣. الكاتب المعروف نويد كرماني يتناول في هذا النصّ آثار قضية الإرهاب اليميني على نظرة المهاجرين إلى ألمانيا.

ألمانيا وإرهاب اليمين

خطاب وطني

نويد كرماني NAVID KERMANI

في ظهيرة الرابع من تشرين الثاني/ نوفمبر من عام ألفين وأحد عشر أعلنت السلطات الألمانية أنّ أوفه موندلوس وأوفه بونهارت أضرما النار في عربة سكن متنقل في حيّ شتريغندا بمدينة آيزيناخ ثم أطلقا الرصاص على نفسيهما. وفي تلك الأثناء كانت مساعدتهما بيآتا تشيبه Beate Zschäpe تبحث في الإنترنت عن دواء مضاد للغثيان في حي راق من مدينة تسفيكاو التي تبعد عن مكان الحادث نحو مائة وثمانين كيلومتراً، قبل أن تسكب مادة تساعد على الاشتعال في السكن المشترك لتضرم فيه النار. وحالما خرجت من الدار إلى الشارع مع قطتيها للي وهايدي انفجرت واجهة المنزل. بيآتا تشيبه سلمت القطتين إلى جارتها واختفت قبل أن تسلم نفسها إلى الشرطة بعد أيّام قليلة.

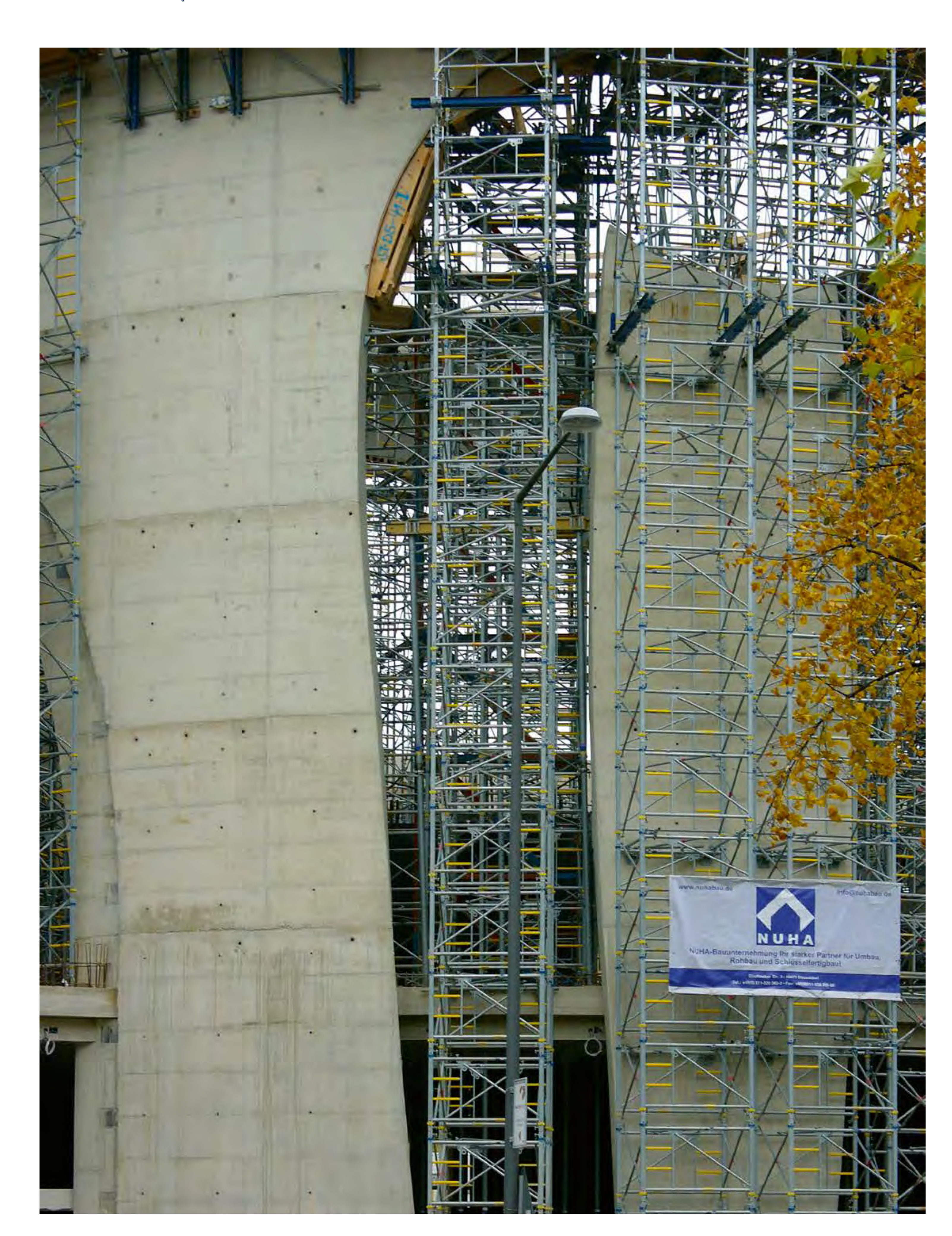
واكتشف المحققون في الأنقاض مسدس تشسكا من طراز ثلاثة وثمانية وعيار ٧,٦٥ ملم، بروانغ، الذي قُتل به ثمانية من المهاجرين الأتراك وتاسع يوناني الأصل وشرطية ألمانية. وعثروا أيضاً على قرص مدمج يحتوي على فيلم كارتون بعنوان «فهد الصغير باول» يبلغ طوله ربع ساعة ويظهر الفهد وهو يمرّ على أماكن الجريمة العشرة والانفجارين في مدينة كولونيا وذلك خلال قيام الفهد بـ «جولة عبر ألمانيا». ووصفت صور الضحايا الغارقين في دمائهم بعبارة مشاهد „أصلية"، وحملت عمليات الاغتيال لقب «عملية سيخ الشاورما». وعرض أصحاب الفيلم أنفسهم بصفتهم من التنظيم «القومي الاشتراكي السريّ» (نازيون جدد) الذي عرف اختصاراً باسم NSU، وهو يقدم نفسه باعتباره شبكة من الرفاق الذين يحملون مبدأ „الفعل بدل القول"، ويعلن قائلاً „طالما لم تحدث أي تغيرات جذرية في ميدان السياسية والصحافة وحريّة التعبير عن الرأي، فإنّ هذه النشاطات ستستمر". وكان الفيلم مصحوباً بموسيقى غنائية للفهد الوردي.

ويمكن الانطلاق من أن أوفه موندلوس وأوفه بونهارد وضعا موتهما في نظر الاعتبار واتخذا الإجراءات اللازمة لتفادي إمكانية إلقاء القبض عليهما. وكان منزلهما في تسفيكاو مزوداً بعدد من أجهزة مراقبة الحركة وأجهزة تصوير خاصة بالمراقبة وأسلحة نارية جديدة وجاهزة للاستخدام، إضافة إلى بندقية آلية ذات أخمص خشبي قصير، ومسدس رشّاش معد للمعركة النهائية. لكن في الرابع من تشرين الثاني/ نوفمبر لم يبق أمامهما متسع من الوقت للتفكير. فبعد عملية سطو مسلّح على مصرف طاردتهما دورية من الشرطة، كان يمكن أن تلقي القبض عليها في كلّ لحظة، اتخذت خطوة إضرام النار والاتفاق على من ذا الذي سيطلق في البدء الرصاص على نفسه بالتنسيق مع بيآتا تشيبه التي كلّفت بإشعال السكن المشترك ومن ثمّ الهرب، دون أن تنسى وضع القطّتين في مكان آمن، تستند كلّها إلى قرارات فردية عديدة ينطوي كلّ قرار منها على أهمية قصوى، ولا تتيح فرصة للاعتقاد بأن العملية كلّها جاءت حقّاً نتيجة عمل سريع ويائس. وحتى لو كان أوفه موندلوس وأوفه بونهارت، قد أصابهما الذعر ظهيرة الرابع من تشرين الثاني/ نوفمبر، مع أنّ ليس هناك ما يشير إلى ذلك، فانتحرا بسبب اليأس والخوف من السجن أو الشعور بالخجل مما فعلا، إلا أنها قدما أنفسهما ضحية من ناحية موضوعية، وذلك عبر إصرارها في المحصلة النهائية على الكفاح السياسي المسلّح، واختيار الحياة غير الشرعية والقطيعة مع العائلة وتحمل احتقار المجتمع لهما والتخلّي عن نمط العمل الوظيفي المعتاد من قبل المواطنين العاديين، والعيش سرّاً في ظلّ انعدام الأمن والخطر الدائم في التعرّض للاعتقال أو الإصابة أو القتل.

صورة جانبية لمسجد كولن وهو قيد الانشاء
Photo: Stefan Weidner

مسرحية للكاتب لسينغ تساعد على الفهم

هناك مسرحية تراجيدية ألفها غوتهولد إفرائيم ليسنغ عام ١٧٥٩ وهي ليس معروفة تماماً ونادراً ما تعرّض على المسرح، وتتحدث عن رجل شاب يضحي بنفسه من أجل وطنه. اسم المسرحية ذات الفصل الواحد هو فيلوتاس Philotas الذي هو اسم أمير في الوقت نفسه يقع في الأسر أثناء أوّل معركة يخوضها ضد جيش الملك أريديوس. فخشي فيلوتاس من أنّ اعتقاله سيكلّف بلده النصرَ، لأنه كان يعلم بأنّ أباه سيبذل كلّ ما في وسعه للإفراج عن ابنه، وإرجاعه إلى الوطن حتى لو دفع فدية مالية من أجل ذلك، وبهذا يكون حبّ الوالد لابنه سبباً في خسارة الحرب. فشكا الابن قائلاً : „بسببي، أنا



البائس، سيخسر أبي في يوم واحد كلّ ما كسبه بمشقة زمناً طويلاً عبر التضحية بدماء النبلاء ودمه نفسه".

لكن مصير فيلوتاس بدا يتخذ منحى إيجابياً بصورة مفاجئة، إذ لم يقع هو وحده في الأسر، إنما ابن أريديوس الملك المعادي أيضاً. فعرض أريديوس تبادل الأميرين، وإقامة التوازن بين طرفي النزاع، وإعلان المصالحة إن كان ذلك ممكناً. وفي الوقت الذي كان فيه فيلوتاس قادراً على العودة إلى أهله مطمئناً، دون أن يصبح مسؤولاً عن هزيمة بلده، اتخذت المسرحية مجدداً منحى حاسماً. ففي مجرى الحوار الداخلي على امتداد صفحتين أدرك الأمير بأن مصرعه سيجلب منفعة كبيرة لبلده، فقال متأملاً: „سيكون هناك أمير أسير في قبضة والدي وسيفرض أبي جميع الشروط التي يريدها، بينما يكون خصمه الملك لا يمتلك سوى جثّة أمير أسير لا يستطيع أن يضع على تسليمه شروطاً". وسأل فيلوتاس „لكن بماذا يتعلق الأمر كلّه؟" ثم أجاب مدركاً ومباغتاً نفسه بالقول „يتعلق الأمر بالموت! وهل هناك شيء آخر سواه؟ حقاً! إن الإنسان أقوى من اعتقاده بأنه يدرك موته بنفسه".

لقد اعتدنا على سماع قادة الدولة الألمانية ومعلقيّ التلفزيون وهم يصفون كلّ عمل إرهابي، وخاصة الاعتداء الانتحاري، بالعمل الجبان، فيبدو لي ذلك غريباً بعض الشيء ووصفاً عاجزاً دائماً. لأن الإرهابي، وخاصة الانتحاري يتصرف دون وازع أخلاقي ودون وجه حقّ وبلا إنسانية، لكنه ليس جباناً قطّ، بل على العكس تماماً: إذ أن المرء يتمنى لو أن الإرهابي يرتدع بفعل الخوف في الوقت المناسب، بدلاً من أن يجازف بحياته عن قناعه أو يضحي بها. وبهذا يكون أوفه موندلوزس وأوفه بونهارت قد ضحيا بنفسيهما من أجل وطنهما، ليس فقط بفعل إدراكهما الذاتي لذلك، بل نتيجة لإدراك الكثيرين من أمثالهما الذين سيحتفون بهما أثناء نشاطاتهم العلنية باعتبارهما بطلين، وخاصة في شبكة الإنترنت.

ولعلّ الصياغة التي ترتبط بتصورات سلمية خاصة بمفهوم الوطن تختلف عما يربطه إرهابيان من اليمين المتطرف تبدو منافيةً للعقل في نظر البعض؛ بيد أن من يهدف إلى محاربة العنف السياسي فعليه أن يفهم دوافع هذا العنف ويدرس حيثياته، بما فيها الحيثيات المتعلقة بالحياة الشخصية ويلقي الضوء على تفكير المناصرين للعنف. فالمجرم قد يستنكر أفعاله أو لا يستنكرها، على العكس من المعتدي المقتنع بفعله والمستعد للموت ويتصرف بحقّ بالضرورة وفقاً لتقديره لنفسه عندما يقتل أيضاً أناساً أبرياء تماماً حسب معاييره، بما فيهم المارّة والأطفال مثلما فعل ثلاثيو تسفيكاو بلا شكّ والذين قتلوا شرطية ألمانية. حقّاً، إنّ الإرهابي ومثلما يظهر تاريخ العنف السياسي مراراً يزداد تصميماً وإصراراً على تحمل عواقب عمله كلّها معتبراً تأنيب الضمير جزءاً من تقديم تضحية أكبر. وينطبق هذا على عمليات القتل التي تنفّذ باسم الإسلام وعلى الاغتيالات التي ارتُكبت باسم ألمانيا. فكل شيء، هكذا يتابع فيلاتوس كما لو أنه في حلقة دراسية فلسفية، يكون مكتملاً إذا ما خدم الهدف في نهاية المطاف. وما هو هدف الإنسان الحريص على وطنه، حتى لو كان ضعيفاً، أو أسيراً لأنه أخفق في ميدان المعركة؟ „إنني أستطيع تحقيق هدفي، وسأقدم نفسي من أجل أبناء بلدي الأخيار: وأنا مكتمل الآن، وأصبحت رجلاً. بل أصبحت رجلاً رغم أنني كنت صبياً صغيراً قبل أيّام قليلة". فالاستعداد البطولي لتقديم تضحية ذاتية هو الذي كان يفعّل المبدأ الأساسي لكي يتخذ مداه الأقصى كما أشاعه فيديو خلية النازيين السريّة المطالب: بالأفعال بدل الأقوال. „إنكم تحبون الحياة، ونحن نحبّ الموت"، هكذا يقول شعار تنظيم القاعدة الإرهابية، أو مثلما نقرأ ذلك لدى لسنغ: „كلّ من عاش عشر سنوات، يكون لديه عشر سنوات لتعلّم الموت".

الخلفيات الشخصية للإرهابيين فهل كان أوفه موندلوس وأوفه بونهارت انتحاريين؟ كلا بالتأكيد. بل إن جرائمهما كانت جبانة فعلاً من منطلق أنهما كانا يغتالان ضحاياهما تربصاً أو من مسافة آمنة. لكن دعونا نتذكر حالة الحيرة التي سادت في أوساط الرأي العام بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ المشابهة للحيرة التي شاعت بعد الرابع من تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١١. فرئيس خلية تسفيكاو الإرهابية أوفه موندلوس وكذلك رئيس خلية هامبورغ الإرهابية محمد عطا كانا ينحدران من عائلتين متعلمتين، لم تغلب على تفكيرهما التصورات القومية أو الدينية المتعصبة بالذات، فوالد موندلوز كان مثقفاً في زمن الاشتراكية وحتى منتقداً للنظام، أما والدا محمد عطا فهما علمانيان.

وقبل عشر سنوات أبدت مجلات مثل «دير شبيغل» أو «شتيرن» استغرابها من أن محمد عطا كان مندمجاً في ألمانيا بصورة مثالية وكان يفكّر في البيئة وترميم المدن التاريخية القديمة ولديه صديقه ألمانيا وكان يدخن الحشيش أحياناً ويقصد ملعب «ميلرنتور» في هامبورغ لتشجيع فريق «سان باولي» في نهاية الأسبوع بدلاً من الذهاب إلى المسجد، وذلك قبل أن يتحول إلى إرهابيّ إسلامي. لكنه عاد ذات يوم من رحلة إلى مصر ملتحياً ويرتدي الجلباب التلقليدي الذي لم يلبسه أحد من أفراد عائلته منذ جيلين على الأقل، الأمر الذي فاجأ أساتذته وزملائه الطلبة. فكيف تحوّل طالب منفتح وناشط في مجال العمل الاجتماعي إلى قاتل بالجملة؟ كان الصحفيون الذين درسوا السير الذاتية للقتلة يطرحون هذا السؤال آنذاك دون أن يهتدوا إلى إجابة مقنعة. كذلك ابن الأستاذ الجامعي أوفه موندلوس كان يقرأ الكثير ويحصل على معدلات جيدة في المدرسة وكان يفضّل الفروع العلمية بشكل خاص. ويصفه زملاء مدرسته السابقون وأصدقاؤه بأنه كان فتى ذكياً، لكنه لم يثر اهتمام الآخرين، ويحبّ فرقة AC/DC الموسيقية وسيستمع إلى أغاني «أودو ليندنبيرغ» وكان شعره مجعداً وطويلاً. وذات يوم دخل المدرسة حليقاً على الطريقة النازية ويرتدي حذاء المظليين، الأمر الذي فاجأ زملائه في الصفّ ومعلّميه.

فالأوضاع العائلية الاعتيادية والمريحة أيضاً المعروفة التي كان يعيشها أعضاء منظمة الألوية الحمراء والجماعات اليسارية المتطرفة في ألمانيا خلال فترة السبعينات والثمانينات لا تتناقض مع انتقال هؤلاء فيما بعد إلى ميدان التطرف السياسي، إنما ساعدتهم في الواقع على رفض النمط البرجوازي بصورة متطرفة، وحتى محاربة الاستجابة لجاذبية مخططهم الحياتي. لسينغ لم يغفل عن عرض دغدغة المشاعر التي صاحبت تفكير الأمير القاضي بنسف مضمار وجوده المضمون: „أيّ نار تستعر في عروقي؟ وأي حماس يجتاحني؟ لقد أصبح الصدر ضيقاً على القلب! فاصبر أيها القلب، فغداً سأجعلك حرّاً، وأسرحك من خدمتك الرتيبة المملة!" ويعالج الحوار الداخلي الصحوة الخارجية التي تتفاعل مع النار الداخلية وحذق الخطة وتنفيذها ببرود، وذلك عندما يلاحظ فيلوتاس نفسه بأنه أصبح هادئاً فجأةً بالنظر للأفق الواسع بأن والده سيكسب الحرب بموت الابن، فيطبق خطته بجرأة في المشاهد اللاحقة، فيحصل على سيف، مطمئناً إلى أن أباه سينعم بالأمن لأنه سيحول دون وصول عرض تبادل الأسرى إلى أبيه.

بيد أن هناك ما يلفت الانتباه في سير حياة المعتدين أكثر من حالة عدم إثارة الانتباه التي اتسمت بها شخصياتهم كما كتبت الصحافة بعبارات متشابهة بعد الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ و بعد الرابع من تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١١. فقد وصف المحيطون سابقاً بمحمد عطا وأوفه موندلوس كذلك بأنهما كانا لطيفان للغاية ومرهفيّ المشاعر. وقد عنونت دير شبيغل إحدى مقالاتها عن ماضي محمد عطا بعبارة „لطيف وطيّب ولم يكن شريراً قطّ". ولاحظ كاتب مجلة شتيرن بدهشة بأن „كلمة الإنسانية بالذات كانت تتكرر دائماً كلما تحدث الزملاء السابقون عن الطالب محمد". وعلى هذا المنوال يتذكر جيران أوفه موندلوس السابقون، بأنه كان يرعى بكلّ لطف شقيقه المعوّق، ويرافقه دائماً إلى الطبيب ويتجول معه في كرسيه المتنقل، ولم ينس قطّ أنّ يحييّ السيّدة المسنة التي كان تطلّ من نافذتها. ومثلما تضاربت آراء وسائل الصحافة حول رئيس خلية هامبورغ الإرهابية قبل عشر سنوات، فإنها تتساءل أواخر عام ٢٠١١ „كيف أصبح ابن أستاذ لطيف إرهابياً يمينياً بفعل الكراهية؟"

الإرهابي هو جزء من مجتمعه كذلك من السذاجة أن نصف شباباً على غرار محمد عطا وأوفه موندلوس باعتبارهم متوحشين ومجانين وقتلة نازيين مثلما نرى في التقارير الصحفية المنشورة في جريدة «بيلد» على سبيل المثال؛ وهذا ما كان يحدث غالباً بغية إقصاء القتلة عن المجتمع قدر المستطاع والابتعاد عن التحريض الذي تشيعه المواقف والحملات الصحفية عبر وصف هؤلاء بالحالات المرضية. ويتضح القلق الذي تولده أعمال العنف السياسي هذه ببعده الشامل عندما نضع تلك الأجزاء في رقعة الأحجية حتى لو بدت هذه القطع غريبة عن صورة الأحجية نفسها، ونعني بذلك الخلفية البرجوازية والتعليم والذكاء واللطف والمثالية. وقد رفض لسنغ قبل مائتين وخمسين عاماً موقف فيلوتاس رفضاً قاطعاً وعبّر عن الخلاصة المسرحية الجمالية التي تنطوي عليها انتقاداته العديدة لثقافة البطولة وحبّ الوطن عندما وصف التراجيديا في الباب التاسع عشر من كتاب المسرح الهامبورغي بأن „هناك من يقول إن الكبرياء الحقيقية ستنحطّ إذا ما تحولت إلى مجرد خطبة لامعة لرجال مشاهير، أو استخدمت بشكل لتغذية الشعور بالافتخار القومي". ومع ذلك لا يقدم لسنغ الأمير باعتباره مجنوناً، بل يتعقب تسلل أفكاره خطوة خطوة في المنولوج الطويل للمشهد الرابع، تلك الأفكار التي تدفع بإنسان شاب ومتأمل وشديد التحمّس للتضحية بنفسه من أجل هدف سياسي ـ مثلما لا يجوز أن يوصف أوفه موندلوس ومحمد عطا بعد تحولهما إلى ميدان التطرف السياسي بالمضطربين فكرياً، بل على العكس من ذلك تماماً. فالملفت للنظر في سيرتهما الذاتية هو أنهما عرفا من قبل المتعاطفين معهما بالمحاججة الذكية وسعة الاطلاع، وليس بالشعارات الجوفاء.

فيلوتاس يتساءل: „من هو البطل؟" ويتذكر عبارة لأبيه مفادها أن البطل رجل يغلّب القيم العالية على الحياة: „رجل يضحي بنفسه من أجل رفاهية الدولة ورفاهية الآخرين الكثيرين". ثم يتوقف فيلوتاس وقفة تأمل قصيرة ويسأل نفسه فيما إذا كان صغيراً على الموت البطولي، تماماً مثلما تساءل محمد عطا وأوفه موندلوس ربما فيما إذا كانا عاجزين بصفتها فردين صغيرين عن مواجهة خصم مجرد وجبّار مثل الغرب أو رأس المال أو جهاز الدولة. بيد أن فيلوتاس يراجع نفسه ويتوصل إلى أنّ الأمر لا يتعلق بالموت البطولي، بل بالموقف وحده، وليس بالكلمات البينة، بل بالعمل وحده: „كم هو عمر شجرة التنوّب الصالحة أن تكون عموداً للصارية؟ إنّها يجب أن تكون باسقة وقويّة على نحو كاف".

أفعال وليس أقوال ـ هذه العبارة تعني في حالة الخلية النازية الأفعال وحدها، دون الحاجة إلى الكلام. ومما أثار حيرة المعلقين الصحفيين هو غياب أي بيان بعد كلّ عملية اغتيال أو تفجير يشير إلى تبنى جهة ما مسؤولية هذه العملية أو تلك، لأن المرء اعتاد على أن الإرهاب في صورته التقليدية، مثل إرهاب الألوية الحمراء مثلاً، أو الانفصاليين الباسكيين أو الجماعات المسلحة في فلسطين، يوظّف العنف من أجل أهداف سياسية واضحة تدون على الورق مثل إسقاط النظام أو الإفراج عن معتقلين أو المطالبة بالحكم الذاتي أو إنهاء الاحتلال العسكري. لكن هل يعتبر غياب بيانات تبني المسؤولية أمراً غير مألوف؟ فهناك نمط جديد من الإرهاب تشكّل في العقدين الأخيرين، يعتمد على الصمت في إثارة المزيد من الرعب. وحتى هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ بقيت دون إعلان للجهة المسؤولة عنها ولم تكن مصحوبة بمطالب سياسية ولم تستند إلى مخطط إيديولوجي يمكن العودة إليه. وبعد ذلك بفترة طويلة تبنى بن لادن مسؤولية الاعتداءات، وترك بوعيٍّ حجم الارتباط بين مختطفيّ الطائرات وتنظيم القاعدة غامضاً في الأذهان. وعلى طريقة لعبة كرة الطاولة مع وسائل الإعلام العالمية والحكومة الأمريكية التي رسخت تلك اللحظة المخيفة والغامضة وغير السياسية، رفع أسامة بن لادن منظمته إلى سلطة فضائية قادرة على الانقضاض في أي زمان ومكان. فأعلن بن لادن في نهاية رسالته المشؤومة والمسجلة في أوّل شريط فيديو: أن الأمريكي يجب ألا يعيش بأمان بعد اليوم. وهو الشعور نفسه الذي حاولت الخلية النازية إشاعته بين أوساط المهاجرين الأتراك من خلال بحثها وبمحض الصدفة عن الضحايا الموزعين في عموم ألمانيا؛ بمعنى أن الأجنبي سيواجه قوّة مجردة لا يمكن الإحاطة بها، وسيعرّض نفسه داخل ألمانيا إلى خطر محدق في كل زمان ومكان. هذا الأسلوب الجديد نسبياً من العنف السياسي يستمد قوته من رفض الخطاب السياسي وكل نقاش سيستند إلى الحجج. ولم تعد صورة أعدائه النمطية تقتصر على دولة محددة أو حكومة أو حزب، بل على الأنظمة المتسلطة والجماعات الإثنية أو الثقافات

العامة. وبناء على ذلك فإن هذا الإرهاب الذي لا يحدد مطالبه ولا يبدي استعداده للتفاوض مع أصحاب السلطة لا يؤمن إلا بالنصر المطلق، أي باقتلاعه هو نفسه أو القضاء على خصومه أو تهجيرهم كلّهم، أي اقتلاع النظام السائد و «العرق الدخيل» والكفّار والثقافة المتخلفة.

والرد على الإرهاب غير المعلن عن نفسه لا يكمن في التكيّف وفقاً لثقافته الفكرية والركون الدائم إلى طبيعته المخيفة ثم إعلان الحرب على نظام أو «عرق» أو دين أو ثقافة. لأن الإرهابيين يحملون أيديولوجية أيضاً وأهدافاً براغماتية ولهم شبكة من الأنصار وسند أيديولوجي داخل أجزاء من المجتمع حتى لو تصرفوا دون برنامج أو مطلب أو اسم معين. ولعل الخلية النازية قد حلّت نفسها بعد انتحار أوفه بونهارت وأوفه موندلوس واعتقال بيآتا تشيبه وغيرها من المناصرين. إلا أن الأسباب التي أدت إلى نشوئها، بل والأسوأ من ذلك إلى الآثار البعيد للدماء التي سفكتها، مازالت قائمة إلى الآن.

مشكلة القومية إذا كان لابد من التعامل مع الإسلام نفسه لفهم التطرف الإسلامي فإن لا مناص من التعامل مع القومية لفهم التطرف اليميني. وينطبق هذا الوضع بصورة أكبر على المشروع الأوروبي الذي بدا وكأنه تجاوز النزعة القومية في هذه القارة وإلى الأبد، لكنه دخل في أزمة شرعية قبل الأزمة المالية بفترة طويلة ـ وأودّ أن أذكّر هنا بفشل الدستور الأوروبي والنهوض الذي شهدته الإحالة إلى هذه النعرة القومية أو تلك والتي اجتاحت القارة الأوروبية برمتها. وبات المرء ينأى بنفسه في ألمانيا دائماً ويشير إلى دول مثل هولندا والنمسا وسويسرا وهنغاريا والدنمارك وفنلندا أو بولندا والتي اشترك أو يشترك في حكوماتها ما يسمى بأحزاب اليمين الشعبوي، بل إنّ هذه الأحزاب حصلت جزئياً على أغلبية برلمانية. والمقصود بعبارة اليمين الشعبوي المستحدثة، كما لو أنها تتعلق بظاهرة جديدة، أو ربما حتى بنوع من الموضة السياسية، هو أمر ينطوي على تقليد عريق حقاً. فاليمين الشعبوي هو حركة سياسية معادية للأوروبية والأجانب والعدالة الاجتماعية، وتستند بلاغياً إلى عبارة الحرب الدفاعية ولا تمثل من حيث مقوماتها الجوهرية إلا قومية القرنين التاسع عشر والعشرين. لكنها لم تجد لها مكاناً سياسيّاً مؤثراً، لأن الأحزاب المعروفة والمتمرسة في السياسة أثبتت بأنها محصنة كلّها نوعاً ما أمام الاتجاهات القومية، على الرغم من جميع التذبذبات الصادرة هنا وهناك. لكننا سنحصل على صورة أخرى مغايرة تماماً إذا ما نظرنا إلى المجتمع الألماني نفسه ـ بالاعتماد أيضاً على استطلاعات الرأي التجريبية، حيث لا يختلف الألمان في تصوراتهم جوهرياً عن المجتمعات الأوروبية الأخرى. فالمكتبات التجارية تغصّ بالكتب الرائجة التي تتناول قضايا الهجرة أو الاقتصاد أو الثقافة أو التاريخ أو الاتحاد الأوروبي، وتنظر إلى العالم من الزاوية القومية الخاصة بمؤلفيها؛ وتبثّ جريدة «بيلد» ومجلة «دير شبيغل» الأوسع انتشاراً في البلد، تبثّان منذ سنوات الشكوك بالمشروع الأوروبي، بأسلوب لا تجاريه كبريات الصحف البريطانية أو الهنغارية.

وينتعش الآن في ألمانيا الأمل، وبعد إقامة بطولة العالم لكرة القدم في البلد نفسه على أبعد تقدير، بل تنتعش وجهة النظر الرامية إلى فصل الوطنية المفرحة والمسالمة والمتسامحة مع الأجانب عن القومية التي أسقطت البلد مرتين في هوة سحيقة في القرن العشرين وأبادت أقليات بأكملها.

وعلى الألمان أن يقيموا أخيراً علاقة طبيعية وغير متشنجة بالقومية شأنهم شأن الشعوب الأخرى. وفي الواقع كان الناس هنا يعرفون أنفسهم باعتبارهم منتمين إلى شعور جمعي، وأعضاء في جماعة تختلف عن الجماعات الأخرى. ثمّ إن الناس يفتخرون منذ القدم بمدنهم ومناطقهم وأراضيهم الطبيعية التي ولدوا فيها وترعرعوا ويشعرون بالانتماء لها، ويرتبطون ارتباطاً وثيقاً بلغتهم الخاصة. وليس هناك ما هو معيب في القيم والاهتمام بالمحيط المألوف وحبّه وحبّ الثقافة الخاصة بهذا المحيط وبشكل طبيعيّ مثل حبّ الوالدين. وبالضبط في تلك السنوات التي تتصل خلالها لسنغ عن الوطنية باعتبارها موقفاً سياسياً، دافع عن التقاليد الجرمانية ضد التصنّع الفرنسيّ للأدب المعاصر آنذاك.

أنموذج كرة القدم إلا أنّ حبَّ القومية لم يكن طبيعياً أبداً مثلما بدا منذ إقامة بطولة العالم لكرة القدم في ألمانيا، وذلك لأنّ مفهوم القومية باعتبارها جماعة لغوية مرتبطة بأرض وعرق موحد إلى حدّ بعيد هو من نتاج القرن التاسع عشر. ثمّ حلّت فيما بعد القناعة الثابتة بأن الوحدة السياسية مرتبطة بالوحدة القومية،



محلات تركية في ألمانيا
Photo: Stefan Weidner

ولذلك يجب أن تقسّم الكرة الأرضية كلّها إلى دول، وفقاً لمعيار القومية. أمّا مفهوم الدولة القومية فقد نشأ خلال الثورة الأمريكية والفرنسية وتبنته الحركة الليبرالية البرجوازية في القرن التاسع عشر، وهو لا يستند بالتأكيد إلى الوحدة العرقية والثقافية، بل إلى التوافقية السياسية لمواطنيه مثلما عبرت عنها جمهورية ألمانيا الاتحادية عبر إعادة اكتشاف هذه الكلمة الجميلة التي تعود إلى الوطنية الدستورية. ومصطلح الدولة القائم على الرابطة العرقية والجغرافية واللغوية وكذلك النظام العالمي القائم على القوميات هما من بنات أفكار أواخر القرن التاسع عشر. وقد نسي اليوم العنف الذي يكمن في هذه المطالب، طالماً لم يتحقق التجانس المزعوم إلا نادراً أو لم يتحقق قطّ، وخاصة في منطقة استخدام اللغة الألمانية بتنوعها العرقيّ واللغويّ والديني، ولم يتطابق مع الواقع المعاش فعلاً، لأن مفهوم القومية فقد بعضاً من قوته لحسن الحظ ليس فقط في أوروبا وحدها، إنما في أرجاء أخرى من العالم، وذلك بفعل الارتباط بالمنظمات الخارجة عن حدود القومية أو بفعل التداخل الاقتصادي والثقافي المتنامي وحركات الهجرة الضخمة للشعوب وكذلك عبر الرؤى المتعددة القوميات للصناعة الثقافية وعالم الرياضة المغاير. فكلّ من يلوّح بالعلم الألماني أثناء مباراة في كرة القدم لا يفكّر عادة في السيطرة على العالم بل في بطولة العالم وحدها. لكننا نتناول هنا هذه التجربة اليومية القريبة، وهي أنّ كل مشجع كروي يصيح متحمساً أثناء مباراة بطولة مهمة، ويحثّ اللاعبين زاعقاً ويشعر بأنّ فريقه محقّ مبدئياً إذا ما احتج على خطأ أو تسلل، معتبراً الفريق الخصم غير محقّ أساساً إذا ما أدعى بأنّ الكرة تجاوزت بالكامل خطّ مرمانا، كلّ مشجّع عليه أن يعلم مدى خطورة تضخيم الانتماء الجمعي في حالة نقله من مستوى كرة القدم وتطبيقه على مستوى السياسية والتعامل الاجتماعي. لسنغ عرض ذلك في مسرحيته المأساوية حيث يرفض فيلوتاس التفاوض مع الملك أريديوس المعادي حول الحرب، لأن وجهة نظره لم تعد قابلة للتغيير: „لا أعـرف سوى أنك وأبي تخوضان حرباً، والحقّ – الحقّ، على ما أعتقد، هو إلى جانب أبي. وهذا ما أؤمن به أيها الملك، وأريد أن أقتنع به هذه المرّة ـ حتّى لو أظهرت لي عكس ذلك بشكل قاطع". وتصف هذه الجملة المبتورة „أريد أن أقتنع به هذه المرّة ـ حتّى لو أظهرت لي عكس ذلك بشكل قاطع" المادة الناسفة الكامنة في أدلجة الشعور الجمعي وصفاً دقيقاً وتعبر عن مناعة الحقيقية الجمعية إزاء التجربة الفردية والإدراك العقلي.

عمى سلطات التحريّ من جملة الملابسات التي أحاطت بسلسلة عمليات الاغتيال التي قامت خلية تسفيكاو وأعوانها هناك أمر يثير الخجل أكثر من غيره وهو أنّ أحداً لم يصدق ربما عائلات الضحايا وبعض الجمعيات الناشطة اجتماعياً والصحفيين الملتزمين الذين رجحوا بأن هذه الجرائم قد تكون ذات دافع عنصري، على الرغم من قوة الأدلة الساطعة ومرور أكثر من عشر سنوات على أوّل عملية اغتيال. والأسوأ من ذلك هو أن سلطات التحقيق اتهمت الضحايا واحداً بعد الآخر بالتورط في ارتكاب هذه العمليات وفي تجارة المخدرات والقيام بأعمال الابتزاز المالي، أو حسبتها من ضمن جرائم الثأر أو الغيرة، أي «غسل العار»؛ والمسؤول عن هذا الفشل الذريع هو القوى الأمنية في البلد قبل كلّ شيء، والشرطة والادعاء العام المكلف بمتابعة هذه القضايا، وجهاز الأمن الذي لم يفشل فقط في الكشف عن ملابسات الاغتيالات، بل عرقل وبنشاط محموم علمية الكشف هذه مثلما لخصّ ذلك الكاتب الألماني في جريدة «زود دويتشه تسايتونغ» هيريبرت برانتل. فقد وصف زيغفريد موندلوس، والد الإرهابي أوفه موندلوس، وصف لأحد الصحفيين كيف أن أجهزة الأمن والشرطة كانت تشك في بعضها البعض. وحدث أن وقف رجلان أمام باب بيته ونصحاه بأن يستخدم كابينة التلفون العمومي إذا ما أراد الاتصال بابنه، لكي لا تتنصت الشرطة على المكالمة. وذكرت جريدة «برلينر تسايتونغ» بأنّ جهاز الأمن كان يُطلع قائد النازيين الجدد في ولاية تورنغن تينو براندت وباستمرار عن إجراءات المراقبة التي كانت تقوم بها الشرطة. وقد حدث بأن قوى الأمن كانت تلاحق السيارات التي كانت تسير خلف سيارة براندت.

وكان المرء يتمنى لو أن هذه الإخفاقات والأخطاء المبتسرة تحتسب على سلطات التحريّ والتحقيق وحدها. لكن كانت تظهر أسبوعاً بعد آخر أدلة جديدة على تحيّز حماة الدولة في الواقع وعدم التبصّر أيضاً في التعامل مع العنف اليميني. ومن وجهة نظرنا اليوم لا يمكن أن نفسّر ببساطة الجزم القاطع لجهاز أمن الدولة بأنّ سلسلة الاغتيالات لم تستند إلى خلفية يمينية متطرفة. ونذكّر هنا نيابة عن هذه الأخطاء بأغنية فرقة Gigi & die Braunen Stadtmusikanten الشهيرة التي احتفلت بعمليات الاغتيالات „ثمة خوف ورعب يسودان في كل محل للشاورما/ وسيبقى لحمها عالقاً في البلعوم/ فهو سيأتي دون سابق إنذار وبسرور/ لزيارة محل الشاورما/ لأن تسعة لا يكفون". هذا الأغنية التي تتضمن معرفة جليّة ومسبقة بما حدث، لم توضع في شبكة الإنترنت بصورة سرية، خلواً من الاسم، بل كانت تغنى في الحفلات الموسيقية ويرددها مئات المشجعين المتحمسين. وكانت هذه الأغنية منتشرة في أوساط اليمينين المخترقين من قبل مخبريّ الدولة، وذائعة الصيت فعلاً. ومع ذلك بقيت الفرقة بلا محاسبة قانونية إلى أن رفعت دعوى قضائية على المغني „غيغي إلياس دانييل غيزه" بعد الرابع

من تشرين الثاني/ نوفمبر عام ٢٠٠١. فجهاز الأمن الألماني، ولكي نستعيد كلمات لسنغ التي وضعها على لسان فيلوتاس، لم يرد أن يقتنع بتورّط ألمانيّ حتى لو أتضح أمامه نقيض ذلك بصورة ساطعة.

التقليل من خطر العنف العنصري أحصت المنظمات المناهضة للفاشية مائة واثنين وثمانين قتيلاً ذهبوا ضحية العنف العنصري منذ عام ١٩٨٩. وقد سجلت الصحافة الألمانية مئة وخمسين حالة قتل على الأقل. لكن الحكومة الألمانية تصرّ إلى اليوم على القول بأن عدد الضحايا سبعة وأربعين شخصاً "فقط". هذا الوضع يشير إلى استمرار سياسة التكتم المنظّمة بصرامة، وهي السبب في أن قدرة أوفه موندلوس وأوفه بونهارت وبيآتا تشيبه على الاختفاء طيلة ثلاثة عشر عاماً، رغم الأدلة العديدة على مكان سكنهم؛ ورغم أنهم لم يعزلوا أنفسهم، بل كانت لديهم شبكة واسعة من المؤيدين والمتعاطفين الذين كانوا يقومون بحملات للتبرع بالمال أثناء التجمعات العامة. هذا التكتّم البنيويّ المنتظم هو السبب الذي جعل المحققين يصرون على فرضية تورط المافيا بالاغتيالات. فقد ارتفع عدد الجرائم التي ارتكبها اليمين المتطرف بمقدار النصف وذلك بين عاميّ ألفين وواحد وألفين وأحد عشر. بيد أن مكتب الأمن الاتحادي ألغى في عام ألفين وستة شعبةَ اليمين المتطرف. أمّا وزيرة شؤون الأسرة والشباب كرستينا شرودر فقد خفّضت وبشكل كبير أموال دعم المبادرات الاجتماعية التي تناهض العداء للأجانب، وكانت ستخفضها مرّة أخرى في نهاية عام ألفين وأحد عشر لولا الكشف عن جرائم الخلية النازية.

ولم يعد هناك سياسي ألماني واحد، وحتى موظف الأمن، ينكر إخفاق الجهاز الأمني بشكل لم يكن متوقعاً فعلاً. ولكن ظهر أيضاً دليل على تواطؤ عناصر من جهاز الأمن مع إرهابيي تسفيكاو فتستروا عليهم. ومن المحتمل أنّ سلسلة الأخطاء لم تحدث عن قصد، بل جاءت تعبيراً عن مناخ اجتماعيّ ونتيجةً له. فالرأي العام كان مهيئاً تماماً لتأكيد تصوراته النمطية وأحكامه المسبقة، فرفض إظهار أيّ تعاطف مع أسر الضحايا. ولم يكن جهاز أمن الدولة الألماني مسؤولاً عن إشاعة مصطلح «اغتيالات الشاورما»، بل الجرائد الرصينة، وهي صياغة لم تكن بعيدة عن عبارة «عملية شيش الشاورما» التي استعملها القتلة النازيون. فما الذي تعنيه عبارة «اغتيالات الشاورما» أكثر من التعبير جريمة عصية على الفهم الغربيّ العقلانيّ المتأصل ثقافياً، لتزويد الرأي العام بحجة جديدة لمعاملة الأتراك بشكّ وارتياب؟ ففي عام ألفين وخمسة وبعدما تكثّفت الأدلة على الدافع العنصري للجرائم ادعت جريدة بيلد بأنّ ضحايا الاغتيالات الستة حتى ذلك الوقت كانوا يعقدون صفقات تجارية مع شركة للاستيراد والتصدير في إسطنبول، ويستثمرون أموالهم في تجارة المخدرات. وبعد ذلك بعام وحد جنحت مجلة دير شبيغل نحو فرضية تقول إنّ „العالم المتوازي للأتراك والذي يصعب اختراقه هو الذي يحمي القتلة". وفي عام ألفين وتسعة ألقت المجلة نفسها التهمةَ على مافيا الرهانات، ثم رجحت في عام ألفين وأحد عشر، وقبل عملية الانتحار بشهور قليلة وجود „تحالف بين الأتراك اليمينيين المتطرفين والمخابرات التركية ورجال العصابات".

تحويل الضحايا إلى مذنبين لكي نفهم وقع هذا النمط من الأحكام المسبقة على المتضررين بشكل ملموس نشير هنا، ونيابةً عنهم، إلى حادثة الاغتيال التي وقعت في هذه المدينة (هامبورغ): حيث كان والد بائع الخضروات سليمان تازكوبرو يحتضن جثة ابنه عندما اقتيد من المحل وتمّ استجوابه ساعات طويلة في مركز الشرطة. وعلى الرغم من أنّ هذا الاستجواب وما لحقه من عمليات استجواب لم يؤكد التهم الموجهة إليه، لكن صحف المدينة سارعت إلى القول بأنّ سليمان تازكوبرو متورط في أعمال إجرامية. فابتعد عنه الجيران وتحطمت صداقاته مع الآخرين، وأعقب اغتيال الابن الحطّ من سمعة العائلة. ولم تقتصر هذه التجربة على عائلة تازكوبرو وحدها، إنما شملت وبشكل صادم أيضاً ذوي ضحايا عمليات الاغتيالات العشرة كلّهم تقريباً حتى الرابع من تشرين الثاني/ نوفمبر لعام ألفين وأحد عشر فتركوا بمفردهم وهم يعتقدون بأن الأب والزوج والابن ذهبوا ضحية جرائم عنصرية. وللإنصاف لابد أن نضيف هنا بأنّ مجلة دير شبيغل وعدد من هيئات تحرير الجرائد أخذت تمارس في غضون ذلك أسلوب النقد الذاتي فيما يتعلق بتعاملها مع هذه القضايا واستخدام المصطلحات.

لسنغ يستحق فعلاً المديح والإطراء نظراً لاطلاعه على الثقافات الأجنبية ودفاعه عن التسامح، وكان من أوائل الكتّاب الألمان الذين استخدموا عبارة «كوزموبوليتي» ومقابلها الألماني «المواطن العالمي». ونادراً ما نرى ذلك الانفتاح على العالم المقرون بالانتقاد الصارم للمجتمع نفسه، إذ كتب لسنغ في رسالة بتاريخ السادس عشر من كانون الأول/ ديسمبر ١٧٥٨ يقول „لم أجد عبارة أصلاً لأصف بها حبّ الوطن (ويؤسفني أن أعترف أمامكم بهذا العار). ويبدو لي هذا الحبّ وبشكل جليّ كالعاهة البطولية التي أودّ ن أحرم نفسي منها وبكلّ سرور". فوطنية منتصف القرن الثامن عشر كانت تختلف تماماً عن وطنية أواخر القرن التاسع عشر. والوطن الذي يجب أن يحبّ هنا لم يكن قومية، بل مكاناً لغوياً تحوّل شيئاً فشيئاً إلى وعيّ جماعيّ من خلال طباعة الكتاب وترجمات الكتاب المقدس ومحو الأمية وتأثير الأدب الألماني. وكانت الوطنية تعني بالنسبة للسنغ اتخاذ قرار قبل كلّ شيء بين الولاء للساكسونيين أو البروسيين الذين كانوا يخوضون حرباً ضد بعضهم البعض، أي بين برلين ولايبزيغ، موطنه إلى حدّ ما، مثلما يشعر شخص ما بأنه ينتمي إلى ألمانيا وتركيا معاً وبكلّ بداهة. وكان لسنغ يعيش حينئذ صراعاً حاداً حول الهوية إذا ما استعرنا كلمة مألوفة من نقاشات الهجرة اليوم. وقد نظر هو نفسه إلى هذه القضية بشكل مختلف تماماً، فلم ير في ذلك صراعاً بل ثراء مزدوجاً ومضاعفاً للانتماء باعتباره مواطناً عالمياً. وردّ ذات مرّة بسخرية على تهمة انعدام ولائه الشخصي بالقول إنني „واحد من الناس غير المتحزبين في هذا العالم". ولأنني مثل جميع أبناء المهاجرين الذين يتحدثون بشكل نقدي عن الأوضاع الألمانية فقد اعتدت على الحجة الاعتراضية التي تطالبني الاهتمام بشؤوني الخاصة، فأودّ الإشارة هنا على الأقل وبالارتباط مع خطابي اليوم، بأنّ ألمانيا، نعم ألمانيا أيضاً، هي بلدي وثقافتي الشخصية.



لسنغ لم ينبذ الوطنية لأنه كان ينتمي إلى دول متعددة وفي أزمان مختلفة فحسب ـ فكان باستطاعته الاندماج في عموم المجتمع البروسيي إبّان إقامته ببرلين أو الانخراط في المجتمع الساكسوني أثناء إقامته في لايبزيغ ـ إلا أن الأمر كان على العكس من ذلك تماماً، فكان، ومثلما لاحظ في سنواته الأخيرة، يتهم بالولاء إلى لايبزيغ باعتباره بروسيساً متحمساً وإلى برلين باعتباره ساكسونياً أصيلاً، وهناك أدلة في كتاباته تثبت هذين الاعتقادين. وكان رفضه يقتصر مبدئياً على الدولة التي كان يقف إلى جانبها في تلك اللحظة. وأصبح لسنغ من مشوهي الوطن وعن قناعه، و „عبقريّ في المنغّصات" مثلما وصفه دانييل كيلمان. ولم يكن النقد الذاتي بالنسبة للسنغ بمثابة قوة دفع سياسية أو إيديولوجية. فلسنغ الذي قرأناه في المدرسة بصفته حكيماً من الطراز العالمي، كان يميل أصلاً إلى رفض الآراء العادية السائدة آنذاك. وقد وصفه صديقه الأكبر منه سنّاً كرستيان فليكس فايسه بأن „روح التناقض كانت مجسدة فيه، وكان أوّل من يعارض نفسه، حالما تلقى كلماته المتناقضة استحساناً من قبل الآخرين". وأضحت طعون لسنغ الموجهة للاهوت السائد في عصره أسطورية ومسرحيته «ناثان الحكيم» التي تحولت إلى بطاقة تعريف بالأفكار الأوروبية المتسامحة، مستثنياً عملياً ديانته المسيحية من نزعة التسامح.

الشعراء يفكرون أبعد من القومية التعلّم من لسنغ لا يعني الارتقاء بمبدأ النقد الذاتي فحسب، ومعارضة ما هو ساري المفعول، بل يعني كذلك احترام الغريب ومساندة الضعيف. وهذا مطلب جذري موجه إلى كلّ ثقافة وأدب اليوم أيضاً وهو: احترام الآخر وعدم المهادنة مع الذات، والدفاع عن المهمّش ومعارضة المتسلّط.

ولم يقف لسنغ وحيداً في موقفه هذا ضمن تاريخ الأدب الألماني، بل على العكس. فالخطابات التي تلقى في الاحتفالات وأثناء تسليم الجوائز تذكّر مثلما هو معروف بمساهمة الشعراء والمفكرين في نشوء الأمم. بيد أنّ العديد من هذه الخطابات تتجاهل واقعاً مهماً للغاية عندما تستعين بالأدب لتمتدح القومية: فعندما أصبحت ألمانيا كياناً ثقافياً في نهاية المطاف، ثم كياناً سياسياً، كان أدباء ألمانيا يفكرون أبعد من حدود ألمانيا نفسها. فلم يتطلع كبار الشعراء والفلاسفة الألمان في أواخر القرن الثامن عشر والقرن العشرين إلى ألمانيا، بل إلى الوحدة الأوروبية، سواءً غوته أو كانط أو غيرهما. واشتد رفض ما هو قومي في القرن العشرين، لاسيما بعد تجارب الحرب العالمية الأولى: فجاء حلم الاتحاد الديمقراطيّ لدول أوروبا الذي جعله هوفمنستال و هيسه وعائلة مان و توخولسكي و سفايغ و روت و دوبلين في مواجهة القومية داخل ألمانيا والنمسا. ويبدو التصور غريباً الآن بأن أحداً من هؤلاء الكتّاب ردد من أعماق قلبه ذات يوم كلمات النشيد الوطني لبلاده مثلما يطلب اليوم من لاعبي المنتخب الألماني ذويي الأصول التركية والبولندية والعربية وفرضه شرطاً عليهم.

واستحال الخطاب السائد في ألمانيا إلى خطاب تبريريّ أمام الذات ونقديّ إزاء الآخرين، فهو يكيل المديح للناجح المتفوق وينحى باللائمة على الضعيف. وإذا ما تناولنا أي كتاب رائج تقريباً عن قضية أوروبا صدر في السنوات الأخيرة أو كل ندوة تلفزيونية حول قضية الهجرة وكل عنوان من عناوين جريدة بيلد حول قضية المعونات المالية التي تقدمها الدولة للمحتاجين، وبغض النظر عما إذا كانت هذه الكتابات حصيفة أو متدنية المستوى، تدعي التعاطف أو محرضةً، ولا نتحدث هنا عن الحكم، بل عن بنية الخطاب، فنرى أنّ الشعور الجمعي، النحن، يبدو مهدداً دائماً. وعلى النقيض من ذلك يقف الغريب والمهاجر والمسلم والأوروبي الشرقيّ وطالب اللجوء والمؤسسات الأوروبية والمهاجر اليوناني مؤخراً باعتباره مصدر تهديد من حيث الأساس. ولا تختلف المواقف في الكتب الأكثر مبيعاً والندوات التلفزيونية وعناوين الصحف إلا على أمر واحد وهو: هل أنّ هذه المشكلة قابلة للحل، أم عصية على أي حلّ. بينما كان فهم لسنغ للدولة يقف على النقيض من ذلك، فكانت تلك دولة المساواة من حيث الجوهر بالنسبة له وغير شعبوية، وكان هذا موقفه قبل عقدين من قيام الثورة الفرنسية وقرنين من صياغة الحقوق الأساسية غير القابلة للنقض في الدستور الألماني. ودأب على معارضة الانقسام بين الذات الغريب وبين مجتمع الأغلبية والأقلية وبين الحاكم والمحكوم. فعبارة نحن كانت تعني كلّ أحد من وجهة نظر لسنغ. وكان يقيّم حالة الدولة ليس من خلال الأغلبية، بل من خلال وضع الأقليات. فكتب في حواراته الفلسفية التي حملت عنوان Ernst und Falk „إن سعادة الدولة هي مجموع السعادة الفردية لجميع الأعضاء. وليس هناك سعادة أخرى سوى هذه. وكل سعادة دولة يعاني بعض أفرادها أو تكتب عليهم المعاناة فهي مجرد تستّر على الطغيان، ليس إلا".

وعندما استلمت المؤرخة والفيلسوفة حنّا آرندت جائزة لسنغ هنا في هامبورغ عام ١٩٥٩ اعترضت في خطبتها التكريمية الرائعة وبموضع واحد فقط على لسنغ. وهو الموضع الذي يطلب به السلطان صلاح الدين الأيوبي من ناثان الحكيم أن يتقدم منه. فقالت هانّا آرندت إنها تعتبر إجابة ناثان عن أمر صلاح الدين بالتقدم: „تقدم أيها اليهودي" بالقول إنّه „إنسان"، تعتبر هذه الإجابة „تنصلاً منفراً وخطيراً عن الحقيقية". وكانت تعتقد لأعوام طويلة بأنّ الإجابة المناسبة والوحيد عن سؤال „من أنت؟" هي „إنني يهودي". وقد نطقت هانّا آرندت هذه العبارة بأسف واضح، بل بحزن يشعر به المرء حتى بعد مرور نصف قرن. وشددت مرّات عديدة على أنّها لا تعني بعبارة „أنا يهودي" أيّ نمط إنساني مفضّل أو نموذجي، بل

إنها لم تعن بذلك حتى أيّ واقع تاريخيّ، إنما „الاعتراف البسيط بالواقع السياسي الراهن الذي فرض هذا الانتماء والذي ساهم بحسم الإجابة عن سؤال الهوية الشخصية للمجهول الذي لا يحمل اسماً"، مذكرة „بالمبدأ الأساسي والعصيّ على الفهم والذي يقول إنّ المرء لا يستطيع إلا ردّ ما يهاجم به، هكذا ببساطة وبالذات في أزمان الملاحقة القائمة على السبّ والتجديف". وبالتأكيد أنّ هانّا آرندت بقيت في الولايات المتحدة أيضاً لهذا السبب، حيث تستطيع العيش والكتابة هناك باعتبارها إنساناً، وليس من أتباع شعب ما. وفي هذا العام الذي تسلّمت به هانّا آرندت جائزة لسنغ في مدينة هامبورغ هاجر والداي من إيران إلى ألمانيا، ثم ولدت أنا بمدينة «زيغن» بعد ذلك بثماني سنوات. وحالما قرأت خطبة هانّا آرندت قبل فترة قصيرة سألت نفسي كيف ستكون إجابتي لو كنت في محلّ ناثان؟ وقد حدث ذلك بعد الرابع من تشرين الثاني/ نوفمبر من عام ٢٠١١ والذي تمّ فيه الكشف عن عمليات الاغتيال التي ذهب ضحيتها تسعة أشخاص بسبب انتمائهم إلى شعب آخر، وهم ثمانية أتراك ويوناني تاسع. وأحد هذه الهجمات وقع في منطقة مجاورة لنا مباشرة مثلما قرأت في الصحف، منطقة تبعد مسافة بضعة منازل عن روضة الأطفال في مدينة كولونيا حيث أجلب ابنتي كلّ يوم في حوالي الساعة الرابعة عصراً. وهناك محلّ صغير لبيع المواد الغذائية لا يمكن التعرف عليه من الخارج باعتباره محلاً أجنبياً، لأنه يشبه المحلات الشعبية التي تديرها النساء المسنات، اشترته عائلة إيرانية دون أن تغيّر من محتوياته وعروضه شيئاً. وأنا كنت أشتري دائماً من هذا المحل، لكن يجب أن اعترف بأنني كنت اشتري القليل لأن أسعار المحل كانت مرتفعة نسبياً، وكنت اكتفي بشراء الاحتياجات اليومية وأتحدث مع أصحاب المحل أو ابنتهم التلميذة في المدرسة الثانوية، والتي كانت تحضّر واجباتها المدرسية فوق طاولة البيع، سعيداً أيضاً بسماع ابنتي وهي تتكلم بضع مفردات باللغة الفارسية. لكن هذا المحل أغلق ذات يوم وأطبق عليه بابه الحديدي. فقلت إنه قد لا يبيع كثيراً، والزبائن ربما لا يشترون إلا الحاجيات اليومية، فلم تكن العائدات كافية لمعيشة العائلة. وعرفت بعد الرابع من تشرين الثاني/ نوفمبر من عام ٢٠١١ بأنّ أحد إرهابييّ خلية تسفيكاو، وهو أوفه موندلوس حسب الوصف، قد دخل المحل حاملاً سلّة شراء وضع فيها علبة خاصة بعيد الميلاد حمراء اللون ورسمت عليها نماذج نجوم. فاشترى هذا الزبون المجهول قليلاً من المواد الغذائية وأدعى أمام طاولة البيع بأنه نسي محفظة نقوده. وتعهّد بجلب النقود ثمّ وضع سلّة الشراء في المحل. وبعدما تأكّد أصحاب المحل من عدم مجيء الزبون مرّة أخرى وضعوا العلبة في الغرفة المجاورة. وبعد مضي أربعة أسابيع فتحت البنت العلبة فرأت موادّ متفجرة. لكنها نجت من الانفجار، رغم أنّ وجهها الجميل بقي مشوّهاً. فانتقلت العائلة إلى مكان مجهول. فمن ذا الذي أبلغ إرهابيي تسفيكاو بأنّ المحل الذي مازال يحمل اسم صاحبه الألماني السابق ودعايتين لبيرة كولونيا (المعروفة بكولش)، أصبح في عهدة أجانب؟ فلابد أن يكون هناك أنصار في كولونيا أيضاً لهذه الخلية النازية، لم يكتشفوا إلى اليوم. وبلا شكّ أنّ تلميذة المدرسة الثانوية لم تهاجم باعتبارها إنساناً، إنما بصفتها أجنبية وإيرانية ومسلمة، وعلى مسافة ثمانين متراً من روضة ابنتي. وأنا أسأل نفسي هنا: كيف سيكون ردّي إذا ما خاطبني أحد باعتباري أجنبيا أو إيرانياً أو مسلماً؟ فهل سأصرّ على أنني إنسان، بل إنسان قبل كلّ شيء؟ أم اعتبر إجابة ناثّان تنصلاً منفراً وخطيرا بعد الرابع من تشرين الثاني/ نوفمبر من عام ٢٠١١؟ إنني لا أحتاج إلى فترة طويلة للتفكير، إنما سأجيب ومثلما أجبت دائماً في ألمانيا بأنني إنسان، وذلك بعد مرور خمسين عاماً على خطبة هانّا آرندت وهجرة والديّ.

ولم يعش أحد منّ أفراد أسرتنا الكبيرة، لا والداي ولا إخوتي حتى، التجربة التي توجب على هانا آرندت أن تخوضها. وعلى الرغم من جميع الصعوبات الفردية فإننا نعترف بالجميل لهذه الحرية التي وهبها لنا هذا البلد والفرصة التي أتيحت لنا للتمتع بالحقوق المكفولة لنا. وغالباً ما أفكر عندما أتجول داخل ألمانيا، بل إنني أفكر أكثر من ذلك كلّما عدت من الخارج بأن ألمانيا أصبحت ومنذ خطبة هانّا آرندت بمناسبة منحها جائزة لسنغ وهجرة والدي، أصبحت بلداً مقبولاً بشكل مفاجئ، بل بلداً إنسانيّاً زاخراً بالمودة واللطف. وربما لم أتحدث كثيراً عن هذا الحبّ، لكن يمكن ملاحظة ذلك في كتبي، وخاصة في روايتي الأخيرة، على ما أظن. وعندما لا أتحدث عن حبّي إلى ألمانيا، فإن ذلك يعود إلى ما تعلمته من لسنغ الذي لاحظ بأنه لم يخنق الروح الوطنية في أعماقه، لكن „مديح الوطني المتحمس هو آخر ما كنت أسعى إليه حسب اعتقادي، هذا الوطني الذي يجعلني أنسى بأنني أسعى لأن أكون مواطناً عالمياً".

ولعلّ وقع هذه العبارات الأخيرة جاء مفاجئاً ويحمل نبرة مصالحة، لكنها حملت في الواقع روح الكفاح. لأن أولئك الذين يمثلون القومية لا يقفون إلى جانب ألمانيا التي أحياها، إنما يتمردون على التعددية والانفتاح العالمي عن طريق العنف أو عبر وسائل حزب متطرف أو مؤسسة إعلامية، سواء كانوا قادمين من وسط المجتمع أو من هوامشه، الأمر الذي لم يظنه والداي أو هانّا آرندت بأنه ممكن الحدوث في عام ١٩٥٩.

وحينما كتب لسنغ مسرحيته عن الشعور بالوطنية، جعل فيلوتاس يجسّد المثال الاجتماعي للوطنية المتحمسة. بيد أن لسنغ نفسه كان يحبّ أريديوس بشكل بارز، أي الملك الآخر، المعادي الذي يسأل فيلوتاس عن معنى البطولة بدون حبّ الإنسانية، ويستسلم بلا قتال بعد انتحار فيلوتاس حبّاً لوطنه. وصار أريديوس يدمدم بكلمات من قبيل „سفكنا أنهاراً من الدماء هباءً وغزونا بلداناً دون طائل. وسيحمل المنتصر الكبير غنيمتنا وينسحب. فتعال، وارجع لي ولدي! وإذا ما حصلت عليه ثانية، فلن أصبح ملكاً مرّة أخرى. فيا أيها الناس هل تعتقدون بأن المرء لن يستطيع أن يسدّ رمقه؟".

نويد كرماني كاتب وباحث متخصص في العلوم الإسلامية، وهو يقيم بمدينة كولونيا الألمانية. وهذا النص المختصر هو من خطاب ألقاه الكاتب في ٢٢ كانون الثاني/ يناير في مسرح تاليا بمدينة هامبورغ وذلك بمناسبة افتتاح مهرجان لسنغ المسرحي.

ترجمة: حسين الموزاني

كتـب
مسرح

■ صدر كتابان جديدان عن سياسة ألمانيا في الشرق إبّان الحرب العالمية الأولى لشون ماكميكين وألكسندر فيلَ. ويقيم الكتابان قضية تطلعات ألمانيا إلى أن تصبح دولة عظمى من وجهتي نظر مختلفتين تماماً. (راجع مقالي فيلَ وماكميكين في هذا العدد).

الإمبريالية بمساندة السكك الحديدية

قطار الشرق السريع والحرب العالمية الأولى

سيمونه فالك SIMONE FALK

„لقد وضع لغمٌ في سريرة الألمان النقيّة وهو أنّ هناك فصلاً تاريخياً يُدّعى أنه كان فصلاً محترماً وقد تمّ التغلّب عليه، وكان يتعلّق بالحرب العالمية الأولى، بيد أن هذا الفصل لم يتمّ تجاوزه تماماً كما لم يتمّ تجاوز الحقبة الهتلرية بعد." هذا النصّ الذي ورد في مجلة «دير شبيغل» الصادرة في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦١ يصلح تماماً لوصف الرأي الذي أطلقه المؤرّخ فريتس فيشر في مطلع الستينات والذي غلب على النقاش التاريخي العلمي داخل ألمانيا خلال العقدين اللذين أعقبا ذلك. فقد دحض فيشر الخرافة المهيمنة آنذاك والقائلة إنّ دخول الألمان في الحرب كان خطوة غير مقصودة ولا مناص منها على نحو بعيد، وأنها جاءت نتيجةً للظروف التاريخية .. وألقى مسؤولية اندلاع الحرب على الألمان، وذلك لأوّل مرّة في هذا الوضوح، وربط ذلك بسياسة الرايخ القيصري الاستعمارية التوسعية.

وفرضت الملامح الرئيسية لهذه الفرضية نفسها باعتبارها رأياً عاماً سائداً في الواقع، لكن هذا الفرض سبقته نقاشات حيوية ومستفيضة قسمت علم التاريخ إلى معسكرين. فقد تعرّض عنوان أطروحة الدكتوراه التي تقدم بها ألكسندر فيلّ إلى جامعة سارلاند عام ٢٠٠٩ إلى هذا الجدال وأعاد إلى الأذهان عنوان دراسة فيشر التي نشرها بعنوان Der Griff nach der Weltmacht «الطموح إلى القوّة العظمى» عبر تسمية كتابه بـ Kein Griff nach der Weltmacht «لا طموح إلى القوّة العظمى». ويسلّط الكتاب جلّ اهتمامه على النشاطات الاستخبارية الألمانية والنمساوية ـ الهنغارية والعثمانية عشية الحرب العالمية الأولى وذلك عبر ثلاثمائة صفحة.



قطار استخدمه العثمانيون في شبه الجزيرة العربية أثناء الحرب العالمية الأولى
Photo: Hugh Leach

وكانت الإمبراطورية العثمانية تعتبر مسرحاً لمختلف التأثيرات التي مارستها العديد من الدول العظمى خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وكانت النمسا وهنغاريا وبريطانيا العظمى ترى مصلحة كبيرة في الحفاظ على الإمبراطورية العثمانية باعتبارها سدّاً منيعاً يحول دون التوسع الروسي. وكانت بريطانيا تسعى فضلاً عن ذلك إلى الحفاظ على ارتباطها بمستعمراتها في الهند، وكان الرايخ الألماني يطمح في الحصول على منافع اقتصادية، وبمّا أنّ الإمبراطورية العثمانية ذاتها كانت تجد في حضور هذه الدول مصلحة لها تجسدت في رأس المال الأجنبي المستثمر في أراضيها والذي كان يؤمّن وجودها، فقد بدأت منافسة محمومة بين هذه القوى في العقد الأخير من القرن التاسع عشر من أجل إقامة التحالفات السياسة والمصالح الاقتصادية والإستراتيجيات الدولية.

الدعاية والجهاد وكانت النشاطات التجسسية من أهم الوسائل في هذا التنافس. واستخدم فيلّ في هذا السياق مقولتي التكافؤ Symmetrie وعدم التكافؤ Asymmetrie. وحالما اندلعت الحرب وأقامت الإمبراطورية العثمانية والرايخ الألماني حلفاً عسكرياً اتضح سريعاً للمعنيين الألمان بأنّ موازين القوى لم تكن متكافئة، أي أنّ المواجهة „المتكافئة في القتال كانت تعني الهزيمة وحدها وسقوط الإمبراطورية في أيدي الأعداء عاجلاً أم آجلاً. ولم يبق سوى بعض الوسائل التي تحافظ على الإمكانيات والقدرات قدر المستطاع وتتعهد بممارسة تأثير واسع. وتكمن هذه الوسائل في تشجيع الثورة وبثّ الدعاية في مناطق الخصم والقيام بعمليات سريّة". وكانت تلك الأعمال غير المتكافئة منتشرة بشكل واسع ومتنوع، بدءاً بممارسة التأثير على الصحافة اليومية في اسطنبول وتوزيع المنشورات وانتهاءً بالعروض المسرحية والنشاطات التثقيفية الشاملة. وكانت الدعاية الألمانية تهدف إلى تشويه صورة قوات التحالف البريطاني ـ الفرنسي ـ الروسي من ناحية وكسب التعاطف مع الأعمال التي قام بها الرايخ الألماني، ومع ممثليه وترويج الأفكار.

فأي فكرة أساسية كانت تختفي وراء تلك الدعاية؟ البارون ماكس فون أوبنهايم، الذي زار المشرق وأسس مكتب الاستخبارات في الشرق Nachrichtenstelle für den Orient هو الذي استغل في عام ١٩١٤ فكرة نصرة الإسلام للحيلولة دون انتكاسة ألمانيا، ممهداً بذلك السبيل لسيل من الإجراءات الدعائية، وكان المسلمون يشكلون قاعدة هذا المشروع. وكانت هذه الفرضية تقوم على أنّ السكّان المسلمين الخاضعين إلى مختلف القوى العظمى والموزعين في مختلف أنحاء العالم كانوا يمتلكون شعوراً قوياً بالانتماء إلى بعضهم البعض، ولا بد من تعبئة هذا الشعور. واستخدمت هذه الدعاية لجعل السلطان العثماني ولياً للمسلمين جميعاً. وقد طبّق السلطان عبد الحميد، الصديق الوفي للقيصر غليوم الثاني، طبّق هذا التكتيك بضع سنوات قبل ذلك. وكان من شأن هذه المقدمات أن تؤدي أخيراً وبشكل مثاليّ إلى جعل أعداء الإمبراطورية العثمانية أعداء للمسلمين أيضاً، وكانت تلك قاعدة مثالية لخوض الحرب على قوات التحالف الفرنسية والبريطانية وإعلان الجهاد. واتضح سريعاً بأنّ هذا المشروع كان واحداً من غرائب السياسة الألمانية إزاء المشرق وتناقضاتها الشديدة التي قامت على إعلان جهاد عالمي شامل، لكن تُستثنى منه مناطق حلفاء الإمبراطورية العثمانية- أي يستثنى منه المسيحيون واليهود الألمان والنمساويون والهنغار.

ووفقاً لفيلّ فإنّ الهدف الذي يكمن وراء فكرة نصرة الإسلام التي نادى بها الألمان كان إضعاف قوات التحالف، بغية أن تتلقى دول المحور مساندة فعالة في الحرب من لدن الثورات التي ستطيح بالأنظمة القائمة آنذاك. ورمت الدعاية الموجهة إلى تحريض شعوب المستعمرات للقيام بانتفاضات تنتهي بإعلان الجهاد على القوى الاستعمارية. وكان الرايخ الألماني يأمل، حسب فيلّ، من وراء هذا الإستراتيجية، إلى تخفيف الأعباء الجسيمة التي كانت تتطلبها جبهات القتال ولم تكن مجرد شرط لحركة التوسع في اتجاه الشرق مثلما أوحت رواية فريتس فيشر المهيمنة. فكانت الإمبراطورية العثمانية تتمع بأهمية غير مباشرة واعتبرت وسيلة لتبرير غاية محددة بالنسبة لألمانيا، لكنها استغلت ألمانيا أيضاً باعتبارها وسيلة أيضاً لتحقيق أهداف الإمبراطورية. فكانت تلك العلاقة علاقة تكافلية محض وقد نشأت من „حالة الضعف".

وهذه هي نقطة يتخذ منها المؤرخان موقفين مختلفين، إذ أنّ شون ماكميكين يورد أسباباً أخرى لهذه الأعمال الدعائية وكسب ولاء المسلمين عبر نصرة الإسلام.

Sean McMeekin
The Berlin-Baghdad Express: The Ottoman Empire and Germany's Bid for World Power, 1898-1918
Penguin Books, London 2011.

فكرة على عجلات كذلك يتعرض ماكميكين إلى الإشكالية التي طرحها فيشر ويقدم عبر بحثه مساهمة في هذا الجدال الذي يثار بين الحين والآخر. وهو يعزز فرضية فيشر، في خطوطها العريضة على الأقل، وذلك فيما يتعلق بمطامع ألمانيا في أن تصبح قوّة عظمى. ويمّر قطار برلين بغداد كالخيط الأحمر البارز عبر دراسة ماكميكين، ذلك المشروع الذي تلهّف له القيصر غليوم، والقائم على تلك الفكرة البخارية المتحركة على عجلات والتي كان لها أن تربط الرايخ القيصري الألماني بالمشرق. وقد واجه هذا المشروع الذي بدأ العمل بتنفيذه عام ١٩٠٣ صعوبات جغرافية ومالية ولوجستية وتحوّل إلى مصدر قلق للرايخ الألماني. وكشف ماكميكين بأنّ قطار برلين بغداد بالذات كان يمثّل جوهر سياسة التوسع الألمانية.

وكشف الكاتب عن الطموحات المتعلقة بهذا الربط والتي تتمثل في توريد السلاح ونقل الجيوش بطرق سريعة وإقامة قواعد عسكرية في أقصى مناطق الشرق الأوسط والوصول إلى الخليج الفارسي دون أيّ معوقات. وكانت هذه الأهداف تعتبر، وفقاً لمكيكين، قاعدة انطلاق مركزية للتوسع الألماني في اتجاه الشرق عموماً. ووصف بتفصيل تردد العثمانيين في دخول الحرب إلى جانب الألمان ونفاد صبر الرايخ الألماني وعجزه إزاء هذا الموقف، لأنّ فكرة الجهاد ستكون بلا قيمة تماماً في حالة عدم دخول السلطان العثماني في الحرب. وفي نهاية تشرين الأوّل/ أكتوبر من عام ١٩١٤ حسمت الإمبراطورية أمرها أخيراً ودخلت الحرب إلى جانب دول المحور، فبدأ الجهاد.

ثمّ جاء دور «العملاء» الألمان والنمساويين والهنغار، فأصبحوا من أهم المروجين لفكرة نصرة الإسلام. وكانت مهمتهم تقوم على قيادة البعثات الاستكشافية في عدد من بلدان الشمال الأفريقي والدول العربية لبثّ الدعايات الهادفة في نهاية المطاف إلى إعلان الحرب الجهادية على قوات التحالف. وقد تمكن ماكميكين من عرض صور تفصيلية جليّة للأشخاص المعنيين بالأمر وتتبع إخفاقاتهم وتعرّض إلى صفاتهم وتأثيرهم على المسلمين. وفي الوقت الذي تصرف فيه بعض العملاء بنجاح وبشكل مثاليّ وكفء، عرّض لاعبون آخرون فكرة نصرة الإسلام للإخفاق عبر الجهل المطبق وعدم معرفة المنطقة. فكانت النشاطات الدعائية عبارة عن أعمال تلقائية تسببت في إثارة الخلافات وسوء الفهم، وشجّعت الصعوبات اللغوية وعدم الاطلاع على ثقافة المنطقة على نشوء هذه الخلافات. وفشلت خطّة «أوبنهايم» في استخدام الصور لغرض الأعمال الدعائية في المدينة المنورة، وذلك لأنّ الإسلام يحرّم تصوير الإنسان والحيوان. ويناقش ماكميكين هذه السلبيات الذي عمّقت من آثارها حالةُ عدم الاستعداد لخوض غمار الحرب المقدسة في العديد من المناطق وبشكل لم يكن متوقعاً، مما أدى بالنتيجة إلى فشل الفكرة الألمانية المناصرة للإسلام فشلاً ذريعاً.

Alexander Will
Kein Griff nach der Weltmacht. Geheime Dienste und Propaganda im deutsch-österreichisch-türkischen Bündnis 1914-1918
Böhlau Verlag, Cologne 2012.

فهل كان ذلك نجاحاً أم إخفاقاً؟ وتتباين آراء الكاتبين حول تقييم نجاح الحملات الدعائية، فيعيد فيلّ، وعلى النقيض من ماكميكين، النظر في الصورة السلبية المتعلقة بنجاحات ألمانيا والسائدة إلى اليوم والتي صاغها فريتس فيشر. ويوفّق وبأسلوب مقنع في معالجة بعض النجاحات بشكل منفرد، ويضعها في مواجهة المطامح النمساوية ـ الهنغارية وكذلك الفرنسية والبريطانية. ويبيّن بأنّ الدعاية الألمانية قد تكللت بالنجاح بلا شكّ، إذا ما تمّ أخضاعها لمعيار آخر يختلف عن النظر إليها باعتبارها نتيجة تمخضت عنها الحرب. ولكي يدعم فرضيته هذه فإنّ فيلّ يعود إلى مصادر بريطانية قبل كلّ شيء، تؤكّد الخوف الكبير من التأثير الألماني على الإمبراطورية العثمانية. وتشير هذه المصادر إلى الجهود المالية والمعنوية التي أنفقت آنذاك لمواجهة النجاحات الألمانية. وبهذا المعنى فإنّ العملاء الألمان حققوا هدفهم وفقاً لتقييم فيلّ. ولذلك دقّت بريطانيا وروسيا ناقوس الخطر وبذلت جهوداً قصوى لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، مما أدى في نهاية المطاف إلى تقليص تواجد قوات الحلفاء في جبهات الحروب الأوروبية، وأثبت بأنّ الاستراتيجية الألمانية قد تكللت بالنجاح، إذا ما نظرنا إليها بعين أخرى.

الأحلاف المنسية ويُلاحظ أثناء قراءة الكتابين بأنّ كلّا المؤلفين لم يكن على دراية بأنّ هناك دراسة أخرى تكتب بالتزامن مع دراسته، وتتناقض فرضيتها مع فرضية الدراسة الأخرى، لأننا لم نر إحالة أو إشارة إلى هذا الكتاب أو ذاك. وقد صدر الكتابان تباعاً وخلال فترة قصيرة. ونشرت دراسة ماكميكين في بريطانيا عام ألفين وأحد عشر بينما صدرت أطروحة الدكتوارة التي أعدها فيلّ في ألمانيا عام ألفين واثني عشر، ولم يكن من الممكن تلافي هذا التزامن.

ويقدم كلا الكتابين صورة مستفيضة للبنى الإيديولوجية والاقتصادية وطبيعة التحالفات عشيّة الحرب العالمية الأوّلى وإبّانها. واستطاع ماكميكين وفيلّ عرض السياسية الانتهازية التي غلبت عليها التناقضات، تلك السياسة المثيرة للسخرية نوعاً ما والتي مارستها الدول العظمى، استطاعا عرضها بشكل واضح ومفهوم، على الرغم من طابعها الشديد التعقيد.

ويكمن إنجازهما بشكل خاص في أنهما أعادا إلى الأذهان ذلك الحلف الوثيق بين ألمانيا والإمبراطورية العثمانية والذي اختفى اليوم من الذاكرة الجمعية لكلا القوميتين والدولتين اللتين تمخضت عنهما بعد انتهاء الحرب. وعلى وجه الخصوص جرى إهمال الرغبة الغريبة للطرف الألماني في استغلال فكرة الجهاد ونصرة الإسلام وسيلةً لتحقيق الأهداف الألمانية، والتي من شأن التطرق إليها وضع التطورات السياسية الراهنة في دائرة جديدة من الضوء.

سيمونه فالك مؤرخة وأستاذة التاريخ الألماني والبولندي في جامعة كيل.
ترجمة: حسين الموزاني

■ كُتب الكثير بالفعل حول شكسبير، وكذلك حول أفغانستان. ولكن في أواخر فبراير أصدرت دار نشر Unionsverlag كتابًا يُلقي الضوء من جديد على كلا الموضوعين ويربط بينهما ليقدم رؤى شديدة العمق حول البلاد: من خلال عملهما التعاوني الوثائقي «شكسبير في كابول» نجح كل من ستيفن لاندريجان، صحفي أمريكي وناشط في مجال التنمية، وقيس أكبر عمر، صحفي ومترجم فوري أفغاني، في رسم صورة لبلد وثقافتها دون التطرق إلى العموميات، وذلك في إطار نشأة عمل مسرحي.

شكسبير في كابول

حول محاولة لإخراج عمل مسرحي

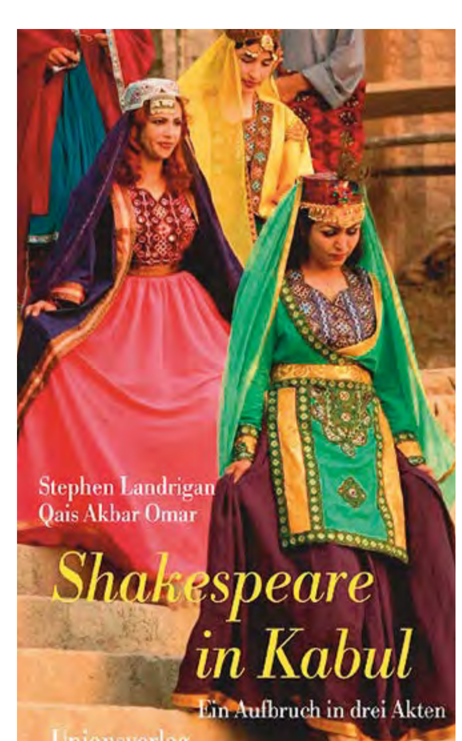
هانا نويمان HANNAH NEUMANN



مشهد من مسرحية: أميرة خيرات
Photo: Kate Brooks

في صيف ٢٠٠٥ بدأت في العاصمة الأفغانية كابول تجارب إخراجية تُعد الأولى من نوعها فيما يتعلق بهذا الشكل من أشكال التعاون: تحت قيادة المخرجة السورية الكندية كورينه جابر، وبتمويل من المؤسسات الثقافية الأجنبية، تمرنت مجموعة من الممثلين الأفغان من الجنسين على أداء مسرحية «خاب سعي العشاق» (Love´s Labour´s Lost) لشكسبير. إن كتاب شكسبير في كابول يتعدى كونه توثيقًا لعملية إخراجية، تبدأ بالصعوبات التي واجهت فريق العمل في نقل النص من الفارسية والإنجليزية إلى اللغة الدارية وتنتهي بجولات العروض في المحافظات الأفغانية. بل هو أكثر من ذلك بكثير، فهو يجسد في الوقت نفسه تاريخ الممثلين وبالتالي تاريخ أفغانستان الحديث. ثمة القليل من الإصدارات قادرة في الوقت الراهن على تقديم لمحات بهذا الأسلوب المؤثر حول

الحياة اليومية لتلك البلاد التي عصفت ولازالت تعصف بها الأزمات. إنها تلك اللمحات السريعة هي التي تجعلنا نستوعب سبب فشل المساعدات التنموية في العديد من الجوانب على الرغم من صلاح أهدافها.





Stephen Landrigan und
Qais Akbar Omar
Shakespeare in Kabul.
Unionsverlag, Zürich 2013

الإيقاع الأفغاني كثيرًا ما يصعب على المبدعين الأجانب، على سبيل المثال، أن يجدوا أنفسهم في غمرة الإيقاع الأفغاني: فربما يثير التعجب، أن تجارب الأداء لا تبدأ قبل الساعة الرابعة عصرًا نظرا لانشغال الممثلين في وظائف أخرى يتكسبون منها معيشتهم. وأن أعضاء الفرقة من السيدات يتعين عليهن العودة إلى المنازل قبل حلول الظلام، مما يترك نافذة زمنية من ثلاث ساعات فقط لتجارب الأداء. ويتخلل تلك الفترة القصيرة استراحة يُقدم فيها الشاي والمخبوزات، وهو تقليد ظل قائمًا حتى الآن، رغما عن الأزمات. إضافة إلى ذلك، لا تخلو فترة التجارب الأدائية من الرنين المتواصل للهواتف المحمولة. إلا أن ستيفن لاندريجان وقيس أكبر عمر، وهو في الوقت نفسه مخرج مساعد في العمل المسرحي، قد أوضحا أن هذا السلوك ليس له أية علاقة بالوقاحة أو بالافتقار إلى الأخلاق في هذا الصدد: فربما يتعلق الاتصال بقنبلة أودت بحياة أحد الأقارب أو الأصدقاء، أو يكون للتأكد أن الأبناء قد عادوا سالمين من المدارس. إذ طالما تعاود المرء المخاوف أن يُستهدف من قبل إحدى الهجمات، فالفن ولاسيما المسرح تم حظرهما إلى حد كبير قبل وأثناء حكم طالبان وقوبلت أية انتهاكات بعقوبات وحشية. ورسخت تلك المخاوف في عقول الناس على مدى السنوات، جنبًا إلى جنب مع أوجه الحظر والرقابة، واستمرت في قمع القوى الإبداعية حتى يومنا هذا. مما تسبب في ضياع العديد من التقاليد الثقافية بمرور الزمن. وعلى الرغم من ثراء الثقافة الأفغانية بالقصص الشعرية، المكتوبة على هيئة أبيات لا تختلف عن تلك الخاصة بشكسبير في ازدواجيتها، إلا أن الممثلين في كابول يجدون صعوبة في فهم تلك الدراما المترجمة بما تحويه من لغة منمقة وسخرية متوارية.

نحو جذورهم الخاصة إن التنقيب عن ثقافة البلاد السردية والمسرحية التي تتميز بتعدد جوانبها، ينبغي أن يتم أسفل أنقاض كوارث العقود الماضية. ويتضح من خلال الكتاب أن تقديم إحدى مسرحيات شكسبير لا يشير فقط إلى تبني بعض العناصر من الحضارة الغربية، بل من شأنه كذلك أن يقود هذا الشعب إلى جذوره الخاصة مرة أخرى. فلقد أعاد اكتشاف المتعة في لغته الخاصة، بما تحويه من أشعار وتورية، وهي إحدى الجوانب التي تلعب دورا في هذا الصدد. إلى جانب تناوله الموضوعات الراهنة الخاصة به من الناحية الفنية. أما عن كون هذا النص، وإن كان من ثقافة أخرى، يتناسب أيضًا مع هذا الغرض، فهذا ما يوضحه أحد الممثلين في «شكسبير في كابول» قائلًا: „إن مسرحية «خاب سعي العشاق» توضح أن القيود التي تُفرض على نمط الحياة، كالتي تفرضها علينا طالبان، تعد كأنما بُني سور في منتصف طريق حيوي. وعاجلًا أم آجلًا سوف تُقدم الشعوب على هدم هذا السور. فإن تلك القيود لن تحيدهم عن طريقهم، حتى وإن كلفهم ذلك حياتهم".

الاعتداءات لا تزال ثقة وشجاعة الممثلين تلقى بظلالها على هذا الجزء من أجزاء الكتاب: في الوقت الذي لاقت فيه العروض الأولى صدى هائلًا في كابول، بدأت رحلة النضال للبحث

عن المزيد من سبل التمويل وازدادت حياة الممثلين اليومية صعوبة، لما يتعرضون له من اعتداءات متواصلة من قبل السكان. وعلى الرغم من ذلك لم تنقطع السبل والوسائل لتقديم العرض المسرحي في مناطق أخرى من أفغانستان، وذلك تمهيدًا لعملية إعادة الإعمار الثقافي. إلا أن الكتاب لم يوضح السبب وراء عدم الرجوع إلى التراث الثقافي الأفغاني بشكل كاف في خضم عملية الإعمار الثقافي، وترك تلك المسألة غير محسومة. بل وأشار بدلًا من ذلك إلى وجود بعض المؤسسات الثقافية الخارجية التي تسعى على ما يبدو إلى نشر الانطباع بأنه لا يمكن الاستغناء عنها، وأنها قادرة دون قيود على فرض معايير القيم الخاصة بها.

ولكن على الرغم من تلك الانتقادات الخفيفة، إلا أن الكتاب ينتهي بتطلع إيجابي إلى تقديم عمل آخر من أعمال شكسبير. وهذا ما حدث بالفعل في عام ٢٠١٢ حين استعانت كورينه جابر بممثلين أفغان وأخرجت مسرحية «كوميديا الأخطاء». مع العلم بأن غالبية تجارب الأداء تعين إجرائها في الهند تخوفًا من الهجمات. ولم تُعرض المسرحية إلا في في الخارج، فهذا العرض لن يرى النور في أفغانستان أبدًا، نظرًا للمخاوف المتزايدة من التعرض لهجمات. ويبقى أن نأمل أن يحظى كتاب «شكسبير في كابول» لقيس أكبر عمر وستيفن لاندريجان بجمهور عريض من القراء. فعندئذ يكون المسرح قد ساهم، وإن كان بطريق غير مباشر، بجزء آخر صغير في سبيل تحقيق التفاهم بين الشعوب.

هانا نويمان تعد رسالة دكتوراه حول المسرح الإيراني والأفغاني المعاصر بمعهد علوم المسرح والإعلام في كولونيا.

ترجمة: هبة شلبي

WORLDWIDE: WORK
A GLOBAL DEBATE

IS HOME WHERE WORK IS?
January 19th 2014: Beijing – Johannesburg – Munich

WHAT IS FAIR WORK?
February 23th 2014: Mexico City – Rome – Munich

MEN'S WORK, WOMEN'S WORK?
March 30th 2014: Cairo – Delhi – Munich

DOES WORK MAKE US HAPPY?
May 25th 2014: Tokyo – Madrid – Munich







For the latest details about the programme of events, visit: www.goethe.de/fikrun

من „المشاركة" إلى „حوار الحضارات"

«فكر وفن» العربية تطفىء شمعتها المائة

أحمد حسو AHMAD HISSOU

لماذا «فكر وفن» العربية؟ ربما في هذا العنوان ما يخدع! فـ «فكر وفن» مجلة ألمانية دورية يصدرها معهد غوته بثلاث لغات هي العربية والفارسية والإنكليزية بالإضافة إلـى اللغة الألمانية كطبعة إلكترونية. هـذا جـزء من الحقيقة، بيد أن الجزء الآخر منها يقول إنّ مجلة «فكر وفن» مجلة عربية فعلا، فهي صدرت بالأصل باللغة العربية على يد الناقد الفني ألبرت تايله والمستشرقة المرموقة آنا ماري شيمل قبل خمسين عاما. فقد صدر العدد الأول منها، وباللغة العربية في عام ١٩٦٣ (راجع مقالة شتيفان فايدنر، صفحة٥٤، في هذا العدد). يومها كان الصراع بين المعسكرين الغربي والشرقي على أشده والحرب الباردة بلغت أشد ذروة لها بعد تشييد جدار برلين وأزمة خليج الخنازير.

ربما توحي هذه المعلومات بأن هذه المجلة ذات المضمون الفكري والفني تأسست لتكون جـزءا من البروبغندا الغربية ضد المعسكر الشرقي بزعامة الاتحاد السوفييتي سابقا. بالتأكيد لم يكن الأمر كذلك. فنظرة أولية على أعداد «فكر وفن»، خصوصا الأولى منها، تكشف أنّ المؤسسين لم يكونوا يحملون هما سياسيا مباشرا ولم يكترثوا بالآني والمتغير السريع، وإلا لما سعوا أن تكون المجلة ثقافية ودورية ذات طابع تحليلي عميق يكاد يكون نخبويا. ويوم أبصرت هذه المجلة النور، لم يكن هناك من يتحدث عن حوار الحضارات، لذا نقرأ في افتتاحية العدد الأول أن مهمة «فكر وفن» هي „التحريض على التفكر والتوسط بين الأمم وبناء جسور معنوية. وتقتضي هذه المهمة أن نتعارف وأن يحترم بعضنا بعضا على ما نحن عليه". ولم تكتف المجلة يومها بمهمة «التعارف» بل ذهبت إلى أكثر من ذلك، إلى «المشاركة». لكن أي مشاركة؟ الجواب في الافتتاحية نفسها „... لا معنى للمشاركة ولا دوام لها إلا إذا كان مبدؤها روحيا"، قائما على استدامة „التقاليد العريقة بين الشرق والغرب، أي التبادل الروحاني الخصيب الذي شاهدناه في العصور الماضية".

بعد هذه الافتتاحية „الروحية"، التي لا يحتاج المرء إلى كبير عناء ليكتشف بصمات المستشرقة الفذة آنا ماري شيمل خلفها، بحوالي أربعين عاما تقريبا، وبعد التحولات الكبيرة التي مرت بها «فكر وفن» بإشراف باحثين ومفكرين كبار تولوا إدارة تحريرها، أي في عام ٢٠٠٢، استلمت هيئة تحرير جديدة المسؤولية عن هذه المجلة الفريدة من نوعها وأضحت تصدر بثلاث لغات مع احتفاظ الطبعة العربية بهويتها الطاغية. وبعد إصدار عدد خاص عن اعتداءات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر الإرهابية في الولايات المتحدة، دشنت هيئة التحرير الجديدة باكورة أعمالها بالعدد ٧٥ من «فكر وفن». في ذلك الوقت، لم يعد أحد يتحدث عن «المشاركة» أو «التبادل الروحاني»، بل أضحت مفردة «حوار الحضارات» عنوان هذه المرحلة الأساسي. ومنذ البداية بات معروفا لدى المحررين الجدد للمجلة أنه بات من الضرورة بمكان أن تنزل «فكر وفن» من „عليائها الاستشراقي" وأن تقترب من الهموم السياسية الآنية لقرائها وأن تهجر نهائيا فكرة „المجلة الكاتالوج". ولو عدنا لافتتاحية العدد ٧٥ لقرأنا شيئا مختلفا تماما عما ألفناه في الماضي. الجملة الأولى من الافتتاحية تكشف كل شيء و „تفضح" نية هيئة التحرير الجديدة. „كيف يمكن لمجلة تصدر مرتين وحتى أربع مرات في السنة أن تتفاعل بشكل خلاق مع الأحداث الثقافية والسياسية الآنية؟ هل عليها أن تتفاعل مع مثل هذه الأحداث أم تحاول أن تكون مستقلة، قدر الإمكان، عن الآني والسريع منها؟ فكر وفن اختارت لنفسها المزج بين التوجهين، إذ لا يمكن أن نتجاهل التطورات التي تؤثر في حياتنا بشكل جذري".

في العدد ٧٥ حضرت السياسة بشكلها المباشر وبقوة عبر ملف خاص بعنوان: «الشرق الأوسط وألمانيا». كما حضرت الفلسفة من خلال ملف «غادامر وفلسفة التأويل». في الأعداد اللاحقة صار حضور السياسة أمرا مألوفا، خصوصا العدد ٧٧ وما تلاه. ومع هذه التطور، ومحاولة «فكر وفن» في التحول إلى مجلة „عادية" غير نخبوية أو استشراقية، صارت المجلة طرفا في „معارك ثقافية" حتى لا أقول إنها تعرضت لحملة من بعض المثقفين العرب لم يتقبلوا أن تصبح هذه الدورية العربية الألمانية جزءا من المشهد الثقافي في العالم العربي. اليوم ومع صدور العدد ١٠٠ من الطبعة العربية لفكر وفن نترك للقارئ الحكم على هذه التحولات والتطورات التي مرت بها هذه المطبوعة.

تعلم اللغة الألمانية
معايشة ألمانيا

تعتبر اللغة الألمانية هي مفتاح فهم الثقافة الألمانية ومعايشة بلد التنوع وشعبها. والعرض الذي يقدمها معهد جوته لتعلم اللغة الألمانية لا تعد ولا تحصى. فنحن نقدم لك دورات تعليمية في بلدك وفي ألمانيا وفي إطار الدورات التعليمية عن بعد.

www.goethe.de/deutschkurse

GOETHE INSTITUT
Sprache. Kultur. Deutschland.

مجلة «فكر وفن»
عدد ١٠٠، السنة الثانية والخمسون ٢٠١٤

الناشر: معهد غوته
إدارة التحرير:
شتيفان فايدنر
هيئة التحرير:
شتيفان فايدنر، أحمد حسو

المراجعة اللغوية:
أحمد فاروق، أحمد حسو

الإخراج الفني: ميشائيل كروب، بون

الديجتال والصف والإخراج الفني:
م. أمين المهتدي
المهتدي للتصميم والنشر، برلين
aminmohtadi@hotmail.de

عنوان الناشر:
Goethe-Institut e.V.
Dachauer Str. 122
80637 München, Germany

عنوان إدارة التحرير:
Fikrun wa Fann
Prälat-Otto-Müller-Platz 6
D-50670 Köln, Germany

البريد الإلكتروني:
fikrun@goethe.de

الإنترنت:
www.goethe.de/fikrun

© 2014 Goethe-Institut e. V.
ISSN 0015-0932

بامكانكم الحصول على النسخة المطبوعة
من خلال الرابط:
http://shop.goethe.de

«فكر وفن» النسخة الإلكترونية
www.goethe.de/fikrun

الطباعة: SDV - Saarländische Druckerei und Verlag GmbH

«فكر وفن» مجلة ثقافية تصدر مرتين في السنة وتوزع مجانا. يحق لأصحاب المكتبات أن يبيعوها بسعر لا تتجاوز قيمته ٢,٥ يورو/دولار.

المقالات المنشورة في العدد لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر هيئة التحرير ومعهد غوته.

الغلاف الأمامي: بورتريه شخصي للفنان أوتو ديكس على شكل إله الحرب (مارس)
من معرض:
1914 – The Avant-Gardes at War, Kunst- und Ausstellungshalle der Bundesrepublik Deutschland. 08.11.013–23.02.2014.
© Städtische Sammlungen Freital

الغلاف الخلفي: تمثال خشبي يعبّر عن تشوهات جرحى الحرب العالمية الأولى للفنان الجزائري المقيم في ألمانيا قادر عطية.
Photo: Stefan Weidner

MIX
Paper from responsible sources
FSC™ C004599
FSC www.fsc.org



مواضيع الأعداد السابقة:
العدد ٩٦ | الموسيقا لغة العالم
العدد ٩٧ | آفاق الديمقراطية
العدد ٩٨ | مواجهة الماضي الأليم
العدد ٩٩ | الثقافة والمناخ

موضوع العدد المقبل:
العدد ١٠١ | التعليم







«القنبلة» حفر للفنان ماكس بيكمان

من معرض: *The Avant-Gardes at War – 1914*

Kunst- und Ausstellungshalle der Bundesrepublik Deutschland, 08.11.013–23.02.2014. © Kunsthalle Bremen



أوفه **شنيده** | ألكسندر **فيلّ** | ستانيسواف **ستراسبورغر** | شون **ماكميكين**
شتيفان **فايدنر** | أولريكه **فرايتاغ** | نجاتي **ألكان** | ظافر **سينوجاك**
عالم **غرابوفاتس** | أندرياس **فليتش** | هانا **روبيلين** | نويد **كرماني**
سيمونه **فالك** | هانا **نويمان** | أحمد **حسو**

«فكر وفن» النسخة الإلكترونية

WWW.GOETHE.DE/FIKRUN